الفصل الخامس والثلاثون بعد المئة

اللغات السامية

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها اللغة العربية الفصحى وكذلك سائر لهجات العرب الأخرى ، هي فروع من مجموعة لغات عرفت عند المستشرقين بـ (اللغات السامية). وقد أولع بعض المستشرقين بدرس هذه اللغات، فألفوا فيها كتباً وأبحاثاً ، وأنشأوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسعون في توسيعها وتنظيمها وتبويبها، وقد عرفت دراساتهم هذه عندهم بالساميات « Semitistik ». وهي تتناول بالدرس كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية : تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو عدمه في هذا اليوم ، فالبحث علم ، والعلوم تبتغي المعرفة دون قيد بزمان أو مكان .

وينفق علماء الساميات مجهوداً كبيراً في المقارنة بين اللغات السامية وفي معرفة مميزات كل لغة ، وما بينها وبين اللغات الأخرى من فروق أو تطابق أو تشابه ، ومجال بحثهم في تقدم وتوسع ، خاصة بعد أن أخذ هؤلاء العلماء بأساليب البحث الحديثة التي تعتمد على الفحوص والاختبارات والملاحظات والنقد[1] .

وقد جاءت نظرية (اللغات السامية) من التسمية التي أطلقها (شلوتسر « Schlözer » على العبرانيين والفينيقيين ، والعرب والشعوب المذكورة في التوراة على أنها من نسل (سام بن نوح)[2] . ولم تقم نظرية التوراة في حصر اولاد

---

١ Theodore Nöldeke, Sketches from Eastern History, Beirut, 1963, p. 1.

٢ الاصحاح العاشر من سفر التكوين .

سام على أساس عرقي ، بل بنيت على عوامل جغرافية وسياسية ، ولهذا أدخلت العيلاميين واللوديين « Lud » في أبناء (سام) ، مع أنهما ليسا من الساميين ، ولا تشابه لغتهما لغة العبرانيين[1] .

والقرابة بين اللغات السامية واضحة وضوحاً بيناً ، وهي أوضح وأمتن وأوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات الهندوأوروبية « Indoeurpaichen Sprachen » أو الهندوجرمانية « Indogermanischen Spraden » على حد تعبير بعض العلماء[2] . وقد أدرك مستشرقو القرن السابع عشر بسهولة الوشائج التي تربط بروابط متينة ما بين اللغات السامية ، وأشاروا اليها ، ونوهوا بصلة القربى التي تجمع شملها . بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج والى التنويه بها . فقد تحدث عالم يهودي اسمه : (يهودا بن قريش) « Jehuda ben Koraish » ، وهو ممن عاشوا في أوائل القرن العاشر ، عن القرابة التي تجمع بين اللغات السامية ، وعن الخصائص اللغوية العديدة المشتركة بين تلك الألسن ، كما أبدى ملاحظات قيمة عن الأسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات[3] .

والأساس الذي بني عليه رأي العلماء في حشر من يرون حشره في عائلة الساميات ، أو إخراج من يرون اخراجه منها ، هو قرب لغة من يرون فحصه لترشيحه لعضوية تلك العائلة من اللغات السامية ، أو بُعد لغته عنها ، ثم قرب عقلية من يرون إدخاله في السامية من العقلية العامة التي رسمت حدودها لعقلية الساميين ، من دين وأساطير وحياة اجتماعية وأدب ونحو ذلك مما يحدد عقليات الناس . وبهذه الطريقة يبحث العلماء اليوم موضوع الساميات[4] .

---

١ Theodore Nöldeke, Die Semitischen Sprachen, Leipzig, 1899, S. I, Richard J.H. Gottheil, Semitci Literatures, p. 1, The Columbia University Press, 1911.

٢ Theodore Nöldeke, Die Semitischen Sprachen, S. II, وسيكون رمزه : 'Sprachen

Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Bd. I, S. I.

٣ Sprachen, S. 2, Grūndriss, I., S. I, Geiger, Ursprung der Sprache, 1869, 22.

٤ Richard Hartmann und Helmuth Schell, Beiträge Zur Arabistik, Semitistik und Ielamwissenschafts, Leipzig, 1944, S. 3 ff.

وقد حملت الخصائص المشتركة والألفاظ المهمة الضرورية لشؤون الحياة التي ترد في كل اللهجات السامية بعض العلماء على تصور وجود لغة أم ، في الأيام القديمة ، تولدت منها بعوامل مختلفة متعددة مجموعة (اللغات السامية) . ويؤدي تخيل وجود هذه الأم الى تخيل وجود موطن قديم للساميين كان يجمع شملهم ، ويوحّد بين صفوفهم ، الى أن أدركتهم الفرقة لعوامل عديدة ، فاضطروا الى الهجرة منه الى مواطن جديدة ، والى التفرق ، فكانت هذه الفرقة إيذاناً بتبلبل ألسنة البابليين ، وسبباً الى تفرق ألسنتهم وظهور هذه اللغات .

ولا يعني تصور وجود لغة ساميّة أم « Ursemitish » على رأي بعض العلماء ضرورة وجود لغة واحدة بالمعنى المفهوم من اللغة الواحدة ، كانت أماً حقيقية لجميع هذه اللغات البنات . بل الفكرة في نظرهم مجرد تعبير قصد به شيء مجازي هو الإفصاح عن فكرة تقارب تلك اللغات وتشابهها ، واشتراكها في أصول كثيرة اشتراكاً يكاد يجمعها في أصل واحد ، ويرجعها إلى شجرة واحدة هي الشجرة الأم . فالسامية الأولى أو الساميـة الأم ، أو السامية الأصلية ، هي بهذا المعنى تعبير مجازي عن أقدم الأصول المشتركة التي جمعت بين اللهجات السامية القديمة في الأيام القديمة ، أيام كان المتكلمون بها يعيشون في أمكنة متجاورة وفي اتصال وتقارب عبر عنه بفكرة النسب المذكور في التوراة[1] .

وليس من السهل علينا أن نتصور كيف كانت اللغة السامية الأولى . ولكننا لا نستطيع — بسبب قدم زمان هذه اللغة إن كانت هناك لغة سامية أولى وبسبب الأحوال البدائية التي كانت تحيط بالمتكلمين بها شأن البشرية جمعاء في ذلك العهد ولقلة مستلزمات المعيشة يومئذ وانخفاضها — أن نتصور أن هذه اللغة كانت واسعة جداً بمفرداتها غنية بمسمياتها ، وفي قواعد صرفها ونحوها وفي أساليب بيانهـا ، لأن ما نذكره لا يمكن أن يتوفر إلا في مجتمع متطور متقدم ، وإلا بعد تطور استمر أمداً طويلاً ، ولم يكن الساميون الأولون في ذلك العهد على درجة كبيرة من التطور والتقدم ، حتى تكون لغتهم الأولى على نحو ما نذكره من اتساع وارتقاء .

وتسوقنا إشارتنا العابرة هذه الى السامية الأم الى الإشارة الى الوطن السامي الأول الذي عاش فيه الساميون . أيام اجتماعهم وتكتلهم في وطن واحد ، وأيام

---

١ جواد علي تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٦٦ وما بعدها) ، (٧/١٠ وما بعدها) .

تكلمهم بلسان واحد أو بألسنة متقاربة متشابهة ، يفهم أحدهم الآخر بيسر وسهولة. ثم عن الأيام التي نزلت فيها المكاره على أولئك الساميين القدماء فأجبرتهم على ترك ذلك الوطن في دفعات وفي هجرات متعددة والارتحال عنه الى مواطن أخرى جديدة .

وقد اختلف العلماء في تعيين الموطن الأصلي للساميين ، وذهبوا في ذلك مذاهب ، يخرجنا الحديث عنها عن صلب موضوعنا هذا . والمفروض في هذا الوطن أن يكون المهد الأول الذي ضم الشعوب السامية ، والمكان الذي اتصلت فيه تلك الشعوب بعضها ببعض ، الأثر الذي نراه في اللغة وفي الدين وفي النواحي العقلية وما شاكل ذلك .

وبما أن من غير الممكن التعرف على اللغة السامية الأم ، لأن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك العهد ، فكّر المستشرقون في دراسة أقرب اللغات السامية الى الأصل ، فذهب بعضهم الى أن العبرانية هي أكثر تلك اللغات شبهاً بالسامية الأولى ، وهي لذلك أقرب بنات سام اليها . وذهب آخرون الى تقديم لغة بني إرم على غيرها جاعلين إياها البنت الأولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الأصلية أكثر من اجتماعها في أية لغة أخرى ، ولهذا استحقت في رأيهم هذا التكريم والتقديم . وذهب آخرون الى تقديم العربية على سائر اللغات الأخرى ، لمحافظتها أكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الأولى وعدم تنصلها منها وتركها لها . كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت من قواعد بقية اللغات . غير ان هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة ، يقابلها من جهة أخرى مميزات في العربية لا نجدها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن انها طرأت عليها فيما بعد ، وأن اللغة العربية قد مرت بأدوار تطورت فيها كثيراً ، والتطور هذا معناه ابتعاد هذه اللغة عن الأصل . ثم اننا نجد في العبرانية وفي لغة بني إرم قطعاً من الكلام قديماً جداً لا نجد له مثيلاً في العربية ، وهذا مما يدعو الى حسبان اللغتين المذكورتين أقدم عهداً من اللغة العربية . غير اننا لا نستطيع مع كل ذلك أن ننكر أن معرفتنا وإحاطتنا باللغة العربية لا تكاد تدانيها معرفتنا وإحاطتنا ببقية اللغات الساميه . ومن هنا صارت اللغة العربية بلهجاتها المتعددة حقلاً مهماً لإجراء التجارب والاختبارات في ميدان

مقارنات اللغات السامية ودراستها ، فيه من الامكانيات والقابليات ما لا نجده في بقية الحقول[1] .

وقد ذهب (نولدكه) الى أن من الضروري في دراسة مقارنات اللغات السامية البدء باللغة العربية ، وذلك بأن نأخذ في تسجيل خصائصها ومميزاتهـا وقواعدها وكيفية النطق بألفاظها وما الى ذلك، ثم نقارن ما سجلناه بما يقابله في بقية اللغات السامية ، لنقف بذلك على ما بين هذه اللغات من مفارقات ومطابقات . ولا بأس في رأيه من الاستعانة باللهجات الحالية أيضاً ، لأنها مادة مساعدة جـداً ومفيدة كثيراً في الكشف عن خصائص اللغات السامية وعن مميزاتهـا وتطورها في مختلف العصور . وفي رأيه ان دراسة من هذا النحو ليست بالأمر اليسير ، فإنها تتطلب جلداً وعلماً وإحاطة باللغات السامية كلها وبآثارها القديمة ، وأن يقوم بهـا علماء لغويون متخصصون ، عـلى جانب كبير من العلم والذكاء والإحاطـة بالساميات[2] .

وليس بين اللغات السامية لغة واحدة تستطيع أن تدعي انها سامية صافية نقية ، وانها لم تتأثر قط باللغات الأخرى التي تنتمي الى مجموعات لغويـة غير سامية ، وقضية صفاء لغة ما من لغات العالم وخلوّها من الألفاظ والكلمات الغريبة ، قضية لا يمكن أن يقولها رجل له إلمام بعلوم اللغات ولو يسيراً جداً . واذا كانت اللغات السامية قد تأثرت باللغات الأخرى بسبب اختلاط الشعوب واتصال ألسنتها بعضها ببعض نتيجة ذلك الاختلاط ، فإن من الطبيعي أن تكون اللغات السامية قد أثرت بعضها في بعض ، ولهذا نجد في كل لغة من اللغات السامية ألفاظاً أخذتها من لغة ما من لغات أبناء سام .

وخير ما يمكن أن نفعله الآن في موضوع اللغة السامية وأقرب اللغات الساميـة اليها ، هو ان نقوم باستخلاص القديم المشترك من كل اللغات السامية ، ثم نكوّن من هذا المجتمع لغة نعدّها أقرب اللغات السامية صورة الى اللغة السامية الأولى . وتعدّ للضمائر وأسماء العدد وأسماء أعضاء الجسم الأساسية المهمة وجملة ألفاظ تخص الحياة الانسانية الأساسية ، مثل بيت وسماء وأرض وجمل وكلب وحمـار وعدد

---

١ Sprachen, S. 5 ff.

٢ Sprachen, S. 7.

من حروف الجـــرّ ، من جملة القديم المشترك في جميع اللغـــات السامية أو في أكثرها ، وهو لذلك يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في تكوين فكرة عن اللغة السامية القديمة وعن أقرب اللغات السامية الى الأصل .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية الى قسمين : لغات سامية شمالية ، ولغات سامية جنوبية . ويقسم بعض العلماء اللغات السامية الشمالية الى مجموعتين : مجموعة شرقية ، ومجموعة غربية . ويقصدون بالمجموعة الشرقية اللغات الساميـــة المتركزة في العراق ، ويقصدون بالمجموعة الغربية اللغات السامية المتركزة في بـلاد الشأم . وقد تأثرت كل مجموعة من المجموعتين بالمؤثرات اللغوية والحضارية للمكان الـتي عاشت فيه ، ومن هنا حدث بعض الاختلاف بين الجماعتين .

ومن أهم الخصائص التي امتازت بها اللغات السامية من غيرها من اللغات :

اعتمادها على الحروف الصامتة « Konsonant » = « Consonant » أكثر من اعتمادها على الأصوات « Vocal » = « Vokale » ، فنرى أن أغلب كلماتها تتألف من اجتماع ثلاثة أحرف صامتة . أما الأصوات ، فلا نجد لها حروفاً تمثلهـــا في اللغات السامية . وهي بذلك على عكس اللغات الآرية الـتي اهتمت بالأصوات ، فدونتها مع الحروف الصامتة.وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك الى الاستزادة من الحروف ، فزادت في عددها عن العدد المألوف في اللغات الآرية ، وأوجدت لها حروفاً للتفخيم والترقيق وإبراز الأسنان والضغط على الحلق[1] .

ويتولد في اللغات السامية من تغيير حركات الأحرف الثلاثية الصامتة وتبديلها، معان جديدة . ولهذا كان من أهم واجبات الأصوات في اللغات السامية تغيـــير حركات الحروف لتوليد معانٍ جديدة . فالأحرف الثلاثة الصامتة إذن هي الـــتي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ، ولكن مفاهيم هذه الأصول الثلاثية لا تبقى عـلى حالها متى تغيرت حركات هذه الحروف . فكلمة (فعل) المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، هي حروف الفاء والعين واللام ، هي أصل ، غير أن هذا الأصل غير ثابت . بل هو عرضة للتغيير ،ويكون تغيره بتغيير حركات أحرفه ، فإذا تغيرت

---

١ ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (ص ١٤) ،
Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

حركات هذه الأحرف تغيرت معانيها حتماً . فكل تغيير إذن في حركات أحرف الأصل يعقبه تغير في معنى ذلك الأصل . فلفظة (فَعَلَ) ، تختلف في المعنى عن لفظة (فِعْل) ، واللفظتان (فَعَلَ) و (فِعْل) تختلفان أيضاً في المعنى عن معنى لفظة (فُعِلَ) . وقد تولد هذا الاختلاف من تغير حركات حروف الأصل وتبدلها .

ومن الممكن إحداث معانٍ جديدة في اللغات السامية ، وذلك بإضافة زوائد تتألف من حرف أو أكثر الى الأصول الثلاثية ، فيتبدل بذلك معنى الأصل . فإذا أضفنا حرف الألف بين حرفي الفاء والعين من (فعل) ، تغير المعنى ، وصارت اللفظة (فاعل) ، وإذا وضعنا حرف الواو بين حرفي العين واللام من فعل ، تغير المعنى ، وصارت اللفظة (فعول) ، وهكذا .

فنرى مما تقدم ان المعاني المشتقة من الكلمات ذات الأصل الثلاثي مهما تغيرت وتولدت نتيجة لتغير حركات تلك الحروف الثلاثة الصامتة ، فإنها لا تنفصل من هذه الحروف ولا تتركها ، بل تبقى في صلب كل كلمة ، مهما صار معناها . فكلمة (قتل) العربية مثلاً المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، يمكن أن نولد منها معاني جديدة ، أي كلمات جديدة ، بتغيير هذه الأحرف الثلاثة ، أو بادخال زوائد عليها ، أو بتشديد بعض حروفها كما ذكرت ، غير اننا لا نستطيع أن نترك حرفاً من هذه الأحرف الثلاثة التي هي الأصل .

فألفاظ مثل قاتل،وقتيل،وقتال،ومقتول ، وقَتْل ، وقَتَّلَ ، وقُتِلَ ، وكلها مشتقة من الأحرف الصامتة الثلاثة : القاف والتاء واللام ، لم نتمكن من الاستغناء عن حرف من هذه الأحرف الثلاثة ، بل اضطررنا الى ابقائها كلها فيها . إلا أنا أجبرنا على التفريق بينها بسبب دخول الزيادات[1] .

وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات ، أي وصل كلمة بأخرى ، لتكون من الكلمتين كلمة واحدة يكون لها معنى مركب من معنى الكلمتين المستقلتين كما في اللغات الآرية . وأما ما نراه من عدّ كلمتين مضافتين كلمة واحدة تؤدي معنى واحداً ، فإن هذا النوع من التركيب بين الكلمتين شيء جديد في اللغات

---

١ Semitistik, Dritter Band, Erster Abschnitt, 1953, S. 10 ff.

السامية ، لم يكن معروفاً عند أجدادهم القدماء[1] . وهو معروف في اللغات الآرية، كما في حالة الـ « Genitive » في اللاتينية حيث تتولد معان جديدة باضافة لفظة الى لفظة أخرى ، فتتولد من هذا التعاقب دلالة جديدة لمعنى جديد .

هذا ، ونجد أن بين اللغات السامية وبين اللغات الآرية اختلافات في كثير من الأمور ، فاللفظة في اللغات السامية ذات مدلول عام ، وقد يكون لها جملة مدلولات تدل على معان عامة مطلقة ، أما اللغات الآرية ، مثل السنسكريتية ، واليونانية ، والألمانية ، فكل جذر فيها هو كلمة ذات معنى مقيد محدود ، أخذت منه المصادر والنعوت. وهناك اختلافات أخرى في موضوع الـ « Conjuctions » والـ « Substansive » والـ « Syntax » ، والـ « Interdependence of sentences » وغير ذلك من أمور يعرفها علماء اللغات والنحو والصرف .

ويرى العلماء أن الفعل قد تطور في اللغات السامية تطوراً خطيراً ، استغرق قروناً طويلة ، وأن ما نعرفه من تقسيم الأفعال الى ماضٍ ومضارع وأمر ،لم يكن معروفاً على هذا النحو عند قدماء الساميين . ويرى بعضهم أن الصيغة الأصلية للفعل إنما كانت صيغة الأمر ، فهذه الصيغة هي أقدم صيغ الأفعال عند الساميين. وقد كانت هذه الصيغة تستعمل للدلالة على جميع صيغ الفعل من الماضي والمضارع والأمر ، ثم تخصصت فصارت تشير الى حدوث الفعل في صيغة الأمر ، وذلك بعد ظهور صيغتي المضارع والماضي .

ومن صيغة فعل الأمر ، اشتق فعل المضارع . وذلك بزيادة حرف على أول لفظة فعل الأمر ، لتدل على حالة الإسناد الى الفاعل أو الضمير مثلاً . وقد سبقت هذه الزيادةُ الزيادةَ التي لحقت آخر الفعل ، فمن فعل (قم) مثلاً تولد الفعل (أقوم) و (يقوم) و (نقوم) و (تقوم) ثم يقومون وتقومون[2] .

ومن علماء اللغات من يرى أن صيغة المضارع كانت أمداً تدل على جميع الأزمنة ، وأن هذا الأداء كان مستعملاً عند قدماء الساميين استعمال اللغة الصينية

---

١ Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

٢ ولفنسون ، السامية (ص ١٥) ، The Bible Dictionary, Vol. II, p. 429.

واللغة الهندوجرمانية الأصلية له[1] .

ونجد اليونانية تغير معاني الفعل بإدخال حرف الجر عليه ، فإذا دخل حرف جرّ على الفعل تغير معناه .

ويظن ان الكلمات المؤلفة من حرفين صامتين ، أي الألفاظ الثنائية الأصل مثل أب وأم وأخ ويد، كانت أقدم من الأفعال المشتقة من ثلاثة أحرف مثل فعل، صنع ، أكل ، ذهب ، وأن الأفعال الثلاثية أقدم من الأفعال الرباعية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان الأفعال الرباعية المؤلفة من أربعة أحرف كانت مؤلفة في الأصل من حرفين اثنين ، ثم تطورت بالاستعمال في خلال العصور الطويلة حتى صارت رباعية الأصل[2] .

وفي العبرانية صيغتان للفعل الماضي : الصيغة المألوفة للماضي ، وصيغة ثانية مشتقة من المضارع مع إضافة واو العطف ، وهي صيغة قديمة جداً . وهي موجودة في البابلية القديمة وفي الكنعانية العتيقة . ولعلها كانت صلة بين المضارع وبين الماضي. وليس لهذه الصيغة وجود في العربية الشمالية وفي العربية الجنوبية والحبشية وفي لغة بني إرم[3] .

ويلاحظ ان العبرانية تشارك اللهجات العربية الجنوبية في أمور عديدة غير معروفة في عربية القرآن الكريم ، كما توجد أوجه شبه بين ألفاظ حبشية وعبرانية[4] .

وللدلالة على الجمع استعملت العبرانية حرفا (يم) للمذكر ، و (واو وتاء) للمؤنث . أما الآرامية ، فاستعملت حرفا (ين) علامة للجمع ، وأما العربية فاستعملت (الواو والنون) للجمع المذكر السالم ، و (الألف والتاء) في الجمع المؤنث السالم ، وهناك جموع تكسير كثيرة كثرة لا نكاد نرى لها مثيلاً في اللغات السامية الأخرى[5] . وذلك بسبب أن هذه الجموع هي في الواقع جموع وردت في لهجات عربية متعددة ، وردت سماعاً ، فلما جمعها علماء العربية ودونوها

---

١ المصدر السابق (ص ١٦) .
٢ ولفنسون ، السامية (١٧) .
٣ ولفنسون ، السامية (١٦) .
٤ ولفنسون ، السامية (١٩) .
٥ ولفنسون ، السامية (١٩) .

في كتب اللغة والمعاجم ، لم يشيروا الى أسماء من كان ينطق بها، فظن انها جموع استعملت في هذه العربية التي نزل بها الوحي .

ومن أهم الإختلافات التي نراها بين اللغات السامية . اختلافها في التعريف . فبينما نرى بعض اللغات كالآشورية والبابلية والحبشية لا أداة للتعريف فيها ، نرى العبرانية وبعض اللهجات العربية مثل الثمودية واللحيانية تستعمل حرف الـ (ه) أداة له ، تضعه في أول الكلمة ، وبينما نرى السبئية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى تستعمل أداة أخرى للتعريف هي حرف (النون) ، تضعها في آخر الكلمة المراد تعريفها ، نجد العربية الفصحى تستعمل (ال) أداة للتعريف ، تضعها في أول الكلمة . وتشارك السريانية العربيات الجنوبية في مكان أداة التعريف ، فمكانها عندها في نهاية الكلمة أيضاً ، غير أنها تختلف عنها في استعمالها أداة أخرى هي حرف الـ (ه) أي الواو .

وقد درس بعض المستشرقين أوزان الأسماء في اللغات السامية ، كما درسوا اشتقاقها وأصولها التي أخذت منها ، وبحثوا في حالات التصغير أي في الأسماء المصغرة وطرق التصغير عند جميع الساميين ، والأسماء البسيطة والأسماء المركبة ، ليستخرجوا منها قواعد قدماء الساميين في كيفية تكوين الأسماء ، ولا سيما تلك الأسماء التي ترد في جميع اللغات السامية . ففي اللغات السامية أسماء مشتركة ترد في كل اللغات ، منها ما هو بسيط مؤلف من كلمة واحدة ، ومنها ما هو مركب ، أي أسماء مؤلفة من أكثر من كلمة بطريقة الإضافة . ودراسة هذه الأسماء بأنواعها ، تفيدنا كثيراً في الوقوف على العقلية السامية وعلى الخواص المشتركة التي كانت تربط بين الساميين .

ونجد الإعراب في اللغة العربية الفصحى ، ويذهب العلماء الى أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة [1] .

---

١ ولفنسون ، السامية (ص ١٥) .

ونجد العربية ذات حروف يزيد عددها على حروف اللغات السامية الأخرى . ولعلّ اللغات الأخرى كانت تملك حروفاً أخرى ، ثم قلّ استعمالها فزالت من أبجديتها ، ولم تبق لها حاجة بها . فالعبرانية لا تمتلك الحروف : (ذ)، و(ع)، و (ظ) ، و (ض) . والبابلية لا تمتلك أيضاً الحروف : العين والحاء والغين والهاء وهي من أحرف الحلق ، ولا الأحرف : الطاء والظاء والصاد ، وهي من أحرف التضخيم والتفخيم ، ولا القاف . ونجد يهود السامرة لا يستعملون حرف السين[1] . وهناك أمثلة أخرى تثبت حدوث تطور في عدد الحروف في اللغات السامية ، مما سبب حدوث اختلاف في عددها،ولهذا حدث هذا الاختلاف الذي نراه ونلاحظه بين أبجديات تلك اللغات .

ونجد العربية الجنوبية تمتلك حروفاً لا تمتلكها العربية الفصحى ، وذلك بسبب اختلاف طبيعتي اللهجتين .

ولا بد أن تكون هنالك عوامل عديدة دعت الى حدوث تغير في عدد الحروف في لغات الساميين . وقد عزا بعض الباحثين سقوط الأحرف التي ذكرتها من الكتابة البابلية الى استعمال البابليين للكتابة المسمارية[2] . غير أن هذا رأي يجب أن يدرس بعناية ، وأن يكون مبنياً على دراسات عديدة أصيلة ، ليكون في الامكان تكوين رأي صحيح في هذا الموضوع .

واللغة العربية اليوم ، هي من أعظم اللغات السامية الباقية ، بكثرة من يتكلم ويكتب بها ، وبكثرة ما ألّف ودوّن بها . وهي تستعمل اليوم قلماً اشتق من قلم سامي شمالي ، وكان لها في الماضي قلم قديم كان مستعملاً عند العرب من أيام ما قبل الميلاد الى ظهور الاسلام ، مات بسبب اتخاذ الاسلام القلم الجزم قلماً للوحي ، دوّن به القرآن الكريم ، فصار بذلك القلم الشرعي الرسمي ، وأمات بذلك الأقلام الجاهلية الأخرى المشتقة من القلم (المسند) . ونجد في المعاجم اللغوية مئات الألوف من الألفاظ المعبرة عن معان ، وقد قدّر بعض العلماء عدد ألفاظ العربية بنحو من (١٢٣٠٥٠٥٢) كلمة[3] . ويعود سبب غناها في الألفاظ الى

---

١ ولفنسون ، السامية (١٩ وما بعدها ، ٣٩) .

٢ ولفنسون ، السامية (٣٩) .

٣ The Bible Dictionary, Vol. I, p. 101.

كثرة وجود المترادفات فيها ، التي هي من بقايا لغـــات قبائل ، والى خاصية جذور الكلم فيها في توليد الألفاظ الجديدة بتحريك هذه الجذور .

وهناك لهجات تستحق الدراسة ، فهي من اللهجات السامية المتفرعة عن لهجات قديمة ، وهي لهجات منبوذة لم يحفل بها علماء اللغة ، مثل اللهجـة (الأمهرية) واللهجة (الهررية) لغة أهل (هرر) . وهي من بقايا لهجات لم يعتن بها العلماء إلا منذ احتكاك الغربيين بالمتكلمين بها . ومع ذلك فلا تزال البحوث العلمية عنها قليلة .

الفصل السادس والثلاثون بعد المئة

العربية لسان آدم في الجنة

رأى علماء العربية أن العربية قديمة ، وهي في نظرهم أقدم من العرب أنفسهم ، فلما كان آدم في الجنة كان لسانه العربيـة ، ولما عصى سلبه الله العربية فتكـلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه وعلى بعض أحفاده العربية . ونظرية ان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، فلما بعد العهـد وطال ، حرّف وصار سريانياً ، وكان يشاكل اللسان العربي ، إلا انه محرف ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح إلا رجلاً واحداً يقال له جرهـم ، فكان لسانه لسان العرب الأول ، فلما خرجوا من السفينـة تزوج إرم بن سام بعض بناته ، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عَوْص أبي عاد وعبيل ، وجاثر أبي ثمود وجديس ، وسميت عاد باسم جرهم ؛ لأنه كان جدّهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام ، الى أن وصل الى يشجب بن قحطـان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[1] .

وقد تحدث (المعري) على لسان (آدم) في موضوع لسانه ، وما روى من شعر نسب اليه ، فجعله يقول : « أبيّم إلا عقوقاً وأذية ، إنمـا كنتُ أتكلم

---

١ « عن ابن عباس ، ان آدم عليه السلام ، كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصـى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية » المزهـر (١/٣٠) .

بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نقل لساني الى السريانية ، فلم أنطق بغيرهـــا الى أن هلكت ، فلما ردني الله — سبحانه وتعالى — الى الجنة ، عادت على العربية ، فأيّ حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟»[1] . وذلك ردّاً على من زعم أن آدم كان يعرف الشعر العربي ، وقـــد نظم شعره بالعربية ، ورووا له شعراً زعموا أنه قاله لتأييد صحة دعواهم .

وقد ذهب قوم من العلماء الى أن لغة العرب ، هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً ، واستدلوا بأن القرآن كلام الله هو عربيّ ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات[2] .

ومنهم من قال : لغة العرب نوعان :

أحدهما : عربية حمير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هـــود ومن قَبْله ، وكانت قبل اسماعيل .

والثانية : العربية المحضة التي نزل بها القرآن ، وأول من أنطق لسانه بهـــا إسماعيل ، فعلى هذا القول يكون توقيف اسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحاً بينـــه وبين جرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفاً من الله[3] .

والعربية المحضة هي العربية الخالصة ، وهي العربية الأصيلة عربية اسماعيل ، وقد نعتت بالعربية المتينة . قالوا : أول من فُتق لسانه بالعربية المتينة اسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . روي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا: قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، ثم قال : ألهم اسماعيل هذا اللسان إلهاماً»[5] . والعربية التي تكلم بها (اسماعيل) والتي نزل بها القرآن وما تكلمت به العرب على عهـــد النبي ، تختلف عن عربية حمير وبقايا جرهم[6] ، وذكر أن (عمر بن الخطاب) ،

---

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢٨/١) .
٣ المزهر (٢٨/١) .
٤ المزهر (٣٤/١) .
٥ المزهر (٣٣/١) .
٦ المزهر (٣٣/١) .

قال للرسول : يا رسول الله ؛ مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال رسول الله : كانت لغـــة بني اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها [1] .

والعربية بعد ، في اصطلاح أئمة العربية : العربية المتينة . أما عربية أهـــل اليمن : عربية أبناء قحطان فعربية أخرى . وعلى هذا فنحن أمام عربيتين : عربية قحطانية ، وعربية عدنانية اسماعيلية . وبالعربية المتينة تكـــلم عرب الحيرة ، كما يظهر ذلك من خبر دوّنه (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) ، والطبري في تأريخه ، فقد ذكر (الجاحظ) ان (خالد بن الوليد) سأل (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن بقيلة) : « أعرب أنتم أم نبط ؟ قال : عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا . قال : فحرب أنتم أم سلم ؟ قال : سلم »[2] ، أو انه قال لهم : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عـــدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية »[3] . فلسان أهـل الحيرة عربي ، ليس لهم لسان سواه . بها كانوا ينظمون الشعر وبها كتبوا . فهذه العربية هي عربيـة الحيرة وعرب العراق .

وساير كثير من المستشرقين علماء العربية في تقسيم اللهجات العربية الى عربيتين : عربية جنوبية ، هي العربية القحطانية . وعربية شمالية ، هي عربية القبائل العدنانية . ولكل مجموعة لهجات محلية ، لم تكن تختلف فيما بينها اختلافـــاً كبيراً ، وتتباين بوناً شاسعاً ، وانما اختلفت في أمور بسيطة من الفروق اللسانية ، بحيث لا نستطيع أن نضعها في مجاميع لغوية جديدة [4] .

ومن الكتابات الجاهلية التي يعود عهد بعض منها الى ما قبل الميلاد ، حصل الباحثون على علمهم بلغة العرب الجنوبيين وبحضارتهم ، وقد تبـــين لهم منها أن تلك الكتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية ، وانها كانت لغة التدوين

---

١ المزهر (١/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٢/١٤٨) ، أمالي المرتضى (١/٢٦١) .
٣ الطبري (٣/٣٦١ وما بعدها) .
٤ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2, (1966).

عندهم ، وقد استعملت مصطلحات فنية تدل على وجود حضارة لدى الكاتبين بها ، وقد دام التدوين بها الى ظهور الاسلام[1] .

أما علمنا بقواعد نحو وصرف اللغة العربية الشمالية ، التي نسميها اللغة الفصحى، فمستمد من الموارد الإسلامية فقط ، لعدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بها . ولهذا اقتصر علمنا بها على ما جاء عنها في الموارد الاسلامية ليس غير . أما النصوص المعدودة القصيرة ، التي تبدأ بنص النمارة ، وتنتهي بكتابة (حران اللجا) التي يعود عهدها الى سنة (٤٦٣) من سقوط (خبر) (خيبر) ، المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، فإنها وان كانت قد كتبت بعربية قريبة من العربية المحضة ، إلا أنها تمثل في الواقع لهجة من اللهجات العربية الشمالية ، متأثرة بالإرمية (النبطية) ولذلك لا أستطيع اعتبارها نصوصاً من نصوص العربية الفصحى الخالصة ، ثم إنها قصيرة أطولها نص النمارة ، المدوّن بخمسة سطور فقط . ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . ولهذا لم نتمكن من استنباط شيء مهم منها ، يفيدنا في تعيين صرف ونحو العربية الفصحى ، أو هذه العربية التي دوّنت بها . ولهذه الأسباب صار علمنا اليوم بقواعد وبنحو كتابات المسند ، والكتابات الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية ، مستمد من موارد هي أقدم جداً من الموارد الاسلامية، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . ووثائق هذه العربيات جاهلية أصيلة،لا يشك أحد في أصالتها ، أما العربية الفصحى فنصها الوحيد ، الذي لا يشك أحد في أصالته هو القرآن الكريم ، فلا نص بها قبله ، وهو أطول نص ورد الينا بهذه العربية وبسائر العربيات الأخرى بغير استثناء .

هذا وقد سبق لي أن تحدثت في الفصل الأول من هذا الكتاب عن تحديد لفظة العرب ، وعن معانيها ، وعن ورودها في مواضع من القرآن ، مثل : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[2] . وفيه « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[3] . وفيه : « أأعجمي وعربي

---

١ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2.

٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٣ وما بعدها .

قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء »[1] . وفيه : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[2] . و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[3] . و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[4]. و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون »[5]. و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[6] . وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً »[7] . و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[8] . و « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[9] .

فاللسان الذي نزل به القرآن ، هو اللسان العربي « الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً الى المحجة »[10] . وقد نزل « محكماً معرباً »[11] . وذلك تمييزاً لهذا اللسان عن ألسنة الأمم الأخرى التي نسبت الى العجمة ، فصارت ألسنتها ألسنة أعجمية[12] .

فاللغة العربية إذن ، هي لغة (العرب) ، وبهم سميت وعرفت فأخذت تسميتها من اسمهم . وقد عرفنا أن المدلول الأول للفظة (العرب) هو البداوة والأعرابية ، ثم توسع في مدلولها ، حتى شمل كل سكنة جزيرة العرب من بدو وحضر ، فأهل المدر عرب ، وأهل الوبر عرب كذلك ، وعرف أهل البوادي بالأعراب ، تمييزاً لهم عن أهل القرى ، أي الحضر ، وصارت اللفظة سمة خاصة بهم . أما لسانهم ولسان الحضر ، فهو اللسان العربي وكفى .

ووسمت هذه العربية بسمة أخرى ، صارت ترادفها حتى اليوم ، هي (العربية الفصحى) و (اللغة الفصحى) ، يريدون بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

---

١ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٤٤ .
٢ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٣ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٤ طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ١١٣ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٢٨ .
٦ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣ .
٧ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٨ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣ .
٩ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الآية ١٢ .
١٠ تفسير ابن كثير (٣٤٧/٣) ، (تفسير سورة الشعراء) .
١١ تفسير ابن كثير (٥١٨/٢) ، (تفسير سورة الرعد) .
١٢ الجزء الاول (ص ١٣ وما بعدها) من هذا الكتاب ، والجزء الاول من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام .

تمييزاً لها عن بقية اللغات واللهجات . والفصح والفصاحة البيان[1] . وبما أن اللغة العربية بينة بليغة قيل لها ذلك . وهي في معنى (لسان عربي مبين) ، أي لسان عربي فصيح أو بين . وبذلك لا ينصرف الذهن الى لغات العوام ولا الى لهجات القبائل في الجاهلية أو لغات أهل العربية الجنوبية ، لأنها لا تتصف بصفة الفصاحة في نظر علماء اللغة .

واللغة العربية التي نكتب بها ، لغة واسعة ، ما في سعتها من شك : ألفاظها كثيرة ، حتى لتجد فيها مئات وعشرات من المسميات وضعت كلها لمسمى واحد على ما يذكره أهل اللغة . فللأسد وللفرس وللجمل وللسيف وما يتعلق بها ألفاظ كثيرة ، تجدها في كتب اللغة والمعجمات . ونحن لا نريد الشك في ذلك ، ولكننا إذا أردنا أن نبحث بأسلوب علمي حديث مستند الى لهجات القبائل ، والى ما ورد في النصوص الجاهلية ، فإننا سنضطر الى القول بأن هذه الكثرة من الألفاظ ليست مسميات لشيء واحد في لغة واحدة ، هي لغة القرآن الكريم ، وإنما هي مسميات لذلك الشيء في لهجات عربية أخرى ، جمعها علماء اللغة في الاسلام من أفواه أناس ينتمون الى قبائل متعددة ، أشاروا الى أسماء القبائل التي تكلمت بها أحياناً ، ولم يشيروا اليها في أغلب الأحيان . فذهبت بين الناس على أنها مسميات لمسمى واحد في لغة واحدة ، هي هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، أي انهم جعلوها من الألفاظ المترادفة .

ولم تعين الموارد الأعجمية شكل اللغة العربية ، ولم تنص على لسان واحد من ألسنة العرب ، على انه اللسان العربي الفصيح العام الذي كان يتكلم به كل العرب. ولم يعين القرآن هوية اللسان العربي ، ولم يخصصه بلسان معين من ألسنة العرب المتعددة ، وانما جاءت التسمية فيه عامة شاملة ، لا تخص لساناً واحداً ، ولا لغة معينة محددة . قال المفسرون في تفسير الآية : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً » ، « فأنزلنا هذا القرآن عربياً اذ كانوا عرباً »[2] ، وقالوا في تفسير الآية: « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ، « كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدين حكماً عربياً » وجعل ذلك عربياً ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربي

---

١ تاج العروس (١٩٧/٢) ، (فصح) .
٢ تفسير الطبري (١٥٩/١٦) .

فنسب الدين اليه ، اذ كان عليه نزل فكذب به الأحزاب »[1] ، وقالوا في تفسير الآية : « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » : « يقول تعالى ذكـره وهكذا أوحينا اليك يا محمد قرآناً عربيـاً بلسان العرب لأن الذين أرسلتك اليهم قوم عرب فأوحينا اليك هذا القرآن بألسنتهم ليفهموا ما فيـه من حجج الله وذكره لأنا لا نرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم،لتنذر أم القرى وهي مكة وما حولها »[2] .

وقال (الطبري) في مقدمة تفسيره « فإن كان ذلك كذلك ، وكان غير مبين منّا عن نفسه من خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ، كان معلوماً انه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب ، ولا يرسل الى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل اليه ، لأن المخاطب والمرسل اليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به اليه فحاله قبل الخطاب وقبـل مجيء الرسالة اليه وبعده سواء ، إذ لم يفـده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً . والله جـل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابـاً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت اليه ، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث والله تعالى عن ذلك متعال . ولذلك قال جل ثناؤه في محـكم تنزيله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . فغير جائز أن يكون بـه مهتدياً من كان بما يهدى اليه جاهلاً . فقد تبين اذن بما عليه دللنا من الدلالة ان كل رسول لله جل ثناؤه أرسله الى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله اليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة ، فإنما أنزله بلسان من أرسله اليه،وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله اليه . واتضح بمـا قلنا ووصفنا ان كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذ كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عربياً ، فبيّن ان القرآن عربي . وبذلك نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : إنا أنزلناه قرآناً عربياً

---

١ تفسير الطبري (١٣/١١٠) .

٢ تفسير الطبري (٢٥/٦ وما بعدها) .

لعلكم تعقلون ، وقال : وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »[1] .

وقد تعرض علماء العربية لمعنى (العجم) والعرب ، فقالوا : (العجم) خلاف العرب ، والأعجم من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب ، ومن في لسانه عجمة وإن أفصح بالعربية ، « وفي التنزيل : ولو نزلناه على بعض الأعجمين »[2] . وكل من لم يفصح بشيء فقد أعجمه ، وأعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه بالنقط ، وورد في شعر قيل هو لرؤبة ويقال للحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

ومنه :

والشعر لا يطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

أي يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبينه فيجعله مشكلاً لا يبان له[3] .

وقالوا : العرب خلاف العجم ، ورجل معرب ، إذا كان فصيحاً وان كان عجمي النسب . والإعراب الإبانة والإفصاح عن الشيء . وأن يعرب بن قحطان هو أول من تكلّم بالعربية ، وأول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية ، وبه سمي العرب عرباً . وقيل : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا قرآناً عربياً لقوم يعلمون ثم قال : ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً » ، وقيل إن يعرب أول من نطق بمنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن[4] . الى غير ذلك من أقوال تحاول ربط لفظة (العرب) بالإعراب والافصاح والإبانة ، وربط العربية ، أي لسان العرب بقحطان ، وباسماعيل ، ووراء كل هذه الأقوال المصطنعة عصبية تتحزب لقحطانية

---

١ تفسير الطبري (١/٥ وما بعدها) .
٢ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٩/٦٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .

أو لعدنانية ، التي هي اصطنعت هذه الأقوال في الاسلام ، وحذلقة مصطنعة باردة استغلت المجانسة اللفظية بين عرب ويعرب وأعرب ، لإيجاد صلة بين معاني هذه الألفاظ وفي جذورها .

وتشمل لفظة (العجم) كل من ليس بعربي ، وهي في مقابل لفظة : « Barbarian » في اللغة الانكليزية المأخوذة من أصل يوناني،وهي لا تعني المتوحشين وإنما (أعاجم) و (غرباء) بتعبير أصح ، الذين كانوا لا يحسنون التكلم بلغة المهذبين ، بل كانوا يرطنون في كلامهم ، ويتكلمون بلهجات رديئة ، ثم أطلقها اليونان على كل من لا يحسن التكلم باليونانية وعلى كل من يتكلم بلغة غير يونانية. ولما دخل اليونان في حكم الرومان ، صارت الكلمة تطلق على كل الشعوب الأخرى التي لا تتكلم باليونانية ، أو اللاتينية[1] . ولا استبعد احتمال مجيء هذه النظرية عند العرب من اليونان ، وإن كان اليونان ، لم ينفردوا بها وحدهم ، فقد كانت الشعوب القديمة تعرف مثل هذه المصطلحات ، ومصطلح : (كويم) « Goim » العبري ، الذي يعني « Gentiles » في الانكليزية ، وغرباء ، وشعوب،ومشركين عبدة أصنام[2] ، يعبر عن هذه النظرة . فكل الشعوب باستثناء (العبرانين) هم (كويم) ،والعبرانيون هم المتكلمون بالعبرانية،وغيرهم هم الذين لا يتكلمون بها .

ولفظة (العجم) ، وإن كانت لفظة عامة ، قصد بها كل من هو ليس بعربي ، لكنها أطلقت في الغالب على الفرس واليونان ، وهم أرقى الشعوب التي احتك بها العرب في ذلك الوقت . وأطلقت على الفرس بصورة خاصة ، لما كان للساسانيين من اتصال خاص بالعرب قبيل الاسلام . أما سكان إفريقية ، فلم تطلق عليهم هذه اللفظة إلا قليلاً ، لأن العرب لم ينظروا اليهم نظرة احترام ، ولهذا عرفوا عندهم بالعبيد ، وبالحبش ، وبالسودان . وقد نعتوا بالطمطمانية ، فورد (طمطمٌ حبشيون) ، بالنظر الى لغتهم ، وعدم تمكنهم من الافصاح بالعربية . وقد ورد في معلقة (عنترة) : (أعظم طمطم) ، في هذا البيت:

تأوى له قلص النعام كما أوت حزق يمانيةٌ لأعجم طمطم[3]

---

١ Hastings, P. 84.

٢ Hastings, P. 303.

٣ البيت الـ (٢٥) من المعلقة .

ومن القرآن واللغة استنبط علماء اللغة قولهم في أن العربية من الإبانة والإفصاح ، وانها انما دعيت بذلك لأن (يعرب بن قحطـــان) كان أول من أعرب بلسانه فنسب هذا اللسان اليه . فقد رأينا ان الآيات المتقدمة التي أشرت اليها ، ذكرت ان القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وقد جعلته في مقابـــل اللسان الأعجمي ، فاستنتجوا منها ان العربية بمعنى الافصاح والإبانة ، وان التسمية انما جاءت من هذا القبيل ، مع ان الوصف راجع للغة القرآن ، لا للعربية نفسها ، ثم وجدوا أن الإعراب في اللغة بمعنى الإفصاح والإبانة ، فربطوا بين هذه اللفظة وبين لفظة (العرب) ، وقالوا ان (عرب) بمعنى فصح ، وأن (العرب) من هذا الأصل، مع انهم يذكرون أيضاً ان تعرب معناهـــا أقام بالبادية ، وأن تعرب واستعرب ، بمعنى رجع الى البادية بعد ما كان مقيماً بالحضر فلحق بالأعـراب . وأن تعرب بمعنى تشبّه بالعرب وتعرب بعد هجرته ، أي صار أعرابياً ، وأن في الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب ، بعد أن كان مهاجراً ، وكان من رجع بعد الهجـرة الى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد[1] ، ومعنى هذا ان صلتها بالأعرابية وبـ (العرب) بمعنى البدو أهل البادية ، أقرب الى المنطق والمعقول من صلتها بالإبانة والفصاحة ، أي الإعراب . وقد سبق أن ذكرت ان معنى اللفظة في النصوص الأشورية وفي كتب اليونان واللاتين والعبرانيين والسريان ، وفي المسنـد ، هو (البداوة) والأعرابية لا غير ، ثم أطلقت على جميع سكنة جزيرة العرب ، لغلبة الحياة الأعرابية عليها حتى صارت لفظة (العربية) بمعنى بلاد العرب ، تدخل فيها مواطن أهل المدر وأهل الوبر ، وصارت لفظة (العرب) علماً على جنس وقوم .

وإذا أخذنا بهذا التفسير التأريخي المستمد من النصوص ، لزم علينـا القول إن العربية من (عرب) (العرب) ، أهل العربية ، وهم (الأعراب) ، وقد أطلقت على ألسنتهم جميعاً من غير تمييز ، فكل لهجات العرب : لهجات بدو أو لهجات حضر ، هي لهجات عربية ، لأنهم عرب ومن سكنة بلاد العرب ، ولهذا عرفت (جزيرة العرب) كلها (بالعربية) في كتب اليونان واللاتين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ، لا نستثني منها لهجة من اللهجات ، مهما كان قربها أو بعدها من العربية التي نزل بها الوحي .

---

١ تاج العروس (١/٣٧٧) ، (عرب) .

فما ذكره علماء اللغة من تخريج في وجه تسمية العرب بهذا الاسم ، من اشتقاق اللفظة من (عربة) التي قالوا إنها باحة العرب ، أو من (يعرب) ، أو من اعراب لسانهم ، أي ايضاحـــه وبيانه ، لأنه أوضح الألسنة وأعربها عن المراد بوجوه من الاختصار ، أو بما شاكل ذلك ، هو كله تخريج متكلف ، يمثـــل تخبطهم فيه ، كتخبطهم في تفسير الأسماء التي لم يعرفوا من أصلها شيئاً، فوضعوا لها تخريجات أوجدوهـــا لإظهار علمهم بها ، ووقوفهم عليها ، وعلى كل شيء قديم[1] .

وفي العربية الحالية : الإعراب. وهو تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون . احتفظت العربية به على حين فقدته معظم اللغات السامية ، باستثناء البابلية القديمة[2] . ويظهر من القرآن ومن الشعر الجاهلي، أن الإعراب كان من سمة هذه اللغة التي نزل بها الوحي .

ويرى بعض المستشرقين أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليـه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة[3] .

ولعلماء العربية بحوث مستفيضة في (الإعراب)[4] ، كما ان للمستشرقين بحوثاً فيه . وقد ذهب بعض منهم الى أن بعض اللهجات العربية القديمة ، مثل لهجـــة قريش لم تكن معربة ، أو انها لم تكن على هذا النحو من الإعراب الذي ثبتـــه وضبطه علماء العربية في الاسلام ، حتى ذهب (كارل فولرس) الى أن القرآن لم يكـن معربـــاً في أول أمر نزوله ، لأنه نزل بلسان قريش ، وهو لسان غير معرب ، وانما أعرب حين وضع علماء اللغة والنحو قواعد العربيـــة على وفق لغة

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٤٣) .

٢ العربية ، ليوهان فك (ص ٣) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها)، الخصائص (١/٣٤) ، السيوطي ، الحاوي للفتاوي ، (٢/٢٦٩ وما بعدها) .

٣ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٧/٣١) .

٤ راجع الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون (١/١٢١) ، حيث تقف على أسماء بعض المؤلفات التي ألفت في اعراب القرآن .

الأعراب المعربة ، التي أخذوها من تتبعهم الشعر الجاهلي وكلام الأعراب[1] .

وقد لمس (كاله) هذا الموضوع كذلك ، وتطرق الى ما ورد في الرواية من أخبار تحث المسلم على وجوب مراعاة قواعد الإعراب عند قراءته القرآن . فاستنتج منها ان كتاب الله لم يكن عند نزوله معرباً ، فلما جعل الإعراب من سمات العربية ، أعرب وفقاً لقواعده . وساق دليلاً على رأيه هذا ما ورد من آراء بهذا الموضوع للفرّاء (٢٠٧ هـ) . وهو يرى ان علماء العربية استنبطوا قواعد الإعراب من الشعر ومن لغات الأعراب ، ثم ضبطوا بها النص القرآني بموجبها، وبذلك سعوا لخدمة القرآن[2] .

وقد خالف (كاير) « R. Geyer » و (نولدكه) « Th. Nöldeke » رأى (فولرس) ، وذهبا الى أن ما ذهب اليه من أن القرآن لم يكن معرباً ، ثم أعرب ، رأي لا يؤيده دليل ، لا من حديث ولا من خبر أو لغة ، وذهبا الى احتمال حدوث اختلاف في القراءات ، بسبب كون الحروف صامتة ، فلما كان الرسول يتلو القرآن ، وكان الصحابة يدوّنونه بحروف صامتة ، لا حركات فيها ولا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها من بعض ، وقع اختلاف في التلفظ بسبب عدم وجود الحركات ، ووقع اللحن من بعضهم في القراءة ، ولكن القرآن معرب ، وآية ذلك وجود آيات عديدة لا يمكن فهم معانيها إلا بقراءتها معربة[3].

ففي القرآن آيات لا تترك مجالاً للشك في أنه نزل معرباً ، ففي آية « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[4] ، وفي آية « أن اللهَ بريء من المشركين ورسولُه »[5] ، وآية « وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ »[6] ، وآية « وإذا حضر القسمةَ أولوا القربى »[7] ، وغيرها ، براهين واضحة تفيد أن موقع الكلم فيها كان معرباً ، وأن هذا التركيب الذي تختلف معانيه باختلاف تحريك أواخر كلمه ، لا بد وأن يكون كلاماً معرباً

---

١ K. Vollers, Volkssprache und Schriftsschprache in alten Arabien. Strassburg, 1906, Shorter Ency., p. 276.

٢ يوهان فك ، العربية (٥ حاشية) .

٣ Shorter Ency., p. 276.

٤ سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

٥ التوبة ، الآية ٣ .

٦ البقرة ، الآية ١٢٤ .

٧ النساء ، الآية ٨ .

في أصله ، وليس من التراكيب التي أصلحت فيما بعد وفقاً لقواعد الإعراب [1] .

وروي ان أعرابياً سمع إماماً يقرأ : « ولا (تَنْكِحوا) المشركين حتى يؤمنوا » ، بفتح تنكحوا ، فقال : سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده ! فقيل له : إنه لحن والقراءة : « ولا تُنكِحوا » ، فقال : قبحه الله ، لا تجعلوه بعدها إماماً ، فإنه يحل ما حرم الله [2] .

والعربية المحضة ، هي عربية معربة ، فيها كل خصائص الإعراب ، غير ان الإعراب يتباين فيها بعض التباين بحسب تباين اللهجات ، نقول ذلك استناداً الى ما ضبطه علماء اللغة من وجوه الاختلاف بين لغات العرب . ونرى أثر الإعراب في النص المعروف بنص (حران) لصاحبه (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم) ، ففي جملة (بنيت ذا المرطول) الواردة فيه ، والمكتوبة بصيغة المفعولية بنصب لفظة (ذا) لوقوع الفعل عليها ، دلالة على وجود الإعراب في لغة هذا النص . أما جملة (انا شرحيل بر ظلمو) ، فقد دونت وفقاً لقواعد النبطية لا العربية الفصيحة ، مما يدل على تأثر الكاتب باللهجة النبطية .

أما بالنسبة الى عربية المسند ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجود من يتكلم بها على نحو ما كانت في الجاهلية من الصفاء والأصالة ، ولأن المسند لا يستعمل الحركات في الكتابة ولا أية علامة تدل على تغير أواخر الكلمات ، فلا ندري كيف كانوا يحركون أواخر الكلم ، وعلى معرفة هذه الحركات يتوقف بالطبع معرفة وجود الاعراب من عدم وجوده في لهجة من اللهجات .

وأما بالنسبة الى النبطية ، وهي لهجة عربية شمالية ، أقرب الى العربية الفصحى من العربيات الجنوبية ، فقد ذهب الباحثون في قواعدها ، الى أن أواخر الكلمات فيها ، تتغير فيها بحسب مواقعها من الإعراب ، حتى ذهب بعضهم الى وجود الحركات فيها ، وهي الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب ، والكسرة في حالة الجر ، غير انهم لم يكونوا يعقبون هذه الحركات بالنون .

والإعراب وإن سقط اليوم من لغاتنا الدارجة ، ومن لهجات الأعراب ، غير أن هنالك قبائل في جزيرة العرب ، لا تزال تتكلم بلهجة عربية معربة ، إعرابها

---

١ يوهان فك ، العربية (٣ وما بعدها) .
٢ عيون الاخبار (٢/١٦٠) .

موافق لإعراب هذه العربية الفصحى . ونحن نأسف لأن علماء العربية في هذا اليوم، لم يهتموا حتى الآن بدراسة لهجات هذه القبائل ، ودراسة أصولها وأنسابها ، ولم يعتنوا بوضع خريطة بمواضع القبائل موزّعة على حسب لهجاتها وخصائص ألسنتها، في الماضي وفي الحاضر ، مع ان في وضع هذه الخرائط أهمية كبيرة في تعيين لغات العرب ، وفي كيفية تثبيت المناطق التي انتشرت فيها العربية الفصحى ، والمناطق التي لا تزال تتحدث بها بطبيعتها ، لا عن دراسة وتمرين .

والعربية لغة واسعة ، « قال بعض الفقهاء : كلامُ العرب لا يحيط بـه إلا نبي »[1] . و « أن الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير »[2] . وفي كلام علماء اللغة هـذا حق ، فالألفاظ وهي مادة اللغة وسداها ولحمتها لا يمكن أن يساير عمرها عمر اللغـة ، فمنها ما يموت ، لذهاب الحاجة اليه ، ومنها ما يقل استعماله فيهمل ، ومنها ما يولد ، لظهور الحاجة اليه ، وقد تتبدل معاني الألفاظ وتتغير ، الى غـير ذلك من أمور تطرأ على الألفاظ يبحث عنها علماء اللغة ، وهي لا تدخل في موضوعنا هذا ، في هذا المكان .

هذا وليس من السهل على أحد التحدث في هذا الوقت عن مبدأ نشوء العربية الفصحى ، وعن الأدوار التي مرت عليها حتى بلغت المرحلة التي وصلت اليهـا بتثبيتها في القرآن الكريم . وذلك بسبب عدم وجود نصوص جاهلية مدونة بهذه اللهجة . فالقرآن الكريم هو الذي ثبتها وعرّفنا عليها ، وبفضل كونه كتاباً مقدساً أقبل العلماء على دراسة لغته،واضطروا على جمع قواعدها،فصارت لغتنا الفصحى ، أما الشعر الجاهلي ، فمع انه أقدم عهداً من القرآن ، لكنـه ثبت ودوّن بعده ، إذ لم يصل الينا حتى الآن أي أثر منه مدون تدويناً جاهلياً ، ولهذا فالقرآن والشعر هما أقدم ما عندنا من نصوص بهذه العربية في النثر وفي النظم ، ولولاهما لما كان في وسعنا الوقوف عليها .

ولعربيتنا بعد ، في نظر علماء العربية خصائص ومميزات ، ميزتها كما يقولون عن بقية اللغات منها : اتساعها من حيث المفردات ، ومنها تخصصها دون غيرها

---

١ المزهر (١/٦٤) ، الصاحبي (٤٧) .
٢ المزهر (١/٦٦) .

على حدّ قولهم بالاعراب ، ومنها ، تفردها بالمترادفات ، وبالأضداد ، أضف الى كل ذلك اتساع حجم قواعد نحوها وصرفها . قال (ابن فارس) : « فلما خصّ — جل ثناؤه — اللسان العربي بالبيان عُلم ان سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه . فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من افهم بكلامه على شرط لغته فقد بين ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان،لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يُسمى متكلماً ، فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذ غلط ، لأنّا لو احتجنا الى أن نعبر عن السيف وأوصافه بالفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ »[1] .

المترادفات :

وفي العربية ألفاظ عديدة يراد بها معنى واحد ، فللعسل (٨٠) اسماً ، وللأسد (٣٥٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وقيل (٦٧٠) ، وللحيّة (٢٠٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وللداهية (٤٠٠) ، وقيل أربعة آلاف ، وللحجر (٧٠) ، وللكلب (٧٠) ، وللسيف (٣٠) ، وقيل (١٠٠٠) ، وللناقة (٢٥٥) ، وللبعير (١٠٠٠) ، وللشمس (٥٢) ، وللخمر (١١٠) ، وقيل (٢٠٠) ، وللبئر (٨٨) ، وللماء (١٧٠) وغير ذلك ، وخاصة ما يدخل في باب الصفة ، وما يدخل في باب الميل الجنسي ، فلا تكاد تتصفح مادة في معجم ، حتى تصيب من مترادفاته لفظاً أو أكثر[2] .

ويقال لهذه الألفاظ التي تدل على شيء واحد : (المترادفات) . والمترادف

---

١ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٩٣/١) ، المزهر (٤٠٧/١) ، « جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين » « حفظت للحجر سبعين اسما » ، الصاحبي (٤٤) .

أن تكون أسماء لشيء واحد ، وهي مولدة ومشتقة من تراكب الأشياء[1] . وعرف بعض العلماء المترادف ، بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[2] . ولعلماء اللغة كلام في المترادفات . منهم من يقول بالمترادفات ، وبأن الألفاظ وإن اختلفت فإنها ترجع الى معنى واحد ، ومنهم من أنكر الترادف ، وزعم ان كل ما يُظن من المترادفات ، فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات[3] ، وان في كل واحدة معنى منها معنى ليس في الأخرى[4] . ومن قال بالترادف ، نظر الى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع نظر الى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات . وجعل بعضهم هذا قسماً آخر ، سمّاه المتكافئة[5] .

والذين ينكرون الترادف ، يقولون : إن كثرة الألفاظ للمعنى الواحد إذا لم تكثر بها صفات هذا المعنى كانت نوعاً من العبث تجل عنه هذه اللغة . ويرون أن كل لفظ من المترادفات فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة ، وان كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ففي كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه[6].

وهم يعتبرون المترادفات أسماءً تزيد معنى الصفة ، ويختلفون بذلك عن غيرهم ممن أنكر الترادف وقالوا إن الموضوع للمعنى الأصلي اسماً واحداً والباقي صفات له لا أسماء ، فأسماء السيف كلها أصلها السيف وسائرها صفات له ، كالمهند ، والصارم والعضب وغيرها[7] ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج،وكادت تتجرّد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغلبت عليها الإسمية[8] .

ومذهب آخر يرى إثبات الترادف ، لكنه يخصه بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد . كما يقال أصلح الفاسد ، ولمّ الشعث ، ورتق

---

١ تاج العروس (٦/١١٦) ، (ردف) .
٢ المزهر (١/٤٠٢) .
٣ المزهر (١/٤٠٣) .
٤ المزهر (١/٤٠٥) .
٥ المزهر (١/٤٠٥) .
٦ الرافعي (١/١٩٠) .
٧ الرافعي (١/١٩٠) .
٨ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي (٣٧) .

الفتق ، وشَعَب الصدع ، ونحوها . أما اطلاق الأسماء على المسمى الواحد ، فيسمونه المتوارد : كالخمر ، والعقار ، والليث ، والأسد .

ومنهم من أثبت الترادف مطلقاً بدون قيد ولا اعتبار ، ولا تقسيم ؛ وعليه أكثر اللغويين والنحاة [1] .

ومن أهم أسباب الترادف في العربية ، ان العرب كانوا قبائل لها لهجات وألسنة مختلفة ، فتباينت بتباين ألسنتها أسماء الأشياء . فالسكين لغة في المدية ، والمدية لغة في السكين عند دوس . وفي حديث أبي هريرة : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » ، وذلك حين قدم من دوس ولقي الرسول ، وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولني السكين ، فلم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، فقال : آلمدية تريد ؟ وأشار اليها فقيل له : نعم ، فقال: أو تسمى عندكم السكين ، والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ [2] . فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى ، أو استعملت غيرها ، خصوصاً وان بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تخالف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل ، وثالثة في بادية ، وقد تأخذ قبيلة اسماً من الأعاجم لشيء لم يعرف اسمه عندها فتعربه ، فيكون اسماً له ، وقد تأخذ قبيلة اسماً أو أسماء توجد في لسانها من لسان قبيلة أو ألسنة قبائل أخرى ، فلما جمع علماء اللغة ألفاظ العربية ودونوها ، ولم يفطنوا الى أصلها ولا الى القبائل التي استعملتها ، ولا الى تأريخها ، لعدم وجود هذا النحو من البحث عندهم في ذلك الوقت ، فدونت على انها مترادفات ، وهم في ذلك على صواب ، ولكنهم كانوا على خطأ ، من حيث انهم لم يدركوا انها كانت لغات قبائل ، وان جمعهم للألفاظ ، وإهمالهم الاشارة الى أسماء القبائل المتكلمة بها ؛ جعلها مترادفات بالمعنى الذي ذهبوا هم اليه . وبذلك اتسعت مادة مفردات المعجم العربي اتساعاً كبيراً ، وهو في حقيقته حاصل جمع لهجات ، أخذ من اختلاف الألسنة ومن مختلف اللهجات ، فضم كله الى معجم العربية ، وظهر على انه مفردات هذه العربية ، لعدم إفصاح علماء اللغة

---

١ الرافعي (١/١٩١) .

٢ تاج العروس (٩/٢٣٨) ، (سكن) ، الاصابة (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (رقم ١١٩٠) ، الاستيعاب (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، فجر الاسلام (٥٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٢١٤) .

عن أصل كل مترادف وعن اللسان الـذي نطق به في الغالب، فعمي الأمر علينا ، وصرنا نعتبر هذه الألفاظ التي تقصد مسمى واحداً من المترادفات .

ويرى بعض علماء اللغة أن من أسباب وقوع الترادف أن الصفات قد تتحول بتفشي الاستعمال وبكثرة ورودها على الألسنة فتنزل هذه الصفات منزلة الحقـائق العُرفية[1] . وقد تضخمت كتب اللغة كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، « فمثلاً إذا أطلق شاعر كلمـة الهَيْصم على الأسد من الهصم وهو الكسر، وأطلق عليه آخر الهرّاس من الهرس، وهو الدق ، وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للأسد »[2].

ولا يعدّ ثراء لغة بكثرة مفرداتها ومترادفاتها دليلاً على ثراء تلك اللغة ، ولا امارة على تقدمها من الناحية العقلية ، فإن اللغة تستمد مادتها من جميع محصولات اللغة الخاصة بالحرف ، والمهن ، وبالحياة الروحية ، كما تستمدها من جميع لهجات القبائل ، وما نجده من كثرة مفردات ومترادفات في العربية ، لا يعود الى كون هذه العربية لغة قبيلة واحدة ، أو عرب من العرب ، وإنما بسبب كونه حاصل جمع لغات ، جمعه العلماء من ألسنة متعددة فدوّنوه ، فظهر الشيء الواحد وقد يكون له عشرة أسماء أو أكثر من ذلك أو أقل حسب كثرة أو ندرة استعماله بين العرب ، فما كان مألوفاً عندهم ، وكانوا في حاجة ماسة اليه ، وكان استعمالهم له كثيراً ، وفوائده بالنسبة لهم عديدة ، كثرت مسمياته ، بل مسميات أجزائه كما كثرت عندهم صفاته ، التي تتحول بمرور الزمن الى أسماء ، ولهذا نجد في العربية كثرة من الأسمـاء والألفاظ ، هي في الأصل صفات ونعوت لخصائص أشياء[3] .

ومن أمثلة المترادفات في العربية : القمح ، والبُر ، والحنطة ، قال علـماء اللغة : القمح : البر ، لغة شامية ، « وأهل الحجاز قد تكلموا بها ، وقد تكرر ذكره في الحديث . وقيل لغة قبطية »[4] ، والبر بالضم الحنطة ... قال المتنخل الهذلي :

---

١ المزهر (١/٤٠٢ وما بعدها) ، الرافعي (١/١٩٢) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ بروكلمن (١/٤٣) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٨) ، (قمح) .

لا درّ درّي إن أطعمت نازلكم قرف الحتى وعندي البر مكنوز

قال ابن دريد : « البُر أفصح من قولهم الحنطة واحدته بُرة »[1] ، «والحنطة بالكسر البُر الحب المعروف »[2] . وهي في الواقع ألفاظ وردت في لغات ، حين ضبطها علماء اللغة ، فات عليهم انها لم تكن مستعملة في كل لغات العرب ، وانما هي في لغات بعض منهم . فالقمح مثلاً ، لفظة وردت في لغات عرب الشأم والحجاز ، لأنها من أصل آرامي ، هو (قمحو)[3] ، وقد كان أهل الحجاز في الجاهلية يستوردون القمح من بلاد الشأم ، فأبقوا التسمية الآرامية على حالها ، بعد أن أجروا عليها بعض التعديل . وأما (الحنطة) ، فنجد لها مقابلاً في العبرانية هو « Chittah » في العبرانية[4] ، مما يدل على ان اللفظة كانت مستعملة في العربية الغربية . وأما لفظة (بُر) ، فهي من الألفاظ التي وردت في نص (أبرهة) ، فهي لغة يمانية وحجازية ، وقد نص علماء اللغة على ورودها في لغة أهل الحجاز ، وربما أخذوها من أهل اليمن ، الذين عرفوا بزراعتهم للبر قبل الاسلام . ووردت لفظة (بُر) بمعنى حنطة في النص الموسوم بـ « Jamme 670 » إذ ورد فيه : (برم وشعرم عدى ارضهمو)[5] ، أي (حنطة وشعير في أرضهم) (حنطة وشعير من أرضهم).

ومما يكثر في هذه العربية (المشترك) ، وحده : اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة . ولعلماء اللغة بحوث فيه ، فمنهم من يؤيد وقوعه ومنهم من ينكر : ومن المشترك : العم ، فالعم أخو الأب ، والعم : الجمع الكثير ، ومشى ، فمشى يمشي من المشي ، ومشى إذا كثرت ماشيته ، وللنوى مواضع ، وللروبة والرؤبة معان ، وللأرض معان ، وللفظة الهلال معان ، وللفظ العين معان كثيرة ومواضع عديدة ، الى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتب اللغة[6] .

---

١ تاج العروس (٣٨/٣) ، (برر) .
٢ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حنط) .
٣ غرائب اللغة (٢٠٢) .
٤ راجع سفر التكوين ، الاصحاح ٣٠ ، الآية ١٤ ، سفر الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٢٢ ، الأصل « العبري » .
٥ السطر ٢٦ ــ ٢٧ من النص .
٦ المزهر (٣٦٩/١) ، (النوع الخامس والعشرون) .

وفي العربية : الأضداد . وهو أن يكون للكلمة معنى ، ثم يكون لهـا معنى آخر مضاد له . وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ، مثل جلل للكبير والصغير ، وللعظيم وللحقير . ومثل الجون ، للأسود والأبيض . والقوي ، للقوي والضعيف، والرجاء للرغبة والخوف . والبسل للحلال وللحرام . والناهل للعطشان ، والناهل، الذي قد شرب حتى روي . والسدفة في لغة تميم : الظلمة ، والسدفة في لغـة قيس : الضوء . واللمق : الكتابة في لغة بني عقيـل ، والمحو في سائر قيس . والجادي : السائل ، والمعطي . والرسُّ : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضاً . والشرى : رُذال المال ، وأيضاً خيـاره . الى غير ذلك من أمثلة ذكرها علماء العربية [1] .

ولبعض علماء العربية قصة يضربونها مثلاً على الأضداد ، فيقولون : « خرج رجل من بني كلاب ، أو من سائر بني عامر بن صعصعة ، الى ذي جـدن ، فأطلع على سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثِبْ أي اقعد . فقال : ليعلم الملك إني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح : فقال الملك: ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطّمر . فقـال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ؛ من ظفر حمر . أي من أراد أن يقيم بظفـار فليتكلم العربية »[2] . ورواها (السيوطي) في كتابه (المزهر) الذي أخذت منـه القصة بهذا الشكل أيضاً : « وروي أن زيد بن عبدالله بن دارم ، وفد عـلى بعض ملوك حمير ، فألفاه في مُتصيد له على جبل مشرف ، فسلّم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثِبْ ، أي اجلس ، وظن الرجل أنه أمر بالوثوب من الجبل ، فقال : ستجدني أيها الملك مطواعاً ؛ ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة . فقال : أما إنه ليست عندنا عربيّت ، من دخل ظفار حَمّر . أي فليتعلم الحميرية »[3] . وذكر أن « عـامر ابن الطفيل) قدم على الرسول ، فوثبـه وسادة ، والوثاب الفراش بلغة حمير .

---

١ المزهر (١/٣٨٧) ، (النوع السادس والعشرون : معرفة الأضداد) .

٢ المزهر (١/٣٩٦ وما بعدها) .

٣ المزهر (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (١/٤٩٩) ، (وثب) ، الصاحبي (٥١) ، الفائق (٣/١٤٤) .

وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو موثبان، يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو[1].

ومن الأضداد ألفاظ قليلة ، واضحة الضدية يطلقها الناس على الضد لاعتبارات لديهم ، مثل اطلاق لفظة (البصير) على الأعمى ، و (السليم) على اللديغ .

ولعلماء العربية بحوث وآراء في علة ظهور الأضداد. منهم من يرى ان الحرف اذا وقع على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع ، فمن ذلك الصريمُ ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحيٍّ من العرب والمعنى الآخر لحي غيره[2] ، فلما سجل علماء اللغة مفردات الألفاظ لم يسجلوا في الأكثر اسم القبيلة أو القبائل التي كانت تنطق بها ، فظن أن هذا التضاد هو مما وقع هذه العربية ، وانما هو في الأكثر حاصل جمع لغات .

وقد أنكر ناس مذهب الأضداد ، ومذهبهم ان الشيء لا يمكن أن يدل على الشيء وضده ، وأن النقيضين لا يوضع لهما لفظ واحد ، ومن هؤلاء : (أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه) ، (توفي نيف وثلاثين وثلاثمائة) ، وهو من علماء البصرة ومن المتعصبين لأهل البصرة ، وهو صاحب مؤلف في الأضداد ، ذكره (ابن النديم)[3] ، فهو ممن ذهب الى انكار الأضداد[4] ، وأثبته آخرون قائلين : يجوز أن يوضع لهما لفظ واحد من قبيلتين . وأن المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين[5] . ومن المثبتين له : قطرب ، وابن الأنباري، و (ابن فارس) ، وغيرهم[6] .

وقد ألف في الأضداد قوم من العلماء ، منهم : أبو علي محمد بن المستنير ، ويقال أحمد بن محمد ، ويقال الحسن بن محمد ، المعروف بقطرب المتوفى سنة

---

١ الصاحبي (٥١) .
٢ المزهر (١/٤٠٠ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٩٩ وما بعدها) ، المزهر (١/٣٨٧) .
٤ المزهر (١/٣٩٦) .
٥ المزهر (١/٣٨٧) .
٦ المزهر (١/٣٨٧ وما بعدها) .

(٢٠٦) للهجرة ، فله كتاب في هذا الموضوع ، يسمى : كتاب الأضداد ، كما أن له كتاباً مهماً في علل النحو ، اسمه كتاب العلل في النحو ، ولـه مؤلفات أخرى ذكرها (ابن النديم)[١] . ومنهم (الأصمعي)[٢] ، و(التوزي) ، وهو (أبو محمد عبدالله بن محمـد بن هارون) المتوفى سنة (٢٤٠ هـ)[٣] ، و (ابن السكيت)[٤] ، و (السجستاني)[٥] ، وابن الأنباري ، أبو بكر محمـد بن القاسم المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، صاحب مؤلف في الأضداد دعاه (ابن النديم) كتاب الأضداد في النحو . وهو ممن اشتغل بجمع دواوين من أشعار العرب الفحول[٦] ، وغيرهم .

وعدّ علماء اللغة القلب ، والإدغام ، والابدال من خصائص العربية التي امتازت بها على اللغات الأخرى[٧] . وهي أمور تحتاج الى دراسة عميقة ، لأن دراسة علماء اللغة لها ، لم تنبعث عن دراسات علمية لبقية اللهجات ، ثم انها ملاحظات سطحية أخذت من أشخاص ، وليس من دراسة لقبيلة كلها ، إذ كان ذلك إذاك أمراً غير ميسور ولا ممكن . ولو درسنا الأمور المذكورة ، نجد انها حاصل لهجات ، لا من تبديل شخص لحرف أو قلبه حرفاً أو ما شاكل ذلك ، واتباع الناس بعد ذلك له .

ومما يلاحظ في هذه العربية هو كثرة ما فيها من جموع التكسير . وقد نجد فيها لفظة واحدة ، وقد جمعت في عدة جموع ، وهو دليل في نظري على انه من بقايا اللهجات . فلما شرع العلماء بالتدوين ، وراجعوا الشعر والأخبار ، والأعراب ، وجدوا أمامهم جموعاً لكلمة واحدة ، فسجلوها دون أن يشيروا الى الجهة التي أخذوا الجمع منه ، والى قبيلة الأعرابي الذي نطق لهم به ، فظن انها جموع هذه العربية ، ولا يعقل أن تكون كل هذه الجموع حاصل لغة واحدة . وهي

---

١ الفهرست (٨٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٢ الفهرست (٨٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٣ المزهر (٣٩٧/١) .
٤ الفهرست (١١٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٥ الفهرست (٩٣) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٦ الفهرست (١١٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٧ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

سماعية سمعت من أبناء القبائل فجمعت ، وهي لم تخضع لذلك لأحكـام القياس والقواعد المألوفة .

ومن هذا القبيل بعض الجموع الملحقة بجمع المذكر السالم ، مثل : أرضون ، وأهلون ، وعالمون ، وسنون ، ومئون ، وعضون ، وعزون ، فهذه من بقايا قواعد قديمة ، ترجع الى لهجات ، حين شرع علماء اللغة في تدوينها لم يفطنوا الى تدوين اسم اللسان الذي نطق بها .

وطبيعي أن تكون العربية فقيرة في الألفـاظ التي لا تدخل معانيها في ضمن حياة أهلهـا ، كألفاظ الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ، والألفاظ المستعملة في الحكومات وفي أنواع الدواوين والصناعات وما شاكل ذلك ممـا يكون عند الحضر ، ولا يألفه أهل الوبر ، لعـدم وجوده عندهم ، ولكن العربية ، إذا شعرت بالحاجة اليهـا ، أو اضطرت الى استعمالها ، أخذ أهلها أسماءها عمن يعرفهـا ، واستعملوها معربة أو بأصولها في لغتهم ، ومن هنا كثر الدخيل في العربية في الإسلام[1] .

وحيث أن للغة دلالة على طراز حياة الأمة وعلى مقدار درجة حياتها العقلية ، نجد العربية غنية غنى مفرطاً في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، فهم أغنيـاء في الجمل ، يعرفون كل جزء منه ، وقد وضعوا ألفاظاً لكل عضو من أعضائه مهما دق فيه . وهم أغنياء فيما يتعلق بالصحراء وفي المطر ، وفي كل شيء يتصـل بحياتهم ، فهي من هنا لغة تمثل عقلية المتكلمين بها ، غلبت مصطلحات البداوة فيها على مصطلحات الحضارة ، سنة كل أمة تكون حياتها على هـذا النمط من المعيشة .

وليست اللغة العربية غنية بمفرداتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً، فجموع التكسير وأحياناً الأفعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة[2] . وهي « غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العـديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تامـاً بغنى اللغة وصلاحيتها للبقاء »[3] .

---

١ فجر الاسلام (٥٥) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ فجر الاسلام (٥٥) .

وليس غنى العربية بالمفردات بدليل حتمي على سعة هذه اللغة . وانما هو غنى نتج من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد لهجاتهم . فلما كانت القبائل تتصل بعضها ببعض وتكوّن مجموعات وكتل وأحلاف سياسية ، للدفاع عن نفسها وللغزو ، ولما كان الشعراء وسادات القبائل وغيرهم ، يزورون غيرهم ويتنقلون من مكان الى مكان ، وقد يقيمون اقامة طويلة في مكان ما ، يجاورون ويوالون، اشتبكت ألسنتهم ، فأخذت وأعطت ، وزاد هذا الاشتباك حدة ، تنافس المناذرة والغساسنة على الزعامة ، وتدخل الروم والفرس والحبش في شؤون جزيرة العرب، ومجيء المبشرين النصارى الى القبائل للتبشير بينها ، واختلاط اليهود بالعرب ، وهم أصحاب دين ، واختلاط التجار الأعاجم بالعرب في السواحل وفي البواطن، وسفر أهل القرى وسادات القبائل الى الشأم والعراق للتجارة وللزيارة وللترويح عن النفس ، وأمثال ذلك ، فكان أن أوجد كل هذا المذكور وغيره وعياً وحساً وشعوراً بوجوب التكتل والتجمع وبأنهم من أمة واحدة ، وبأن في حياتهم التي يحيونها من جميع نواحيها ما يحتاج الى اصلاح وتغيير ونظر . وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقاربت ، وفي آراء الأحناف وأصحاب الرأي ، وفي أقوال الحكماء ولا سيما المتألهين والمتعقلين منهم ، وفي الشعر الجاهلي ، ولا سيما في شعر أولئك الشعراء الذين زاروا الحضر واتصلوا بأهل الحضارة ، وجالسوا أهل الديانات واطلعوا على مقالاتهم وآرائهم وكتبهم ، فنجد فيه أثر الأخذ والتأثر ، حتى في استعمال الألفاظ ، إذ سمحوا لأنفسهم باستعمال الألفاظ الأعجمية، كما في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت ، الذي أدخل ألفاظاً في شعره غير مألوفة عند العرب .

ثم جاء الإسلام ، بكتاب سماوي ، صار لسانه لسان المسلمين ، فظهرت الحاجة الى التدوين والبحث والتنقيب لشرح كتاب الله وحديث رسوله وتفسير أحكام الله . فكان حاصل ذلك علوم اللسان . من مفردات جمعت من القرآن ومن الحديث ومن الشعر ومن ألسنة العرب ، ضبطت في كتب اللغة والمعاجم، وكوّنت بذلك هيكل العربية الفصيحة . وهو بناء عملاق لم يعمل من مادة واحدة ، وإنما من مواد أساسية عديدة ، هي لهجات القرآن والشعر ولغات القبائل التي رجع علماء اللغة الى أفرادها واليها للأخذ منها ، فهذا الغنى الملحوظ في مفردات العربية الفصحى ، إذن هو غنى سببه كونه حاصل لغات قبائل ، لا حاصل لغة واحدة أو لسان عربي معين .

وتولدت في الاسلام معان خاصة لألفاظ جاهلية غلبت عليها واختصت بها ، والى معانيها الجديدة قصد في الاسلام ، كما ماتت ألفاظ جاهلية أماتها الاسلام ، بسبب انها كانت تؤدي معاني خاصة بالنسبة لذلك الوقت ، فقد روي ان النبي قال : « لا تقولوا دعدع ولا لعلع ، ولكن قولوا : اللهم ارفع وانفع . فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرههما النبي »[1] ، وروي انه نهى عن قول : خبثت نفسي ، واستأثر الله بفلان[2] .

ومن الألفاظ الاسلامية : المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق[3] ، ومخضرم ، وصلاة ، وصوم ، وغير ذلك . ومن الألفاظ التي كانت فزالت بزوال معانيها : المرباع ، والنشيطة ، والفضول ، والإتاوة ، والحلوان ، وأبيت اللعن ، والنوافج ، للإبل تساق في الصداق ، وحجراً محجوراً ، لمعنيين : الحرمان ، اذا سئل الانسان قال : حجراً محجوراً ، والوجه الآخر الاستعاذة[4] ، وأنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وأنعم ظلاماً ، وعموا صباحاً ، وعموا ظلاماً ، اذ حل السلام محلها في الاسلام[5] .

وظهرت الحاجة في الوقت نفسه الى وضع قواعد في نحو وصرف هذه اللغة ، لصيانة اللسان من الخطأ ، وليتعلم الأعاجم بها كيفية النطق بفصاحة وسلامة بهذا اللسان الجديد عليهم . فكان ما كان من وضع النحو مستعينين بالأسس النحوية (الغراماطيقية) ، التي كانت قد وجدت سبيلها الى العراق من أصول قديمة ، ثم بتتبع كلام العرب وبالاستقراء ، وقياس القواعد بعضها على بعض وبالتعليل ، يعللون النحو ويعتبرون به كلام العرب ، ثم لم يكتفوا بذلك كله ، فأخذوا دروب البادية ، للأخذ عن القبائل التي اشتهرت بالفصاحة وبالمحافظة على سلامة لسانها ، وتلقوا الأعراب الذين يطرأون من البادية على الحضر ، فأخذوا من هؤلاء ومن هؤلاء علماً كثيراً باللغة وبالشعر وبالغريب وبالنوادر وبكل ما يتصل بالعربية من أسباب حتى جمعوا ما جمعوه من تراث هذه اللغة الخالد في بطون الكتب .

---

١ الصاحبي (٧٠) .
٢ الصاحبي (٩٢ وما بعدها) .
٣ الصاحبي (٧٩) .
٤ الصاحبي (٨٩ وما بعدها) .
٥ المزهر (١/٢٩٤ وما بعدها) ، (النوع العشرون : معرفة الألفاظ الاسلامية) .

الفصل السابع والثلاثون بعد المئة

لغات العرب

قال (الطبري) في تفسيره : « كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان متباينو المنطق والكلام »[1] . وأن ألسنتهم كانت كثيرة كثرة يُعجز عن احصائها[2] . وقد ذكر غيره مثل ذلك ، ذكر أن لغات العرب كانت متباينة ، وأن بعضها كانت بعيدة بُعداً كبيراً عن عربيتنا ، كالألسنة العربية الجنوبية ومنها الحميرية . قال (ابن جني) : « وبعد فلسنا نشك في بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة بن نزار »[3] ، وقال (أبو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » . وذكر (ابن فارس) ، أن ولد (اسماعيل) ، يريد بهم العدنانية « يعربون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ، وأنهم يسمّون اللحية بغير اسمها مع قول الله – جل ثناؤه – في قصة من قال : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، وأنهم يسمون الذئب القلوب مع قوله : وأخاف أن يأكله الذئب ... وما أشبه ذلك»[4].

وقد عرف ذلك الكتبة (الكلاسيكيون) وغيرهم . فذكر مؤلف كتاب

---

١ تفسير الطبري (١/٩) ، (بولاق) .

٢ تفسير الطبري (١/١٥) .

٣ الخصائص (١/٣٩٢) ، « وقال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، ابن سلام ، طبقات (٤ وما بعدها) .

٤ الصاحبي (٥٥) .

(الطواف حول البحر الأريتري) « Periplus mare Erythrae » أن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كانـوا يقيمون بين مدينة « Leuke Kome » ، وميناء « Muza » يتكلمون بلهجـات مختلفة ولغات متباينة ، قلّ منهم من يفهمها عن الثاني ، وبعضها بعيد عن بعض بعداً كبيراً[1] . وقد عاش مؤلف هـذا الكتاب في القرن الأول للميلاد ، والساحل الذي ذكره هو ساحل الحجاز .

وأصبح اليوم من الأمور المعروفة أن أهل العربية الجنوبية كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها في تلك الأرضين ، وهي بلسان مباين لعربيتنا ، حيث تبين من دراستهـا وفحصها أنها كتبت بعربية تختلف عن عربية الشعر الجاهلي ، وبقواعد تختلف عن قواعـد هذه اللغة[2] . وهي لو قرئت على عربـي من عرب هذا اليوم ، حتى إن كان من العربية الجنوبية ، فإنه لن يفهم منها شيئاً ، لأنهـا كتبت بعربية بعيدة عن عربية هذا اليوم ، وقد ماتت تلك العربية ، بسبب تغلب عربية القرآن عليها .

كما عثر في العربية الغربية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب على نصوص معينية ولحيانية وثمودية وغيرها ، وهي مختلفة بعضها عن بعض ، ومختلفـة أيضاً عن (العربية) لغة القرآن الكريم .

ومع إدراك الرواة وعلماء اللغة وجود الخلاف في ألسنة العرب ، فإنهم لم يدوّنوا اللهجات على أنهـا لهجات مستقلة ذات طابع لغوي خاص ، لها قواعد نحويـة وصرفية ، تختلف اختلافاً متبايناً عن نحو وصرف عربية القرآن الكريم ، وإنمـا « تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الإسلام ، وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحت روايته قُبيل ذلك . أما سواد ما كتبوه ، فقد شافهوا بـه العرب في بواديها وسمعوه منهم ،وهو بلا ريب من بقايا اللهجات التي كانت لعهد الجاهلية»[3].

على انهم لم يدونوا من كل ذلك إلا كفاية الحاجة القليلة في تصاريف الكلام أو ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين من شواهد في الغريب والنادر وفي القواعد . أما تدوين اللهجات على انها أصل من أصول اللغة ، وأما تسجيل

---

١ The Periplus of the Erythrean Sea, 24.

٢ الصفة (١٣٤) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٣ وما بعدها) .

قواعد صرف ونحو تلك اللهجات ، فهذا ما لم يحفل به أحد ، ولم يقدم عليه عالم فيما نعلم من أخبار الكتب التي وصلت الينا ، لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع الى علوم القرآن والحديث ، ولغتها اللغة الفصحى ، اللغة التي تعلو على اللغات ، أما ما دونها فلغات دونها في المنزلة والفصاحة ، وألسنة شاذة غير فصيحة ، ليس من اللائق بالعالم إضاعة وقته في البحث عنهـا ، وفي التنقيب في قواعد نحوها وصرفها ، وهي فوق ذلك لغات بطون وعشائر وقبائل ومواضع ، ليس لها أتباع كثيرون ، وقد أقبلوا على استعمال عربية الاسلام ، وفي إحياء العربيات الأخرى إحياء للجاهلية [1] .

« رأينا علماء اللغة وأهل العربية قد طرحوا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم ، فلا قيمة لها عندهم إلا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عُرض كلامهم ، لأنهم لم يعتبروها اعتباراً تأريخياً ، فقد عاصروا أهلها ، واستغنوا بهـذه المعاصرة عن توريث تأريخها لمن بعدهم ، ولو ان منهـم من نصب نفسه لجمـع هذه الاختلافات وإفرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب ، وتمييز أنواعها بحسب المقاربة والمباعدة ، والنظر في أنساب القبائل التي تتقارب في لهجاتها والتي تتباعد ، وتعيين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع تأريخها الى عهدها الأول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة وأهل أنسابها ، لخرج من ذلك علم صحيح في تأريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية ، يُرجع اليه على تطاول الأيام وتقـادم الأزمنة ، ولكان هذا يعد أصلاً فيما يمكن أن يسمى تأريخ آداب العرب ، يفرعون منه ويحتذون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب .

ولكن القوم انصرفوا عن هذا وأمثاله لاعتقادهم أصالة اللغـة ، وانها خلقت كاملة بالوحي والتوقيف ، وان أفصح اللهجات انما هي لهجة اسماعيل عليه السلام ، وهي العربية القديمة الجيدة كما قال سيبويه »[2] .

« وعلى هذا اعتبروا لهجات العرب لعهدهم كأنها أنواع منحطة خرجت عن أصلها القرشي بما طرأ عليها من تقادم العهد وعبث التأريخ ، فلم يجيئوا ببعضها إلا شاهداً على الفصاحة الأصلية في العربية وخلوّها من التنافر والشذوذ ، وتماماً

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٢٣ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٣٣ وما بعدها) .

على الذي جمعوه من أصول العربية ، وتفصيلاً لكل شيء إلا التأريخ »[1] .

« ومع أن الرواة قد وضعوا كتباً كثيرة ومصنفات ممتعة في قبائل العرب ومنازلها وأنسابها وأسمائها واشتقاق الأسماء وألقابها ومدحها وأشعارها وفرسانها وأيامها ، ونحو ذلك مما يرجع الى التأريخ المتحدد ، فلو أنهم اعتقدوا اللغات بسبب من ذلك ولم يعرفوها بالوصف الديني الثابت الذي لا يتغير في حقيقته ، لأجروها مجرى غيرها من آثار التاريخ ، ولكن ذلك الزمن قد طُوي بأهله ، ولحق فرعه بأصله ، فبقي ذلك الخطأ التاريخي كأن صوابه من بعض التأريخ الذي هو حديثُ الغيب ! »[2] .

ويستمر (الرافعي) في حديثه هذا ، فيقول : « نقول هذا وقد قرأنا ما بين أيدينا من كتب الفهرست والتراجم والطبقات على كثرتها ، وتبيّنا ما يسرد فيها من أسماء الكتب والأصناف ، عسى أن نجد من آثار أحد الرواة أو العلماء ما يدل على وضع كتاب في تأريخ لهجات العرب وتمييز لغاتها على الوجه الذي أومأنا اليه ، أو ما عسى أن نستدل به على أنهم كانوا يعتبرون ذلك اعتباراً تأريخياً ؛ ولكنّا خرجنا منها على حساب ما دخلنا فيها : صفر في صفر ؛ ولم يزدنا تعدادُ أسماء الكتب علماً بموت هذا العلم وأنه لا كتب له ، للسبب الذي شرحناه من اعتبارهم أصالة العربية »[3] .

وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم ، وفي المؤلفات الأخرى أسماء كتب وضعها علماء اللغة في اللغات ، من ذلك (كتاب اللغات) ليونس بن حبيب (١٨٣ هـ) من علماء العربية ، وكان أعلم الناس بتصاريف النحو[4] ، و (كتاب اللغات) لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ هـ)[5] ، و (كتاب اللغات) للأصمعي (٢١٣ هـ)، (٢١٧ هـ)[6] ، و (كتاب اللغات) لابن دريد (٣٢١ هـ)[7] ، و (كتاب

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٣٤) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٣٤) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٣٤ وما بعدها) .
٤ الفهرست (ص ٦٩) .
٥ الفهرست (٨٧) .
٦ الفهرست (٨٨) .
٧ الفهرست (٩٧) .

اللغات) لأبي عمرو الشيباني (٢١٣ هـ)[1] ، و (كتاب مجرد الغريب) على مثال العين وعلى غير ترتيبه ، « وأوله هذا كتاب ألّفه في غريب كلام العرب ولغاتها على عدد حروف الهجاء الثمانية والعشرين » ، وهو لعلي بن الحسن ، ويكنى أبا الحسن الهنائي[2] ، و (كتاب الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات) لعمر بن شبة (٢٦٢ هـ)[3] ، الى غير ذلك من مؤلفات دونت في هذا الباب .

لكننا لا نستطيع أن نتحدث عما عالجته من موضوعات وعما ورد فيها من بحوث ، بسبب اننا لا نملك نسخاً منها ، فلا ندري إذا كانت قد وضعت في خصائص لغات العرب من نحو وصرف ومفردات ، أم أنها ألفت في الشواذ والنوادر وفي الأضداد واختلاف الألفاظ ،وما يتعاور الأبنية من الاختلاف الصرفي والنحوي،لأن كل وجه من ذلك إنما هو أثر من لغة . والأصح ، أنها لم توضع في خصائص لغات الجاهليين وفي قواعد نحوها وصرفها لضبطها ، كالذي فعلوه في دراسة عربية القرآن الكريم ، فهذا عمل كبير ، يحتاج الى استقراء وتتبع لألسنة العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وإنما كانت قد ألفت فيما جاء في الشعر الجاهلي وفي نوادر الأعراب وكلامهم من اختلاف وتغاير وشواذ ، مما يغاير لغة القرآن الكريم . ودليل ذلك ، أننا نرى أن المؤلفات التي نقلت من تلك الكتب في باب لغات العرب ، لم تتحدث بشيء عن أصول نحو وصرف تلك اللغات ، وإنما تحدثت عن أمور ذكرت أنها خرجت فيها على قواعد العربية الفصحى ، وشذت بها عنها ، مما يدل على أن علماء اللغة لم يوجهوا عنايتهم نحو تلك اللغات لدرسها بذاتها دراسة مستقلة ، كما فعلوا بالنسبة للعربية الفصحى وإنما أرادوا إظهار بعض مواضع خلافها مع العربية ، أو مواضع الاتفاق معها لإثبات قاعدة نحوية أو صرفية ، أو لإظهار سمو هذه العربية وعلوها على العربيات الأخرى من حيث السليقة والذوق والسلامة .

وقد بني سبب اهمالهم اللهجات الأخرى ، على اعتقادهم انها لهجات رديئة فاسدة ، وأن اللغة الفصحى هي اللغة الوحيدة التي يجب حفظ قواعدها والعناية بها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، وأن البحث في اللهجات الأخرى يؤدي الى تثبيت

---

١ الفهرست (١٠٧) .
٢ الفهرست (١٣٠) .
٣ الفهرست (١٦٩) .

لغات فاسدة الى جانب لغة الوحي ، ولم يكن هذا عملاً مطاقاً ولا مقبولاً بالنسبة الى ذلك الوقت . ولذلك انحصر عملهم في المجال اللغوي على التوسع والتبسط في هذه اللغة التي أسموها اللغة العالية أو الفصحى ، وعلى ما تحتها من لهجات ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض ، وهي لهجات كانت قريبة من مواطن علماء اللغة، أما اللهجات البعيدة عنهم ، فلم تنل منهم أية رعاية أو عنايـــة ، ونجد مواضع الاختلاف مسجلة في كتب اللغات والنحو وشواهده وفي كتب النوادر والغريب ، ومجالس العلماء ، حيث كانوا يتباحثون في أمور اللغة والشعر وأيام العرب وما كان يتلذذ بسماعه الخلفاء والحكام الذين كانوا يثيبون من يستمعون اليه ، مما حمل العلماء وأهل الأخبار على تطلب الغريب والتنقـــير عن الشارد والهارب للتفوق بـــه على أصحاب الحرفة المتنافسين فيما بينهم في عرض بضاعتهم على أصحاب الحكم والمال .

وأجمل ما ذكره هنا علماء العربية من مواضع اختلاف العربيات الأخرى عن العربية المحضة في الأمور الآتية :

أحدها الإختلاف في الحركات ، نحو نَسْتعين ونِستعين بفتح النون وكسرها. فهي مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم يكسرها ، ونحو الحَصاد والحِصاد .

والوجه الآخر ، الإختلاف في الحركة والسكون نحو مَعَكم ومَعْكم .

ووجه آخر هـــو الإختلاف في إبدال الحروف ، نحو : أولئك وأولالِك . ومنها قولهم : أن زيداً وعنّ زيداً .

ومن ذلك : الإختلاف في الهمز والتليين نحو مستهزئون ومُسْتهزُوْن .

ومنه : الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو صاعقة وصاقعة .

ومنها : الإختلاف في الحذف والاثبات ، نحو استحييت واستحيت ، وصددت وأصددتُ .

ومنها : الاختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفاً مُعْتلاً ، نحو أمّا زيد ، وأيما زيد .

ومنها : الإختلاف في الإمالة والتفخيم مثـــل قضى ورمى ، فبعضهم يفخّم وبعضهم يميل .

ومنها : الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله فمنهم من يكسر الأول ، ومنهم من يضم ، نحو اشتروا الضلالة .

ومنها : الاختلاف في التذكير والتأنيث ؛ فإن من العرب من يقول : هـذه البقر ، وهذه النخل ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذا النخل .

ومنها : الاختلاف في الإدغام نحو : مهتدون ومُهَدّون .

ومنها : الاختلاف في الإعراب نحو : ما زيدٌ قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان . وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب .

ومنها : الاختلاف في التحقيق والإختلاس نحو : يأمرُكم ويأمرْكم، وعُفِيَ له ، وعُفْيَ له .

ومنها : الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أُمَّهْ وهذه أمّت .

ومنها : الاختلاف في الزيادة نحو : أنظرُ ، وأنْظُورُ .

ومن الاختلاف اختلاف التضادّ ، وذلك كقول حِمير للقائم : ثب ، أي اقعد ، وثب بمعنى اقفز[1] .

ومنها الاختلاف في الكلمة ، فقد يقع فيها ثلاث لغات ، نحو : الزُّجاج ، والزَّجاج ،والزِّجاج . وقد يقع في الكلمة أربع لغات ، نحو الصِّداق ،والصَّداق، والصُّدقة ،والصَّدقة . ويكون فيها خمس لغات ، نحو:الشَّمال ،والشَّمْل ،والشَّمْأل ، والشَّيْمَل ، والشَّمَل . ويكون فيها ستُ لغات ، نحو : قُسْطاس،وقِسْطاس، وقَسْطاس ، وقسطاط ، وقِسّاط ، وقُستاط ، وقِسّاط ، ولا يكـون أكثر من هذا[2] .

ومنها الاختلاف في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى ، ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس ، نحو يأمرُكم ويأمرْكم ، وعُفي وعفى له . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثـل : هذه أمه وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو : أنظر وأنظور[3] .

وقد أشار (أبو العلاء) المعري في رسالة الغفران الى أن (عدي بن زيد) العبادي ، كان يجعـل (الجيم) (كافـاً) ، فيقول : (يا مكبور) يريد (يا مجبور) ، « وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن . وجاء في بعض الأحاديث

---

١ المزهر (١/٢٥٥ وما بعدها) ، الصاحبي (٤٣ ، ٤٨ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٢٦٠) .
٣ الصاحبي (٥٠) ، المزهر (١/٢٥٦) .

ان الحارث بن هانىء بن أبي شمر بن جبلة الكنـدي ، استلحم يوم ساباط ، فنادى : يا حُكْر يا حُكْر ، يريد يا حجر بن عـدي الأدبر ، فعطف عليه فاستنقذه ، ويكب في موضع يجب »[1] . و(الحارث بن هانىء) من كندة ،وهو من الصحابة ، وكندة من العربية الجنوبية في الأصل[2] ، فلا يستبعد منه نطق الجيم كافاً على الطريقة المصرية في الوقت الحاضر ، إذ يقول العرب الجنوبيون (هكر) في موضع (هجر) ، ولكن (عدي بن زيد) من (تميم) ، وليست (تميم) من العربية الجنوبية ، ثم إن (المعري) ، يقول عنه : « فيقول عدي بعباديته يا مكبور لقد رزقت ما يكب أن يشغلك عن القريض »[3] ، أي : « يا مجبور لقد رزقت ما يجب أن يشغلك عن القريض » فجعل قلب الجيم كافاً من سمات لغة العباديين .

ولخص بعض العلماء الوجوه التي تتخالف بها لغات العرب ، في سبعة أنحـاء لا تزيد ولا تنقص : الوجه الأول ابدال لفظ بلفظ كالحوت بالسمك وبالعكس، وكالعهن المنفوش ، قرأها (ابن مسعود) كالصوف المنفوش . الثاني : إبدال حرف بحرف كالتابوت والتابوه . الثالث : تقديم وتأخير ما في الكلمة ، نحو : سلب زيد ثوبه ، وسلب ثوب زيد . وأما في الحروف نحو : أفلم ييأس الذين ، وأفلم يايس . الرابع زيادة حرف أو نقصانه نحو : ماليه وسلطانيه ، وقَلا تَكُ في مِرْية . الخامس : اختلاف حركات البناء نحو نحسين بفتح السين وكسرها . السادس : اختلاف الأعراب نحو ما هذا بشر بالرفع . السابع : التفخيم والإمالة . وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة . والتفخيم أعلى وأشهر عنـد فصحاء العرب . فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب[4] .

وجمع (مصطفى صادق الرافعي) أنواع الاختلاف الواردة في كتب اللغـة ، فحصرها في خمسة أقسام :

---

١ رسالة الغفران (٢٠١) .

٢ الاصابة (١/٢٩٢) ، (رقم ١٥٠٢) .

٣ رسالة الغفران (١/٢٠٠) .

٤ تفسير النيسابوري (١/٢٢) ، (حاشية على تفسير الطبري . بولاق) .

١ – لغات منسوبة ملقبة .
٢ – لغات منسوبة غير ملقبة تجري في إبدال الحروف .
٣ – لغات من ذلك في تغير الحركات .
٤ – لغات غير منسوبة ولا ملقبة .
٥ – لغة أو لثغة في منطق العرب[١] .

النوع الأول :

وقد عدّه علماء اللغة من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ ، ولذلك أطلقوا على اللغات التي تمارسها : اللغات المذمومة[٢] ، من ذلك :

(الكشكشة) وهي ابدال الشين من كاف المخاطب للمؤنث خاصة ، كعليش ومنش وبش ، في عليكِ ، ومنكِ ، وبكِ ، في موضع التأنيث ، أو زيادة شين بعد الكاف المجرورة . تقول عليكش ، واليكش ، وبكش ، ومنكش ، وذلك في الوقف خاصة . ولا تقول عليكش بالنصب . وقد حكى كذا كش بالنصب . وإنما زادوا الشين بعد الكاف المجرورة لتبين كسرة الكاف فتؤكد التأنيث ، وذلك لأن الكسرة الدالة على التأنيث فيها تخفى في الوقت فاحتاطوا للبيان أن أبدلوها شيناً ، فإذا وصلوا حذفوا لبيان الحركة ، ومنهم من يجري الوصل مجرى الوقف فيبدل فيه أيضاً . وربما زادوا على الواو في الوقف شيناً حرصاً على البيان أيضاً ، فإذا وصلوا حذفوا الجميع وربما ألحقوا الشين فيه . وذكر أن (الكشكشة) في بني أسد وفي ربيعة . « وفي حديث معاوية تياسروا عن كشكشة تميم ، أي ابدالهم الشين من كاف الخطاب مع المؤنث »[٣] .

« و الكشكشة في ربيعة ومضر . يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً . فيقولون رأيتكش ومررت بكش . والكسكسة فيهم أيضاً ، يجعلون بعد الكاف أو مكانها سيناً في المذكر »[٤] . وورد : « والكسكسة لغة لتميم لا لبكر ، كما

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٥٣) ، المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/٣٤٥) ، (كشش) ، الصاحبي (٥٣) ، المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٨) ، (لمصطفى صادق الرافعي) ، المزهر (١/٢٢١) .

زعمه ابن عباد ، وإنما لهم الكشكشة بإعجام الشين . هو إلحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف دون الوصل . يقال : اكرمتكس ومررت بكس ، أي أكرمتك ومررت بك . ومنهم من يبدل السين من كاف الخطاب ، فيقول أبوس وأمس، أي أبوك وأمك . وبه فسر حديث معاوية رضي الله عنه تياسروا عن كسكسة بكر . وقيل : الكسكسة لهوازن »[1] . « ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكنها في الوقف ؛ فيقول : مِنْش وعَلَيْش »[2] .

والديش بالكسر : الديك ، لغة فيه عند من يقلب الكاف شيناً ، شبه كافه بكاف المؤنث لكسرتها[3] .

وذكر (السيوطي) أن الكسكسة في ربيعة ومضر ، يجعلون بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سيناً[4] . وذكر بعضهم ان الكشكشة في لغة تميم ، والكسكسة في لغة بكر . وذكر بعضهم أن الكسكسة لبكر لا لربيعة ومضر،وهي زيادة سين بعد كاف الخطاب في المؤنث لا في المذكر[5] .

« والوتم في لغة اليمن ، بجعل الكاف شيناً مطلقاً . كلبيش اللهم لبيش . ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة »[6] . وقيل : « الوتم في لغة اليمن ، تجعل السين تاءً كالنات في الناس »[7] . « والشنشنة في لغة اليمن، تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش اللهم لبيش ، أي لبيك »[8] .

وقد استشهد علماء اللغة على الوتم بشعر نسبوه الى (علباء بن أرقم) هو :

يا قبح الله بني السعلات عمرو بن يربوعٍ شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات

---

١ تاج العروس (٤/٢٣٤) ، (كسّ) ، الصاحبي (٥٣) .
٢ المزهر (١/٢٢١) ، (النوع الحادي عشر) .
٣ تاج العروس (٤/٣١٢) ، (الديش) .
٤ المزهر (١/٢٢١) .
٥ الرافعي (١/١٣٨) .
٦ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) .
٧ المزهر (١/٢٢٢) .
٨ المزهر (١/٢٢٢) .

فاستعمـــل النات بـدل الناس ، والأكيات بدل الأكياس . ولكـــن الشاعر من (بكر) لا من حمير[1] .

و « الفحفحة في لغة هذيل ، يجعلون الحاء عيناً . والوكم والوهم كلاهما في لغة بني كلب . من الأول يقولون : عليكِم وبكِم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة في موضع عليكم وبكم ، ومن الثاني يقولون : منهِم وعنهِم وبينهِم ، وإن لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة »[2] . « وهم يكمون الكلام بكسر الكاف من يكمون ، أي يقولون السلام عليكم بكسر الكاف »[3] . ومن أمثلة الفحفحة قولهم عياة في موضع حياة ، وعلى لغتهم قرأ (ابن مسعود) عَتّى عِين في قوله تعالى : حتى حين . فكتب اليه (عمر) إن القرآن لم ينزل على لغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش[4] . ومن الفحفحة قولهم : العسن في الحسن ، واللعم في اللحم . وذكر ان ثقيفاً كانت تفحفح في كلامها ، فتقول عتى في موضع حتى . وقـد ورد في (تاج العروس) ، أن (الوكم) « لغة أهل الروم الآن »[5] ، ولعل هذه اللغة انما جاءتهم من (كلب) ، وهم من عرب بلاد الشأم القدماء .

« قال الفرّاء : حتى لغة قريش وجميع العرب إلا هذيلاً وثقيفـــاً ، فإنهم يقولون : عتى . قال : وأنشدني بعض أهل اليمامة :

لا أضع الدلو ولا أصلّي عتى أرى جلّتهـــا تولي
صوادراً مثـــل قبـــاب التلّ

قال أبو عبيدة : من العرب من يقول : أقم عنّي عتى آتيك ، وأتى آتيك؛ بمعنى حتى آتيك ، وهي لغة هذيل »[6] .

و (العجعجة) في قضاعة كالعنعنة في تميم . يحوّلون الياء جيماً مع العين .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٣) .
٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (٢٢٢/١) .
٣ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
٤ الفائق (١١٣/٢) .
٥ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
٦ الفائق (١١٤/٢) .

يقولون : هذا راعج خرج معج ، أي راعي خرج معي[1] . وقيل : « العجعجة في قضاعة . يجعلون الياء المشددة جيماً . يقولون في تميمي تميمج »[2].وكانت قضاعة إذا تكلموا غمغموا ، فلا تكاد تظهر حروفهم . وقد سمى العلماء ذلك غمغمة قضاعة[3] .

والاستنطاء ، قول أنطى بدل أعطى . « قال الجوهري : هي لغة اليمن ؛ وقال غيره : هي لغة سعد بن بكر . والجمع بينهما أنه يجوز كونها لهما » ، وقيل : « هي لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار يجعلون للعين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء ... وهؤلاء من قبائل اليمن ، ما عدا هذيل . وقد شرفها النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى الشعبي أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لرجل : أنطه كذا وكذا ، أي اعطه . وفي حديث آخر أن مال الله مسؤول ومنطى،أي معطى . وفي حديث الدعاء : لا مانع لما أنطيت. وفي حديث آخر : اليد المنطية خير من اليد السفلى . وفي كتابه لوائل : وأنطوا الثبجة . وفي كتابه لتميم الداري : هذا ما أنطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آخره . ويسمون هذا الانطاء الشريف . وهو محفوظ عند أولاده . وقرىء بها شاذاً إنّا انطيناك الكوثر »[4] .

وعرفت لغة (بهراء) بوجود (التلتلة) بها . وتلتلة بهراء كسرهم تاء تفعلون ؛ مثل كسر تاء تعلم ، في موضع الفتح . وكسر التاء من (تكتب)[5] . وذلك انهم يكسرون أحرف المضارعة مطلقاً . « ونسب ابن فارس في فقه اللغة هذا الكسر لأسد وقيس ، إلا انه جعله عاماً في أوائل الألفاظ ، فمثل له بقوله : مثل تِعلمون وتِعلم وشِعير وبِعير »[6] .

وعرفت « القطعة في لغة طيء : وهي قطع اللفظ قبل تمامه ، فيقولون في

---

١ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، (٢/٧١) ، (عج) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٢ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٣ الرافعي (١/١٣٩) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٧٢) ، (نطا) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٥ تاج العروس (٧/٢٤١) ، (تل) .
٦ الرافعي (١/١٤٠) .

مثل يا أبا الحكم : يا أبا الحكا . وهي غير الترخيم المعروف في كتب النحو ، لأن هذا مقصور على حذف آخر الاسم المنادى ، أما القطعة فتتناول سائر أبنية الكلام »[1] .

ومن لغة تميم كسر الشين في شهيد ، وكذا كل فعيل حلقي العين سواء كان وصفاً كهذا ، واسماً جامداً كرغيف وبعير . « قال الهمداني في اعراب القرآن: أهل الحجاز وبنو أسد يقولون رحيم ورغيف وبعير بفتح أوائلهن . وقيس وربيعة وتميم يقولون : رحيم ورغيف وبعير بكسر أوائلهن . وقال السهيلي في الروض : الكسر لغة تميم في كل فعيل عين فعله همزة أو غيرها من حروف الحلق، فيكسرون أوله كرحيم وشهيد . وفي شرح الدريدية لابن خالويه : كل اسم على فعيل ثانيه حرف حلق يجوز فيه اتباع الفاء العين كبعير وشعير ورغيف ورحيم . وحكى الشيخ النووي في تحريره عن الليث أن قوماً من العرب يقولون ذلك وإن لم يكن عينه حرف حلق ككبير وكريم وجليل ونحوه . قلت : وهم بنو تميم كما تقدم »[2].

ومما اختلفت بـه تميم عن قريش أنها تذكر السوق والسبيل والطريق والزقاق والصراط والكلاء ، وهو سوق البصرة ، أما أهل الحجاز فذكرون الكل[3] .

ومن ميزات لهجة تميم ، أنها تنطق بالهمزة إذ وقعت في أول الكلمة عيناً . فيقولون في أسلم عسلم ويسمي العلماء ذلك (العنعنة) . « وعنعنة تميم ابدالهم العين من الهمزة . يقولون : عن موضع أن » . « قال الفراء : لغة قريش ومن جاورهم أن، وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف أن إذا كانت مفتوحة عيناً . يقولون أشهد عنك رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا الى الألف . وفي حديث قيلة : تحسب عين نائمة ، وفي حديث حصين بن مشمت أخبرنا فلان عنّ فلاناً حدثه . أي أن فلاناً حدثه . قال ابن الأثير رحمه الله تعالى : كأنهم يفعلونه لبحح في أصواتهم . والعرب تقول : لأنك ولعنك ، بمعنى لعلك . قال ابن الأعرابي لعنك لبني تميم ، وبنو تيم الله بن ثعلبة يقولون رعنك . ومن

---

١ الرافعي (١/١٤٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٩١) ، (شهد) .

٣ تاج العروس (٦/٣٧١ ، ٣٨٧) ، (زق) ، (ساق) .

العرب من يقول رغنك بمعنى لعلك »[1] . « قال الفرّاء : العنعنة في قيس وتميم. تجعل الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك وفي أسلم عسلم »[2] .

وذكر ان العنعنة في كثير من العرب ، في لغة قيس وتميم ، وقيل في لغة قضاعة أيضاً ، وفي لغة أسد ومن جاورهم ، يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك ، وفي أسلم عسلم ، وفي أُذُن عُذن ، وفي ظننت أنك ذاهب ، ظننت عنك ذاهب[3] .

ومن مواضع الاختلاف بين لغة أهل الحجاز ، ولغة تميم ، الاختلاف في عمل ما وليس النافيتين . وتردد الكلمة بين الإدغام والفك ، وبين الإتمام والنقص ، أو بين الصحة والإعلال والإعراب والبناء ، فمثلاً أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المجزوم بالسكون وأمره ، وتميم تقولها بالإدغام ، وخثعم وزبيد تنقص نون من الجارة ، فيقولون : خرجت ملبيت في قولهم : خرجت من البيت وغيرهم يتمها[4] .

و (ضللت) بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع . وهذه هي اللغة الفصيحة ، وهي لغة نجد . و « ضللت تضل مثل ملت تمل ، أي بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع ، وهي لغة الحجاز والعالية . وروى كراع عن (بني تميم) كسر الضاد في الأخيرة أيضاً . قال اللحياني : وبهما قرىء قوله تعالى : قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي . الأخيرة قراءة أبي حيوة ، وقرأ يحيى بن وثاب اضل بكسر الهمزة وفتح الضاد . وهي لغة تميم . قال ابن سيده: وكان يحيى بن وثاب يقرأ كل شيء في القرآن ضللت وضللنا بكسر اللام. ورجل ضال تال »[5] . و (الضلالة والتلالة)[6] .

واللخلخانية العجمة في المنطق ، وهو العجز عن ارداف الكلام بعضه ببعض . ورجل لخلخاني غير فصيح . ويعرض ذلك في لغة أعراب الشحر وعمان . كقولهم

---

١ تاج العروس (٩/٢٨٣) ، (عنن) .
٢ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس في بيان الافصح) .
٣ المزهر (١/٢٢١) ، الصاحبي (٥٣) .
٤ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي وتأريخه (٣٩) .
٥ تاج العروس (٧/٤١١) ، (ضلل) .
٦ تاج العروس (٧/٢٤١) ، (تل) .

في ما شاء الله مشا الله[1] . والطمطمانية تعرض في لغة حمير ، كقولهم طامِ هوا ، أي طاب الهواء[2] . « وطمطمانية حمير بالضم ما في لغتهـــا من الكلمات المنكرة ، تشبيهاً لها بكلام العجم . وفي صفة قريش ليس فيهم طمطمانية حمير ، أي الألفاظ المنكرة المشبهة بكـــلام العجم »[3] . وذكر أن الطمطمانية كانت أيضاً عند بعض عشائر طيء ، « وهي ابدال لام التعريف ميماً . فيقولون في السهم والبر والصيام: امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة يمنيـــة ، إذ كانوا يُعرّفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب اليه النسّابون من أن طيء قبيلة يمنية »[4] . ولكن حمير لا تعرف بالألف والميم ، وانما تعرف بـ (ان) (ن) ، تضع هذه الأداة في آخر الكلمة التي يراد تعريفهـا . ولهذا ، أخطأ من ذهب الى أن هذه الطمطمانية ابـــدالاً ، أو « ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم »[5] ، لما ذكرته مـــن أن التعريف يلحق في الحميرية أواخر الكلم ، ولا يكون في أولهـــا ، ويكون بالأداة (ن) (ان) ، لا بالألف واللام، كما هو الحال في عربيتنا ، وان التنكير عندهم يكون بإلحاق حرف (الميم) أواخر الألفاظ التي يراد تنكيرهـــا ، ولم يصل الى علمي أن أحداً من الباحثين عثر على نص جاهلي في العربية الجنوبية عرف بـ (ال) أداة التعريف في عربية القرآن الكريم .

ومن الشائع بين الناس ، أن الرسول قال : « ليس ممبرم صيامم فم سفر »، أي « ليس من البر الصيام في السفر »[6] ، وعندي ان هذا الحديث من الأحاديث الضعيفة أو المكذوبة ، وقد وضع ليكون شاهداً على (الطمطمانية) المذكورة ، جاءوا به شاهداً على تكلم الرسول بلسان حمير ، ولكن لسان حمير لم يكن يعرّف الغير معرف بهذه الأداة من التعريف ، وقد يكون لهجة من لهجات بعض القبائل على نحو ما نسب الى بعض عشائر طيء ، كما ذكرت ذلك قبل قليل .

---

١ تاج العروس (٢٧٧/٢) ، (لخ) ، المزهر (٢٢٣/١) .
٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، « طاب امهواء : أي طاب الهواء » ، المزهر (٢٢٣/١) ، (معرفة الردىء المذموم من اللغات) .
٣ تاج العروس (٣٨١/٨) ، (طم) .
٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٣) .
٥ شوقي ضيف (١٢٣) .
٦ تاج العروس (٣٧/٣) ، (برر) .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة . ومنهم من يستعمل الحرف الذي بين القاف والكاف كما في لغة تميم ، والذي بين الجيم والكاف في لغة اليمن ، وإبدال الياء جيماً في الاضافة نحو غلامج ، وفي النسب نحو بصَرجّ وكوفج[1] . ومن ذلك الحرف الذي بين الباء والفاء ، مثل بور اذا اضطروا قالوا : فور[2] .

ومن النوع الثاني ، وهو الخاص بلغات منسوبة غير ملقبة عند العلماء :

إبدال (فقيم) الياء جيماً ، ولغتهم في ذلك أعم من لغة قضاعة التي مرت في النوع الأول ، لأنها غير مقيدة ، فيقولون في مُحتى وعليّ ؟ مُحتجّ وعلجّ . وحجتج في حجتى ، وبج في موضع بي . « وقال ابن فارس في فقه اللغة : إن الياء تجعل جيماً في النسب عند بني تميم ، يقولون غلامج ، أي غلامي ، وكذلك الياء المشددة تحول جيماً في النسب ، يقولون بَصرَج وكوفَج في بصريّ وكوفي . وعكس هذه اللغة في تميم — على ما نقله صاحب المخصص — وذلك انهم يقولون : صيهْرِيٌّ والصهاري ، في صهريج والصهاريج »[3] .

في لغة مازن يبدلون الميم باءً والباءَ ميماً ، فيقولون في بكر : مكر ، وفي اطمئن اطبئن ، ويقولون بااسمك ؟ مكان ماسمك ؟

وفي لغة طيء يبدلون تاء الجمع هاءً إذا وقفوا عليها ، إلحاقاً لها بتاء المفرد؛ وقد سمع من بعضهم : دفن البناه من المكرماه ، يريد : دفن البنات من المكرمات. وحكى قول بعضهم : كيف البنون والبناه ، وكيف الإخوه والأخواه ؟

وفي لغة طيء أيضاً يقلبون الياء ألفاً بعد إبدال الكسرة التي قبلها فتحة،وذلك من كل ماضٍ ثلاثي مكسور العين ، ولو كانت الكسرة عارضة كما لو كان الفعل مبنياً للمجهول ، فيقولون في رضى وهُدى : رَضا وهُدا ، بل ينطقون بها قول العرب : فرس حَظِيّة بظيّة فيقولون : حظاة بظاة ، وكذلك الناصاة، في الناصية .

ومن لغتهم أنهم يحذفون الياء من الفعل المعتل بها إذا أُكّد بالنون ، فيقولون

---

١ المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٥٤) .
٣ الرافعي (١/١٤١ وما بعدها) .

في اخشَنّ وارمِنّ : اخشنّ وارمنّ . وجاء في الحديث على لغتهم : « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء تنطحها ». وتنسب هذه اللغة الى فزارة أيضاً .

وورد في بعض الروايات انهم يبدلون الهمزة في بعض المواضع هاءً ، فيقولون هِنْ فعلت ، يريدون إن فعلت[1] .

وورد أن بعض (طيء) كان يقلب (العين) همزة ، فيقول : دأني بدلاً من دعني .

وفي لغة تميم أنهم يجيئون باسم المفعول من الفعل الثلاثي إذا كانت عينه ياءً على أصل الوزن بدون حذف ، فيقولون في نحو مَبِيع : مبيوع ، ولكنهم لا يفعلون ذلك إذا كانت عين الفعل واواً إلا ما ندر ، بل يتبعون فيه لغة الحجازيين ، نحو : مقول ، ومصوغ .

وفي لغة هذيل لا يبقون ألف المقصور على حالها عند الاضافة الى ياء المتكلم ، بل يقلبونها ياءً ثم يدغمونها ، توصلاً الى كسر ما قبل الياء ، فيقولون في عصاي وهواي : عَصِيّ وهَوِيّ . ولا يفعلون ذلك إذا كانت الألف في آخر الاسم للتثنية ، كما في نحو (فَتَيَاي) ، بل يوافقون اللغات الأخرى .

وفي لغة فزارة وبعض قيس ، أنهم يقلبون الألف في الوقف ياءً ، فيقولون: الهُدِيْ وأفعِيْ وحبلِيْ ، في مكان الهدى وأفعى وحبلى .

ومن تميم من يقلب هذه الألف واواً ، فيقول : الهُدَوْ ، وأفعو ، وحُبلَوْ. ومنهم من يقلبها همزة ، فيقول : الهُدأ وأفعأ وحُبلأ .

في لغة خثعم وزَبيد يحذفون نون (مِنْ) الجارة إذا وليها ساكن . وقد شاعت هذه اللغة في الشعر واستخفها كثير من الشعراء فتعاوروها[2] .

في لغة (بلحرث) (بلحارث) يحذفون الألف من (على) الجارة واللام الساكنة التي تليها ، فيقولون في على الأرض علأرض .

في لغة قيس وربيعة وأسد ، وأهل نجد من بني تميم ، يقصرون (أولاء) التي يشار بها للجمع ويلحقون بها (لاماً) ، فيقولون : أولالك .

---

١ الرافعي (١/١٤٢) .
٢ الرافعي (١/١٤٣ وما بعدها) .

في لغات أسماء الموصول :

بلحرث بن كعب وبعض ربيعة يحذفون نون اللذين واللتين في حالة الرفع . وتميم وقيس يثبتون هذه النون ولكنهم يشددونها ، فيقولون : اللذانّ واللتانّ ، وذلك في أحوال الإعراب الثلاث .

وطيء تقول في الـذي : ذو ، وفي التي ذات ، ولا يغيرونهما في أحوال الإعراب الثلاث رفعاً ونصباً وجراً[1] . وقد عرفت بـ (ذي) الطائية . وترد (ذ) (ذو) هذه بهذا المعنى في الصفوية واللحيانية والثمودية .

في لغة ربيعة يقفون على الاسم المنوّن بالسكون في كـل أحوال الإعراب ، فيقولون : رأيت خالدْ ، ومررت بخالدْ ، وهذا خالدْ ، وغيرهم يشاركهم إلا في النصب .

وفي لغة الأزد يبدلون التنوين في الوقف من جنس حركة آخر الكلمة ،فيقولون: جاء خالدو ، ومررت بخالدي .

وفي لغة سعد يضعفون الحرف الأخير من الكلمة الموقوف عليها إلا اذا كان هذا الحرف همزة أو كان ما قبله ساكناً ، فيقولون : هذا خالدّ ، ولا يضعفون في مثل رشأ وبكر .

في لغة بلحرث وخثعم وكنانة ، يقلبون الياء بعد الفتحة ألفـاً ، فيقولون في اليك وعليك ولديه : إلاكَ ، وعلاك ، ولداه ، ومن لغتهم أيضاً إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً ، وذلك لقلبهم كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفاً ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجلان ، ومررت بالرجلان .

وورد في بعض الروايات أن بني سعد بن زيد مناة ، ولخـم ومن قاربها ، يبدلون الحاء هاءً ، فيقولون في مدحته ، مدهتـه . وأن بني أسعد بن زيد مناة ومن وليهم يبدلون من الهاء فاءً ، فيقولون فودج في موضع هودج .

وورد أن أزد شنوءة تقول : تفكهون ، وتميم يقولون : تفكنون ، بمعنى تعجبون[2] .

وورد أن (الكلابيين) يلحقون علامة الإنكار في آخر الكلمـة ، وذلك في

---

١ الرافعي (١/١٤٤) .
٢ الرافعي (١/١٤٥ وما بعدها) .

الاستفهام إذا أنكروا أن يكون رأي المتكلم على ما ذكر في كلامه أو يكون على خلاف ما ذكر .

فإذا قلتَ : رأيت زيداً ، وأنكر السامع أن تكونَ رأيته ، قال : زيداً إنيه ! بقطع الألف وتبيين النون ، وبعضهم يقول : زيد نيه ! كأنه ينكر أن يكون رأيك على ما ذكرت[1] .

وذكر (الرافعي) الأمور التالية على النوع الثالث ، من تغيير الحركات في الكلمة الواحدة حسب اختلاف اللهجات :

هَلُمَّ في لغة أهل الحجاز تلزم حالة واحدة بمنزلة رويد ، على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً ؛ وتلزم في كل ذلك الفتح ؛ وفي لغة نجد من بني تميم تتغير بحسب الإسناد ، فيقولون : هلمَّ يا رجل ، وهلمي ، وهلما ، وهلمّوا ، وهلمُمْنَ ؛ واذا اسندت لمفرد لا يكسرونها . فلا يقولون : هَلِمَّ يا رجل ، ولكنها تكثر في لغة كعب وغنى.

وفي لغة تميم يكسرون أول فَعِيل وفَعِل إذا كان ثانيها حرفاً من حروف الحلق الستة ، فيقولون في لئيم ونحيف ورغيف وبخيل : لِئيم ، ونِحيف بكسر الأول ، ويقولون : هذا رجل لِعِبٌ ، ورجل حِمِكٌ ، كل ذلك بالكسر وغيرهم بفتحه .

في لغة خزاعة يكسرون لام الجر مطلقاً مع الظاهر والضمير ، وغيرهم يكسرها مع الظاهر ويفتحها مع الضمير غير ياء المتكلم ؛ فيقولون : المال لِكَ ولِهُ .

هاء الغائب مضمومة في لغة أهل الحجاز مطلقاً إذا وقعت بعد ياء ساكنة ، فيقولون : لَدَيْهُ وعَلَيْهُ ؛ ولغة غيرهم كسرها .

في لغة الحجازيين يحكون الاسم المعرفة في الاستفهام اذا كان علماً كما نُطق به ، فإذا قيل : جاء زيد ، ورأيت زيداً ، ومررت بزيدٍ ، يقولون : من زيدُ ؟ ومن زيداً ؟ ومن زيدٍ ؟ أما اذا كان غير علم : كجاءني الرجل ، أو كان علماً موصوفاً : كزيد الفاضل ، فلا يستفهمون إلا بالرفع ، يقولون : من الرجلُ ؟ ومن زيدٌ الفاضلُ ؟ في الأحوال الثلاث .

---

١ الرافعي (١/١٤٦ وما بعدها) .

واذا استفهموا عن النكرة المعربة ووقفوا على أداة الاستفهام ، جاءوا في السؤال بلفظة (مَن) ولكنهم في حالة الرفع يُلحقون بها واواً لمجانسة الضمة في النكرة المستفهم عنها ، ويلحقون بها ألفاً في حالة النصب ، وياءً في حالة الجر، فإذا قلتَ : جاءني رجل ، ونظرت رجلاً ، ومررت برجل ، يقولون في الاستفهام عنه : مَنُو ؟ ومَنا ؟ ومَني ؟ وكذلك يلحقون بها علامة التأنيث والتثنية والجمع . فيقولون : مَنَه ؟ في الاستفهام عن المؤنثة ، ومنان ؟ ومنين ؟ للمثنى المذكر ، ومَنَتان ؟ ومَنتين ؟ للمثنى المؤنث : ومنون ؟ ومنين ؟ للجمع المذكر ، ومنات ؟ للجمع المؤنث . وهذا كله اذا كان المستفهم واقفاً ، فإذا وصل أداة الاستفهام جردها عن العلامة ، فيقول : مَن يا فتى ؟ في كل الأحوال .

وبعض الحجازيين لا يفرق بين المفرد وغيره في الاستفهام ، فيقول : مَنو ، ومنا ، ومَني ، إفراداً وتثنية وجمعاً في التذكير والتأنيث .

وحفظ عن أهل الحجاز انهم يعاقبون أحياناً بين الواو والياء، فيجعلون احداهما مكان الأخرى ، فيقولون في الصوّاغ : الصياغ ، وقد دوّخوا الرجل وديّخوه. وسمع عن بعض أهل العالية قولهم ، لا ينفعني ذلك ولا يضورني ، أي يضيرني، وسمع عن قوم قولهم : في سريع الأوبة : سريع الأيبة . ومنهم من يقول في المصايب : مصاوب ، ويقول حكوت الكلام ، أي حكيته . وأهل العالية يقولون : القصوى ، ويقول أهل نجد : القصيا .

وقد وردت أفعال ثلاثية تُحكى لامائها بالواو والياء ، مثل عزوت وعزيت ، وكنوت وكنيت . وهي قريب من مائة لفظة .

في لغة بكر بن وائل وأناس كثير من بني تميم ، يسكنون المتحرك استخفافاً، فيقولون في فَخِذ ، والرّجُل ، وكَرُمَ ، وعَلِمَ : فَخْذ ، وكرْم ، والرّجْل ، وعَلْمَ . وهذه اللغة هي في كثير من تغلب . ثم اذا تناسبت الضمتان أو الكسرتان في كلمة خففوا أيضاً ، فيقولون في العُنُق والإبِل ، العُنْق ، والإبْل .

وحكى أن في لغة أزد السراة تسكين ضمير النصب المتصل[1] .

---

١ الرافعي (١/١٥١ وما بعدها) .

ولبعض القبائل لغات في كلمات : فتميم نجد يقولون نِهرٌ ، للغدير ، وغيرهم يفتحها . والوَتر في العدد حجازية ، والوِتر بالكسر في الذّحل : الثأر ، وتميم تكسرهما جميعاً ، وأهل العالية يفتحون في العدد فقط .

ويقال وَتِدٌ ، ووتَدٌ ، وأهل نجد يدغمونها فيقولون . وَدٌّ . وبعض الكلابيين يقولون : الدِّواء ، وغيرهم يفتحها . والعرب يقولون شُواظٌ من نار ، والكلابيون يكسرون الشين .

والحجازيون يقولون لعمري ، وتميم تقول : وعملي . واللص في لغة طيء ، وغيرهم يقول : اللِّصت[1] .

وهناك لغات في الإعراب :

فتستعمل (هذيل) (مـتى) بمعنى (مِنْ) ويجرون بها ، سمع من بعضهم قوله : أخرَجها متى كُمِّه ، أي من كُمه .

وفي لغة تميم ينصبون تمييز (كم) الخبرية مفرداً ، ولغة غيرهم وجوب جرّه وجواز افراده وجمعه ، فيقال : كم درهمٍ عندك ، وكم عبيدٍ ملكت ! وتميم يقولون : كم درهماً ، وكم عبداً !

في لغة الحجازيين ينصب الخبر بعد (ما) النافية نحو : ما هذا بشراً ، وتميم يرفعونه .

في لغة أهل العالية ينصبون الخبر بعد إن النافية ، سمع من بعضهم قولـه : إن أحدٌ خيراً من أحدٍ إلا بالعافية .

الحجازيون ينصبون خـبر ليس مطلقاً ، وبنو تميم يرفعونه إذا اقترن بإلا ، فيقول الحجازيون : ليس الطيب إلا المسكَ ، وبنو تميم : إلا المسكُ .

في لغة بني أسد يصرفون ما لا ينصرف فيما عِلّة منعه الوصفية وزيادة النون ، فيقولون : لست بسكرانٍ ، ويلحقون مؤنثه التاء ، فيقولون : سكرانة .

في لغة ربيعة وغنم يبنون (مع) الظرفية على السكون ، فيقولـون : ذهبتُ مَعْهُ ، وإذا وليها ساكن يكوسرنها للتخلص من التقاء الساكنين ، فيقولون ذهبت معِ الرجلِ .

---

١ الرافعي (١/١٥٢) .

في لغـة (بني قيس بن ثعلبة) يعربون (لَدُن) الظرفية ، وعلى لغتهم قرىء (من لدنِه علماً) ، وغيرهم يبنيها .

الحجازيون يبنون الأعلام التي على وزن فعَال : كحذام ، وقطام ، عـلى الكسر في كل حالات الإعراب ؛ وتميم تعربها ما لم يكن آخرها راءً وتمنعهـا من الصرف للعَلَميـة والعدل ، فإذا كان آخرها راء كوبار ، اسم قبيلة وظفار اسم مدينة فهم فيها كالحجازيين .

وتعرب هذيل (الذين) اسم الموصول إعراب جمع المذكر السالم ، فيقولون :

نحن الَّذون صبحوا الصّباحا يوم النخيـل غارة ملحاحـا

ومن لغة هذيل أيضاً،فتح الياء والواو في مثل بَيْضاتْ ، وهيآت ، وعَورات، فيقولون : بَيَضات ، وهَيَآت ، وعَوَرات ، وبقية العرب على إسكانها [1] .

وذكر (الرافعي) بعض الأمثلة على المثال الرابع من قبيل : إبدالهم أواخر بعض الكلمات المجرورة ياء ، كقولهم في الثعالب والأرانب والضفادع : الثعالي والأراني والضفادي . وقد يبدلون بعض الحروف ياء كقولهـم في سادس : سادي ، وفي خامس : خامي [2] .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً ، فيقول مثلاً : الجعبة ، في الكعبة ، وبعضهم ينطق بالتاء طاء : كأفلطني ، في أفلتني ، وهي لغة تميمية .

وتقول بعض العرب أردت عَنْ تفعل كذا ، وبعضهم يقول : لألّني ، في (لعلّني) . وفي لعل لغات يقولها بعض العرب دون بعض ، وهي : لعلّي ، ولعلني ، وعلّي ، وعلّني ، ولعنّي ، ولفني . ورَعَنَ ، ورعنّ ، وعنّ ، وأن ، ولعاء .

وورد تلعّم وتلعزم في لغة بعض الناس ، وتضيفت الشمسُ للغروب ، وتصيفت [3] .

وفي (عند) لغات ، هي : عِندي ، وعُندي ، وعَندي ، وفي لدن ثماني

---

١ الرافعي (١/١٥٣ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٥٥) .
٣ الرافعي (١/١٥٧) .

لغات ، وهي لَدُن ، ولُدُن ، ولَدَى ، ولَدُ ، ولَدْن ، ولُدْن ، ولَدْ ، ولَدَى ؛ وفي (الذي) : الذي ، واللِذ ، واللّذ ، واللذيُّ ، وفي التثنية اللذان ، واللذانَ ، واللذا ، وفي الجمع : الذين ، والذون ، والملاءون ، واللاءو ، واللائي ، — باثبات الياء في كل حال — والألى ؛ وللمؤنث اللائي ، واللاء ، واللاتي : واللتِ ، واللتْ ، واللتان ، واللتا ، واللتانِّ ، وجمع التي اللاتي ، واللات ، واللواتي ، واللوات ، واللوا ، واللاء ، واللاتِ[1] .

ومن لغـات (هو) و (هـي) : هُوْ ، وهِيْ ، وهُوَ ، وهِيّ و هُ ، هِ .

ومن لغات لاجرم : لاجرَ ، ولا ذا جرم ، ولا ذا جر ، ولا إن ذا جرم ، ولا عِنْ ذا جرم .

ومن لغات نعم ، حرف الايجاب : نَعِمْ ، ونِعِم ، ونَعَم .

وبعض العرب يبدل هاء التأنيث تاءً في الوقف ، فيقول : هذه أمت ، في أمة ، وبقرت في بقرة ، وآيت في آية[2] .

وذكر (الرافعي) ان النوع الخامس ، هو النوع الخاص باللثغة من المتكلم . كالألفاظ التي وردت بالراء والغين وبحروف أخرى[3] .

ومن مواضع الاختلاف التي ذكرها (الرافعي) ، والتي وقعت في القرآن بسبب القراءات : تحقيق الهمز وتخفيفه ، والمد والقصر ، والفتح والإمالة وما بينها ، والاظهار والادغام ، وضم الهاء وكسرها من عليهم وإليهم وإلحاق الواو فيها وفي لفظي منهُمُو وعَنهُمُو ، وإلحاق الياء في اليه وعليه وفيه ، ونحو ذلك، فكان كل أهل لحن يقرءونه بلحونهم[4] .

والتضجيع : الإمالة ، وكانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون ، ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً في القبيلة الواحدة،فقد كان بعض منها يميل وبعض منها لا يميل ، وفي ذلك قول سيبويه :

---

١ الرافعي (١/١٥٧ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٥٩) .
٣ الرافعي (١/١٥٩ وما بعدها) .
٤ الرافعي (٢/٤٩) .

« اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعضٌ ما يميل صاحبه ، ويميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب في لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم »[1] .

وذكر (ابن فارس) ، ان من اختلاف العرب في لغاتهم ، اختلافهم « في التذكير والتأنيث ، فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذه النخيل ، وهذا النخيل » ، واختلافهم « في الإعراب، نحو : ما زيد قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان ، وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب »، واختلافهم « في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى»[2]. وفي هذه اللغة فسر المفسرون الآية : « إن هذان لساحران » ، اذ قالوا إنها نزلت على لغة بني الحارث بن كعب ومن جاورهم ، « وهم يجعلون الاثنين في رفعها ونصبها وخفضها بالألف.وقد أنشدني رجل من الأسد عن بعض بني الحارث ابن كعب :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لنابـاه الشجاع لصمما[3]

ويظهر من اختلاف العلماء – الذي رأيناه – في نسبة الأمور المذكورة الى ألسنة القبائل وفي عدم اتفاقهم في كثير من الحالات في تثبيت اللغات المذكورة الى قبيلة معينة أو حصرها في قبائل وترددهم في أقوالهم ، ان ما ذكروه من اختلاف لم يكن حاصل دراسة استقرائية عميقة ، وانما هو حاصل اتصال بأفراد أو بعدد قليل من الأعراب ومن المدعين بالعلم في ألسنة العرب ، ولهذا نجد التناقض بادياً في أقوالهم ، وصارت دراساتهم المتقدمة ناقصة غير كاملة ، لا تتناول إلا أموراً جانبية لا تمس صلب اللغة ولا تنال قواعدها في الصميم . وعلى علماء اللغة في الوقت الحاضر واجب الخروج على الجادة القديمة التي يسيرون عليها اليوم في دراسة

---

١ العصر الجاهلي ، دكتور شوقي ضيف (١٢٢) .
٢ الصاحبي (٤٩ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (١٣٦/١٦) .

اللغة ، بالذهاب بأنفسهم من جديد الى مواطن اللغة، للأخذ من أحجارها المكتوبة إن وجدت ومن ألسنة الأحياء الباقين ، أخذاً علمياً مقروناً بدراسات حديثة مبنية على تسجيل الأصوات ، للاستعانة بها في الكشف عن لغات العرب بأسلوب علمي حديث .

ويلاحظ أيضاً أن علماء اللغة ، قد جمعوا بعض الملاحظات التي ظهرت لهم، من دراساتهم للغة أهل الحجاز ، وللغة تميم . فسجلوها في كتب اللغة والقواعد ، وقد أشرت اليها فيما تقدم بايجاز . واذا قلت أهل الحجاز ، فلا أعني لغة قريش وحدها ، وانما لغات القبائل الحجازية ، التي تكوّن مجموعة القبائل الساكنة في الحجاز . فإن العلماء حين شرعوا بتدوين اللغة ، وجدوا ان لغة أهل مكة لم تعد صافية نقية بسبب اختلاط أهلها بالأعاجم ، وظهور الفساد على لسانهم ، لذلك ، لا نجد لهم ذكراً بارزاً عند علماء اللغة ، وانما حل محلهم مصطلح : أهل الحجاز. ويظهر ان عرب (تميم) من علماء اللغة ، ووجود عدد من عشائرها في العراق على مقربة من المصريين ، ونزول رجال منها البصرة والكوفة ، ثم اشتهار رجال من تميم بالفصاحة والبلاغة والخطابة قبل الاسلام ، كل هذه وأمور أخرى مكّنت العلماء من تسجيل ملاحظات كثيرة عن لغة تميم ، زادت بكثير عن الملاحظات التي دونتها عن القبائل الأخرى ، وقد ذكر العلماء في مقابلها ما كان يختلف فيه أهل الحجاز عنهم ، فتجمعت لدينا بذلك ملاحظات لغوية ونحوية ميزت لهجات تميم عن لهجات (أهل الحجاز) ، وبعض القبائل الأخرى . وقد دخلت هذه الفروق في قراءة القرآن ، فقرأ بعض القراء على لغة الحجازيين ، وقرأ بعض آخر الآيات نفسها على لهجة تميم . كل قرأ على لسانه وتمسك بقراءته ، وقد ساعد ذلك عدم وجود الحركات الضابطة للحروف ، ولو كانت هناك حركات في مبدأ التدوين تضم الحرف أو تكسره أو تفتحه ، لضاق نطاق هذا الاختلاف إذ كان على الناس القراءة وفقاً للمصحف المحرك المشكل الذي اتخذ إماماً لهم ، ولكن عدم وجود مصحف إمام استعمل الشكل والإعجام ، سهّل ظهور القراءات .

والخلاف بين (أهل الحجاز) (لغة أهل الحجاز) وبين (تميم) ، هو خلاف في إطار مجموعة واحدة من القبائل ، هي مجموعة (مضر) . فالقبائل الحجازية التي ذكروها هي قبائل مضرية ، و (تميم) من قبائل مضر كذلك ،

في عرف أهل الأنساب . وكان بين أهل مكة ، أي (قريشاً) وبين (تميم) اتصال وثيق قبل الاسلام ، وكانت بينهم مصاهرة . وقد عرفت (تميم) واشتهرت بالفصاحة ، ولو أخذنا برأي أهل الأخبار ، وبما ذكروه عن فصاحة (تميم) وعن كثرة وجود الخطباء والشعراء فيهم ، وعن حكومتهم في (عكاظ) ، وبما ذكروه عن (قريش) فإننا نخرج بنتيجة هي أن (تميماً) ، كانت أكثر شهرة في بضاعة الكلام من (قريش) ، وهي نتيجة تناقض زعمهم أن قريشاً كانت أصفى العرب لغة ، وأن لسانها هو اللسان العربي الفصيح الذي نزل به القرآن ، وأنها كانت تجتبي أحسن الألفاظ وأعذبها من بين سائر لغات العرب حتى صار لسانها أفصح الألسنة ، وذلك بدليل استشهاد علماء اللغة بلغة تميم من نثر وشعر في شواهدهم وأدلتهم على قواعد اللغة ، كثرة لا تقاس بها الشواهد التي استشهد بها العلماء على ضبط اللغة والقواعد ، المنتزعة من لسان قريش .

ولو استقصينا ما دوّنه علماء اللغة عن مواطن الاختلاف بين لغات العرب ، نصل الى نتيجة أخرى ، هي ان لغات كثير من القبائل تميل الى ترجيح كفة (لغة تميم) على لغة أهل الحجاز ، ففي الفتح والكسر ، كما في (الوتَر) و (الوِتر) ، نجد الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم وأسد وقيس[1] ، وقد قرأ بالقراءتين في سورة : « والفجر . وليالٍ عشرٍ . والشفع والوتر »[2] . قال (الطبري) : « واختلف القراء في قراءة قوله والوتر ، فقرأته عامة قراء المدينة ومكة والبصرة وبعض قراء الكوفة بكسر الواو . والصواب من القول في ذلك ، أنهما قراءتان مستفيضتان معروفتان في قراءة الأمصار ، ولغتان مشهورتان في العرب فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب »[3] . فنرى من رواية (الطبري) المذكورة أن غالبية القراء ، انما قرأت بقراءة تميم وأسد وقيس ، وان كانت القراءة الثانية التي هي بالفتح لغة مكة صحيحة .

والقبائل : (تميم) و (قيس) و (أسد) ، هي من القبائل التي أكثر علماء العربية أخذ اللغة عنها ، ونصوا على اسمها بالذات ، فقالوا : « والذين

---

١ الامالي ، للقالي (١٣/١) .

٢ سورة الفجر ، الرقم ٨٩ ، الآية ٣ .

٣ تفسير الطبري (١١٠/٣٠) .

عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] . فهي في مقدمة القبائل التي ركن اليها علماء اللغة في أخذ اللغة عنهم ، يليهم هذيل ، فكنانة ، وبعض الطائيين .

ومعنى هذا أن بناء العربية ، الذي قام به علماء اللغة ، انما أخذ معظم مادته من لغات القبائل الثلاث المذكورة ، وهي قبائل أقامت في مواضع متجاورة منذ القدم،وكانت بطونها قد توغلت في بوادي العراق في الجاهلية القريبة من الاسلام وفي الاسلام ، وفي البحرين ونجد وبعض مناطق اليمامة . فهي تكوّن جزءاً كبيراً من جزيرة العرب والعراق .

ولتجاور القبائل الثلاث المذكورة في القديم ، أثر كبير في تشابك اللغات وفي تقاربها ، لأن للجوار أثراً خطيراً في تطور اللغة ونموها . ونحن في حاجة اليوم الى وضع صورة مضبوطة لتوزع القبائل في الجاهلية في جزيرة العرب وبادية الشام على مرّ الأدوار ، لنتمكن بواسطتها من تتبع الأثر السياسي والثقافي لهذه القبائل وذلك فيما قبل الاسلام ، ومن دراسة ما ذكره علماء اللغة من فروق بين اللغات بصورة علمية دقيقة مضبوطة ، بتسجيل كل ما ذكروه واحصائه بالضبط ، ثم تطبيق ما ذكروه على مواطن هذه القبائل التي ضبطت ضبطاً صحيحاً على هذه الصورة .

ونجد في كتب اللغة والمعاجم أموراً لغوية كثيرة ، مبعثرة لم يشر اليها العلماء إلا عرضاً ، مثل قول بني أسد (يِيجع) بكسر أوله ، مع عدم قولهم (يِعلم) استثقالاً للكسرة على الياء وأمثال ذلك[2] ، مما يحتاج الى جمع وتصفية للوقوف على قديم اللغات .

وقد عرفت (بنو أسد) ببروزها في شقي الكلام : الشعر والنثر . « قال يونس بن حبيب : ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ،

---

١ المزهر (١/٢١١) .
٢ تاج العروس (٥/٥٣٣) ، (وجع) .

أو شديد العدو »[1] . وهي قبيلة شهيرة . أرى أنها قبيلة « Asateni » المذكورة في جغرافية (بطلميوس)، بين « Iodistae » التي تقع أرضها شمال « Asateni » ، وهي (جديس) ، وقبيلة « Mnasemanes » التي تقع منازلها في شمال غربها في خريطة بطلميوس ، وبين « Laeeni » و « Thaemae » الواقعتين الى الشرق منها ، وموضع « Baeti fl. Fontes » الواقع الى الجنوب وقبيلة « Thanuitae » التي تقع منازلها جنوبي هذا الموضع ، ثم موضع « Salma » ، وهو في الخريطة موضعان : موضع يقع شمالي « Mnasaemanes » ، وموضع يقع جنوب غربي « Baeti fl. Fontes »[2] .

وأما (هذيل) ، فمواطنهم (جبال هذيل)[3] ، وهم جيران (سعد بن بكر)[4] وجيران (كنانة)[5] ، و (هوازن) ، وهي كلها من القبائل التي أثنى العلماء على لغتها . وهذيل من قبائل مضر ، ومن القبائل التي اعرقت في الشعر[6] ، وقد استشهد العلماء بشعر شعرائها في اللغة وفي القواعد ، ومن هنا عدّت في القبائل التي أخذ علماء العربية اللغة منها . وأما (سعد بن بكر) ، و (كنانة) ، و (هوازن) فهي مثل (قريش) و (هذيل) من مجموعة (خندف) من (مضر) .

وأما (بعض الطائيين) الذين أخذ عنهم علماء العربية العربيةَ ، فقد نص العلماء على أسمائهم حين استشهدوا بشعر شعرائها . وطيء ، من القبائل اليمانية في عرف النسابين . وهم من القبائل القديمة التي كان لها شأن يذكر قبل الاسلام ، بدليل أن (بني إرم) والفرس ، أطلقوا على العرب عموماً كلمة (طيايه) (طيايو) من أصل (طيء) اسم هذه القبيلة . وأن العبرانيين أطلقوا (طيعا) (ط ي ي ع ا)، (طيايا) (طياية) في مرادف (عرب) مما يدل على انها كانت أقوى قبائل العرب

---

١ البيان والتبيين (١/١٧٤) .
٢ راجع خريطة « بطلميوس » ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٧١) .
٣ بلاد العرب ، للاصفهاني (١٤ وما بعدها ، ٢٠ وما بعدها ، ٢٣ وما بعدها ، ٢٥ وما بعدها ، ٣٢) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٣ وما بعدها) .
٥ كذلك (ص ١٩ وما بعدها ، ٢١ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٨/١٦٦) .

قبل الاسلام بزمن طويل[1] ، وربما كان هذا شأنهم قبل الميلاد .

ولا يفهم من أقوال علماء اللغة عن لغتهم ، انها كانت ذات صلة بالعربيات الجنوبية ، وأما ما ذكروه من (ذي) التي نعتوها بـ (ذي) الطائية ، فليس لها صلة بـ (ذ) الواردة في العربيات الجنوبية ، وانما هي سمة خاصة بلهجة (طيء) التي هي من العربية الشمالية ، أو من مجموعة عربية (ال) في اصطلاحي الذي أطلقته على العربية الشمالية ، لامتيازها بأداة التعريف هذه عن بقية اللهجات العربية التي استعملت أداة أخرى للتعريف . ولهذا فإن قبيلة (طيء) هي قبيلة عربية من القبائل المتكلمة بعربية (ال) ، وإن عدّ النسابون نسبها من الجنوب .

وما ذكرته من فروق واختلاف ، فإنما هو مما يتناول الاختلاف الكائن بين اللهجات العربية الشمالية ، وأكثره مما يتناول لهجات القبائل في عهد التدوين ، في الأيام التي ظهر فيها الوعي بوجوب تسجيل علوم اللغة وضبطها ، فكان أن أخذ علماء اللغة من الفصحاء وممن اشتهر بالعلم باللغة من الصحابة والتابعين ، كما أخذوا من الأعراب الذين كانوا يفدون على البصرة والكوفة ، وهم من قبائل مختلفة ، لكنهم على الأكثر من أعراب البوادي القريبة من العراق ، ومن القبائل الضاربة في البادية ، فقد ذهب قوم من علماء اللغة الى البادية معدن اللغة للأخذ من ألسنة أهلها مباشرة ، ولاستقراء لهجاتها للتوصل بذلك الى معرفة اللغة والقواعد . فكان من هذا الجمع ومن مراجعة القرآن والشعر والحديث ، هذا المدوّن في الكتب من علوم العربية . فهو كله إذن تدوين ظهر في الاسلام .

ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن ذهاب عـــدد كبير من العلماء الى البوادي لدراسة لهجات القبائل ، كما لا نستطيع التحدث عن الطرق والأساليب التي سلكوها في جمع اللغة وفي البحث عنها وأخذها من أفواه أصحابها ، لعدم وجـــود شيء من ذلك في الموارد الموجودة لدينا الآن . نعم لقد ذكروا أن أقدم من ذهب الى البادية : يونس بن حبيب (١٨٣ هـ) ، و (خلف الأحمر) (١٨٠) ، و(الخليل ابن أحمد) (١٧٥ هـ) ، و (أبو زيد) الأنصاري (٢١٥ هـ) ، و (الكسائي) (١٨٩ هـ) الذي ذهب الى وادي الحجاز ونجـــد وتهامة ، ورجع وقد أنفد خمس

---

١ الجزء الاول من هذا الكتاب (ص ٣١) .

عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[1] ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن بحوثهم وعن استقراءاتهم ولا عن طرقهم التي اتبعوها في بحثهم وتنقيرهم عن اللغة ، والأغلب أنها تناولت الغريب والشعر ، ثم إننا لا نستطيع التحدث عن هذه الرحلات بشيء من الاطمئنان والثقة ، لما قد يكون في كلام رواتها من المبالغة والاضافة والافتعال بسبب العصبية الى المدينة والى العلماء .

ويلاحظ ان معظم الملاحظات المدونة عن اللغات تناولت قبائل ألف علماء العربية الأخذ عنها والاستشهاد بكلامها ، وهي قبائل يرجع النسابون نسبها على طريقتهم الى (معد) ، ويظهر من ملاحظات العلماء عن لهجاتها انها كانت تتكلم بلهجات متقاربة ، ترجع الى المجموعة التي تستعمل (ال) أداة للتعريف . أما القبائل التي رجع أهل النسب نسبها الى قحطان ، والتي استشهد بشعرها فهي : الأزد ، وحمير ، وبعض طيء ، وخثعم . أما كندة ، ومنها الشاعر (امرؤ القيس) ، فلا نجد لها ذكراً في هذه اللغات ، وإن استشهد بشعر شاعرها وبشعر غيره من شعراء هذه القبيلة ، وقد أشير الى اليمن ، ولكنهم لم يذكروا قصدهم منها ، ويظهر انهم أرادوا بهم أعراب اليمن ، وهم مهاجرون في الأصل هاجروا من باطن الجزيرة الى اليمن بعد أن ضعف الحكم فيها على أثر تدخل الحبش في شؤون اليمن وتقاتل الملوك بعضهم مع بعض ، مما أفسح المجال للأعراب بدخول العربية الجنوبية ، فكوّنوا قوة خطيرة فيها ، أشير اليها في كتابات المسند بـ (واعربهم) . (واعربهمو) كما أشرت الى ذلك في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

ولا تزال بعض اللهجات باقية ، تتكلم بها القبائل على سليقتها الأولى ، وآسف لأن أقول ان علماء العربية في الوقت الحاضر ، لم يوجهوا عنايتهم نحوها لدراستها قبل انقراضها وزوالها ، مع ان دراستها من الأمور الضرورية بالنسبة لهم ، لأنها تساعد في تعيين أصول العربيات وفي تثبيت المجموعات اللغوية العربية ، وقد نستنبط منها أموراً علمية كثيرة فات على علماء العربية القدامى يومئذ تسجيلها ، لأنها لا تزال باقية ، فبواسطة الطرق الحديثة في البحث يمكن العثور على ما فات على أولئك العلماء من أمور .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٤٤ وما بعدها) .

وقد لاحظ (فؤاد حمزة) ، ان أهل نجد أصرح في الوقت الحاضر لغة من أهل الحجاز ، لقرب هؤلاء من الحرمين واختلاطهم بالأجانب ، وبعد أولئك عن كل تلك العوامل . ولكن أفصح اللهجات وأقربها الى الفصحى هي اللهجات اليمانية الواقعة ما بين جنوبي الحجاز واليمن . وقد ذكر انهم يتكلمون الألفاظ من مخارجها الصحيحة ، ويتكلمون بما هو أقرب الى الفصيح من سواه . ويتكلم بعض البداة منهم بكلم معرب فصيح[1] .

ولاحظ أن لغات القبائل لا تزال مختلفة ، فمنهم من يقلب (الجيم) ياء فيقول: (المسيد) ، بدلاً من (المسجد) ، وهم قوم من اليمن والنمور في وادي محرم ، ومنهم من يقلب القاف والكاف (تس) ، فيقول (حكى) (حتسى)، وهم من أهل نجد ، ومنهم من يقلب (الكاف) (تش) ، فيقول : (بكى) (بتش) ، ومنهم من يقلب (القاف) (گافاً) مفخمة ، فيقول (گال) في موضع (قال) ، وهي من لغات أهل نجد ، ومنهم من يقلب (الكاف) (سيناً)، فيقول (عبيسي) ، في موضع (عبيكي) ومنهم من يقلب (القاف) (جياً) ، فيقول (العجير) في موضع (العقير) ، ومنهم من يقلب (الظاء) (لاماً)، فيقول (اللهر) في موضع (الظهر) ، ومنهم من يقلب (الضاد) (لاماً)، فيقول (الليف) في موضع (الضيف) ، ومنهم من يجعل (الياء) بين الألف والياء ، فيقول (امطاير) في موضع (مطير)[2] .

ويلاحظ أن قبائل العراق لا تزال تستعمل مثل هذه اللجهات وغيرها،فيستعمل بعضها حرف العين في موضع الهمزة ، فيقولون (سعال) في موضع (سؤال) وتستعمل بعض القبائل حرف (الياء) في موضع (الميم) ، فتقول (يومن) ، في موضع (مومن) ، أي (مؤمن) ، وغير ذلك ، وتستعمل بعضها اليـاء في موضع (الجيم) ، فتقول : (ريال) في موضع (رجّال) ، أي (رجل) .

وذكر ان أهل اليمن يستعملون (الميم) في موضع (ال) أداة التعريف ، فيقولون (أم بيت) في موضع (البيت)[3] . وقد أشير في الحديث الى هـذه

---

١ قلب جزيرة العرب (٩٩) .
٢ قلب جزيرة العرب (١٠٠) .
٣ قلب جزيرة العرب (١٠٠) .

اللغة ، ويظهر أنها لغة خاصة ، ربما كانت حاصل ادغام حرف الجر (من) في الكلمة التي دخلت عليها ، فـ (أم بيت) ، هي (من البيت) أو أنها لهجة من اللهجات التي تكلم بها أهل اليمن الشماليون ، جعلت (الميم) أداة للتعريف . لأننا نعلم – كما سبق أن ذكرت – أن حرف (الميم) أداة للتنكير في اللهجات العربية الجنوبية ، فيقال (بيّم) في موضع (بيت) ، وتلحق آخر الاسم . أما أداة التعريف فحرف (ن) يلحق آخر الكلمة كذلك ، ولا يدخل على أولها كما في (ال) ، يقال (بيّن) في موضع (البيت) ، و (ملكن) في مقابل (الملك) .

وذكر (فؤاد حمزة) أن قبيلة (فهم) ، وتقع منازلها اليوم بين بني ثقيف شمالاً والجحادلة غرباً ، تتكلم بعربيـــة قريبة جداً من العربية الفصحى ، وهي مشهورة بالفصاحة [1] .

وفي العربية الجنوبية قبائل تتكلم اليوم بلهجات يرجع نسبها الى اللهجات العربية الجنوبية القديمة ، لأن في ألفاظها وفي تراكيب جملها ، ودراستها في هذا اليوم، ضرورة لازمة لمن يريد الوقوف على تأريخ اللغة العربية قبل الإسلام. ومن الضروري كذلك وجوب دراسة اللهجـات (الشحرية) و (المهرية) و (السواحلية) و (السقطرية) ، ولهجات السواحل الافريقية المقابلة لجزيرة العرب للوقوف على تطور اللغات العربية الجنوبية ، وعلى حل رموزها التي لا تزال مغلقة غير معروفة عند علماء هذا اليوم . لما لهذه اللهجات من صلات بالعربيات المذكورة .

وأرى من الضروري دراسة اللهجات العربية الحالية في كل مكان من أمكنـــة جزيرة العرب ، ولا سيما في المواضع التي استخرج العلماء من باطنها نصوصاً مدوّنة بلهجات عربية قديمة ، مثل أعالي الحجاز لنتمكن بهذه الدراسة من حلّ معضلات تلك الكتابات ومن تكوين رأي علمي واضح عـــن تطوّر تلك اللهجات فيما قبل الاسلام .

وأرى من الضروري في هذا اليوم وجوب تأليف معجم لغوي ، يضم اللهجات العربية القديمة ، أي اللهجات الجاهلية التي وردت في النصوص الجاهلية، للوقوف عليها ، ولا سيما على اللفظ الغريب منها ، ومقارنتها بالألفاظ التي ترد في اللهجات

---

١ قلب جزيرة العرب (١٧٨) .

العربية الأخرى لإحياء ما يمكن احياؤه من الميت منها ، واستعماله في هذا اليوم ، للأشياء التي قصرت العربية الفصحى عن وضع مسميات لها،أو أن مسمياتها حوشية، لا تنسجم مع الذوق ، وادخال الألفاظ الواردة في النصوص في المعاجم الموسعة العلمية التي تؤرخ الألفـــاظ ، بأن تشير الى ورودها لأول مرة في الشعر أو في النصوص الجاهلية . كما أرى من الضروري وجوب العناية بدراسة ما ذكره العلماء عن اللهجات دراسة علمية نقدية تقوم على المقابلة والمطابقة والمقارنة باللغات الأخرى مع تسجيل قواعدها حسبما أمكن .

obeikandl.com

الفصل الثامن والثلاثون بعد المئة

لغة القرآن

ولتشخيص لغة القرآن صلة كبيرة في تعيين وتثبيت المراد من العربية الفصيحة أي العربية المبينة . ولهذا فأنا مضطر الى التعرض لها ، وإن كان الموضوع بحثنا إسلامياً ، فأقول نزل القرآن منجماً (بلسان عربي مبين) . ولكن العرب كانوا ولا زالوا يتكلمون بلهجات ، فبأية لهجة من لهجاتها نزل القرآن الكريم ؟

لقد تطرق (الطبري) في مقدمة تفسيره الى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأي من زعم أن في القرآن كلماً أعجمياً ، وأن فيه من كل لسان شيئاً ، فقال : « قال أبو جعفر : قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه ، على أن الله جلّ ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها . فنقول الآن : إذا كان ذلك صحيحاً في الدلالة عليه ، فبأي ألسن العرب أنزل ؟ أبألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ إذ كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله جلّ ذكره قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربياً ، وأنه أنزل بلسان عربي مبين ، ثم كان ظاهره محتملاً خصوصاً وعموماً ، لم يكن السبيل الى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه إلاّ ببيان من جعل اليه بيان القرآن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كان ذلك كذلك ،

وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه، صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنا خلاد بن أسلم، قال : حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة ، قال : لا أعلمه إلاّ عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف، فالمراء في القرآن كفرٌ ، ثلاث مرّات . فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردّوه الى عالمه »[1] .

واستمر الطبري بعد ذلك في تعداد الطرق التي ورد فيها هذا الحديث: حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ورواية بعض الأخبار الواردة في حدوث اختلاف بين الصحابة في حفظ بعض الآيات وقراءتها . ثم خلص بعد هذا السرد الى نتيجة ، هي أن القرآن « نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم هي ببعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها »[2] ، فلم يجزم بتعيين اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .

وحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » حديث معروف مشهور ، يرد في كتب التفاسير وفي كتب المصاحف والقراءات . ورد بطرق متعددة ، وبأوجه مختلفة . وهذه الطرق والأوجه ، وان اختلفت في سرد متن الحديث وفي ضبط عباراته ، قد اتفقت في الفكرة ، وخلاصتها نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف. ويقصدون بالحرف وجهاً من أوجه الألسنة ، أي لهجة من اللهجات[3] .

أما رجال سند هذا الحديث ، فعديدون ، وفي حال بعضهم كابن الكلبي وأبي صالح مغمز[4] . وهم جميعاً يرجعون سندهم الى جماعة من الصحابة ، هم نهاية سلسلة السند ، قالوا : إنهم سمعوا الحديث من الرسول ، ويعنون بهم : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّان ، وابن عبّاس ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأنساً ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبا بكرة ، وأبا جهم ، وأبا سعيد

---

١ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١/٢٥) .
٣ تفسير الطبري (١/٩) ، تاج العروس (٦/٦٨) ، (حرف) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٣ وما بعدها) ، الصاحبي (٥٧) .
٤ تفسير الطبري (١/٢٣) .

الخدري ، وأبا طلحة الأنصاري ، وأبا هريرة ، وأبا أيوب ، وجملتهم واحد وعشرون صحابياً على بعض الروايات[1] .

وورد في الحديث ، حديث آخر يرجع سنده الى (ابن عباس) فيه تأييد له ، نصه أن رسول الله قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف » ، وحديث آخر ، نصه : «إن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ،فرددتُ إليه : أن هوّن على أمتي ، فأرسل اليّ : أن اقرأ على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على أمتي ، فأرسل إليّ أن أقرأه على سبعة أحرف » ، وحديث ثالث نصه : « إن جبريل وميكائيل أتياني ، فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري ؛ فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ... حتى بلغ سبعة أحرف » ، « وفي حديث أبي بكرة عنه : فنظرت الى ميكائيل فسكت . فعلمت أنه قد انتهت العدة »[2] . وهناك أحاديث أخرى بهذا المعنى[3] .

ونجد في كتب التفسير والحديث والأخبار أحاديث وأقوالاً تشير الى أن بعض الصحابة كانوا يقرأون قراءات متباينة وكانوا يتعززون بقراءتهم ويتمسكون بها ، ومنهم من كان يقرأها على الرسول فلم يعترض عليها ، بل روى أنه قال : « اقرأوا كما علمتم »[4] . وروى أنه « جاء رجل الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقرأني عبدالله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أُبيّ بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعليٌّ الى جنبه ، فقال عليّ : ليقرأ كل إنسان بما عَلِمَ كلٌّ حسن جميل » . ورووا على لسان عمر بن الخطاب قوله : « سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلّم . فلما سلّم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها

---

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١/١٣١) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٤) .
٣ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٣٢ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبري (١/٩) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : كذبت ، فـوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها . فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هـذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان ! قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . اقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منها »[1] . وكالذي ذكروه من أن رجلاً قرأ عند (عمر) فغير عليه ، « فقال : لقد قرأت عـلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يغير عليّ . فاختصما عند النبي صلى الله عليـه وسلم . فقال : يا رسول الله ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى .. فوقع في صدر عمر شيء . فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك في وجهه .. فضرب صدره. وقال : أبعد شيطاناً ! قالها ثلاثاً . ثم قال : يا عمر : إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمة عذاباً ، أو عذاباً رحمة »[2] .

وروي « أن رجلين اختصما في آية من القرآن وكلّ يزعم أن النبي صلى الله عليـه وسلم أقرأه ، فتقارأا الى أُبيّ فخالفهما أُبيّ فتقارأوا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله اختلفنا في آية من القرآن وكلّنا يزعم أنك أقرأته ! فقال لأحدهما : اقرأ ، قال : فقرأ ، فقال : أصبت . وقال للآخر : اقرأ ، فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه ، فقال : أصبت . وقال لأبيّ : اقرأ ، فخالفهما. فقـال : أصبت . قال أُبيّ : فدخلني من الشك في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دخل فيّ من أمر الجاهلية . قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي في وجهي ، فرفع يده فضرب صدري ، وقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : ففِضتُ عرقاً ، وكأني أنظر الى الله فَرَقاً ،وقال:

---

١ تفسير الطبري (١/١٠) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٧١) ، (٣/٥٧١) ، (رقم ٨٩٦٥) .

٢ تفسير الطبري (١/١٠) .

إنه أتاني آت من ربّي ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ ، خفف عن أمّتي . قال : ثم جاء ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلتُ : رب خفف عن أمّتي . قال : ثم جاء الثالثة ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد.فقلت: رب خفف عن أمّتي . قال : ثم جاءني الرابعة ، فقال إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردةٍ مسألة الخ »[1] .

ورُوي عن زيد بن وهب ، قال : أتيت ابن مسعود استقرئه آية من كتاب الله ، فأقرأنيها كذا وكذا . فقلت : إن عمر أقرأني كذا وكذا خلاف ما قرأها عبدالله . قال : فبكى حتى رأيت دموعه خلال الحصى ، ثم قال : إقرأها كما أقرأك عمر ، فوالله لهي أبين من طريق السيلحين[2] .

وأورد العلماء أحاديث أخرى بهذا المعنى ، تظهر كلها وقوع الخلاف بين الصحابة في قراءة القرآن ، وعلم الرسول به ، وتجويزه لهم القراءة بقراءتهم كل إنسان بما علم[3] .

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال . جمعها القرطبي على خمسة وثلاثين قولاً[4] ، وجعلها (السيوطي) على نحو أربعين قولاً[5] ، تحدث هو وغيره عنها ، والحديث عنها في هذا الكتاب يخرجنا من حدود بحثنا المرسومة ، وهو التأريخ الجاهلي ، لذلك فسوف لا أتكلم في هذا المكان إلاّ عن الأقوال التي عينت تلك الأحرف ونصت على أسمائها بالنص والتعيين، فأقول :

قد رأينا الأحاديث المذكورة والأخبار المروية ، وهي عامة ، لم تنص على أن المراد من الأحرف السبعة حرفاً معيناً ، ولساناً خاصاً من ألسنة العرب ، غير أننا نجد أخباراً ، نصت على تلك الأحرف وعينتها وشخصتها ، إذا تتبعنا سندها

---

١ تفسير الطبري (١/١٤) .
٢ ابن سعد (١/٢٧٠) ،
٣ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٥ وما بعدها) .
٤ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٤ وما بعدها) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٨) .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١) .

ورجالها نجدها تنتهي بـ (ابن عباس) . وأكثر القائلين بها هم من علماء العربية مثل (أبو عبيد) و (أبو عمرو بن العلاء) وثعلب ، والأزهري ، وسند هذه الأخبار (الكلبي) عن (أبي صالح) عن (ابن عباس) ، أو عن (قتادة) عن ابن عباس ، وأمثال ذلك من طرق . فقد ورد عن (ابن عباس) قوله : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن ، قال أبو عبيد : والعجز ، هم بنو سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وهؤلاء كلهم من هوازن . ويقال لهم : عليا هوازن . ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، يعني بني دارم[1] ، « وأخرج أبو عبيد من وجه آخر ، عن ابن عباس ، قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خُزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة ، يعني أن خزاعة كانوا جيران قريش ، فسهلت عليهم لغتهم »[2] .

« وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش وهُذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر »[3] . وذكر بعض آخر أنه نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن[4] وسعد بن بكر ، هم من عليا هوازن[5] . ومعنى هـذا أنه نزل بلغات عدنانية ولغات قحطانية ، أي بجميع ألسن العرب .

وقد تعرض (الطبري) للأقوال المذكورة ، فقال : « وروى جميع ذلك عن ابن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقلـه ، وذلك أن الذي روي عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن : الكلبي عن أبي صالح ، وأن الذي روي عنه أن اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة : قتادة ، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه »[6] . وقـد ضعف (ابن الكلبي) ، ورفض علماء

---

١ تفسير الطبري (١/٢٣) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٦٧) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) ، الصاحبي (٥٧) .
٢ تفسير الطبري (١/٢٣) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .
٣ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .
٤ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٧٣) .
٥ المزهر (١/٢١٠ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (١/٢٣) .

الفقه والحديث الأخـــذ عنه[1] .. وضعف (أبو صالح) كذلك واتهم بالكذب : « قال ابن معين : إذا روى عنه الكلبي فليس بشيء[2] » .

وأما (قتادة) ، فذكر (الطبري) عنه أنه لم يلق (ابن عباس) ، ولم يسمع منه[3] فحديثه عن ابن عباس إذن مما لا يجوز الأخذ به . فروايته : « نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة » ، رواية لا يعتمد عليها لهذا السبب . ولقتادة رواية أخرى بهذا المعنى نسبها الى (أبي الأسود الدؤلي) ، زعم أنه قال : « نزل القرآن بلسان الكعبين : كعب بن عمرو ، وكعب بن لُؤي » . وقد علق (خالد ابن سلمة) على هذا الكلام فقال : « ألا تعجب من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نزل بلسان الكعبين؟ وإنما نزل بلسان قريش » . قال مخاطباً به (سعد بن ابراهيم)[4]. وقد رمي قتادة بالتدليس[5] .

وينتهي سند هذا الحديث: « أنزل القرآن على سبعة أحرف » الى (أبي هريرة)[6]، وقد كثر القول عن أبي هريرة ، وأكـــثر (أبو هريرة) الحديث عن رسول الله ، حتى قال الناس أكثر أبو هريرة الحديث عن رسول الله ، وكان يقـول لهم : « اني كنت امرءاً مسكيناً ، أصحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم على ملء بطني . وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام عـــلى أموالهم » ، وذكر أن مسند « تقي بن مخلد ، احتوى من حديث أبي هريرة على خمسة آلاف وثلثمائة حديث وكسر »[7] ؛ وقد يكون بعض مـــا أسند اليه مما أكثر عليه ، أكثره عليه من جاء بعده ، ثم إن علينا نقد حديثه ، فليس هو بمشرع ولا معصوم ، حتى نقبل منه كل ما روي عنـه[8] . بل روي أن (عمر بن الخطاب) قال له : « أكثرت يا أبا هريرة من الرواية ، وأحر

---

١ ميزان الاعتدال (٣/٢٥٦) ، لسان الميزان (٦/١٩٦) .
٢ ميزان الاعتدال (١/١٣٧ وما بعدها) .
٣ وقد تحدثت عنه بالمناسبة في بحث « موارد تأريخ الطبري » المنشور في مجلدات مجلة المجمع العلمي العراقي ، تفسير الطبري (١/٢٣) .
٤ تفسير الطبري (١/٢٣) .
٥ ميزان الاعتدال (٢/٣٤٥) .
٦ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) .
٧ الاصابة (٤/٢٠٢) ، (رقم ١١٩٠) .
٨ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية ، وكتابه شيخ المضيرة .

بك أن تكون كاذباً على رسول الله . ثم هدده وأوعده إن لم يترك الحديث عن رسول الله فإنه ينفيه الى بلاده .

وقد أخرج ابن عساكر من حديث السائب بن يزيد : لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس »[1] .

وهناك رأي ثالث يقول إنه نزل بلغة مضر ، لقول (عمر) : نزل القرآن بلغة مضر وعيّن بعضُهم — فيما حكاه — ابن عبد البرّ السبع من مضر ، أنهم هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبّة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة، وقريش. فهذه قبائل مضر ، تستوعب سبع لغات »[2] . وذكر أن (عمر) لما أراد « أن يكتب الإمام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[3] . ولما كانت القبائل المذكورة من مجموعة (مضر) ، تكون لغة القرآن ، وفقاً لهذا الرأي لغة مضر ، لا لغة قريش ، وروي عن (عبدالله بن مسعود) ، أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر[4] .

وعندنا أخبار أخرى تفيد أن القرآن إنما أنزل بلغة قريش . من ذلك ما روي من قول عمر : « لا يملينّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف »[5] وفسروا ذلك بأنه يعني أن القرآن إنما نزل بلغة قريش . وما روي من قول (عثمان) للرهط القرشيين الذين أوكل اليهم جمع القرآن وكتابته : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم . ففعلوا »[6] ، وما روي عنه أيضاً ، من أنه لما استفتي في اختلاف

---

١ أضواء على السنة المحمدية (٢٠٠ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١٣٦/١) .
٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .
٤ الصاحبي (٥٧) .
٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) ، « وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف » ، الصاحبي (٥٧ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (١١) ، السيوطي ، اتقان (٥٩/١) .
٦ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣١) ، (اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فان القرآن أنزل بلسانهم » ، المصاحف (٢٠) .

(زيد) مع الرهط في كتابة (التابوت) أيكتبونه بالتاء أو الهاء ، وقال الثلاثة القرشيون إنما هو التابوت ، وقال زيد إنما هو التابوه ، قال : « اكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم »[1] ، وما روي عنه أيضاً من قوله للرهط الذين أمرهم بكتابة القرآن : « إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم ففعلوا »[2] .

واستنكر (ابن قتيبة) قول من قال إن القرآن نزل بلغات أخرى ، فقال : « لم ينزل القرآن إلاّ بلغة قريش » ، واحتج بالآية : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه »[3] . واحتج آخرون بقول (عمر) لعبدالله بن مسعود : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش »[4] .

وروي في (البخاري) ، أن القرآن نزل بلسان قريش والعرب . وقريش خلاصة العرب[5] . وذكر بعض العلماء أنه نزل « بلغة الحجازيين إلاّ قليلاً ، فإنه نزل بلغة التميميين كالإدغام في : ومن يشاقّ الله ، وفي : ومن يرتد منكم عن دينه ؛ فإن ادغام المجزوم لغة تميم،ولهذا قل ، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر »[6].

وذكر بعض العلماء « إن في القرآن من أربعين لغة عربية وهي : قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، وألخزرج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عيلان ، وجرهم ، واليمن ، وأزد شنوءة ، وكندة ، وتميم ، وحمير ، ومدين ، ولخم ، وسعد العشيرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والعمالقة ، وأنمار ، وغسان ، ومذحج ، وخُزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطيء ، وعامر ابن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجذام ، وبليّ ، وعذرة ، وهوازن ، والنمر ، واليمامة[7] .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣٥) ، تفسير النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/٢٤) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ ابن كثير ، فضائل القرآن (١٩) ، ارشاد الساري (٦/٨ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .
٤ الفائق (٢/١١٣) .
٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (١/١٩ وما بعدها) .
٦ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٣) .
٧ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٧٤) ، السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٢) ، الصاحبي (٥٨ وما بعدها) .

وذكروا أن مما وقع في القرآن من غير العربية : الفرس ، والروم ، والنبط ، والحبشة ، والبربر ، والسريانية ، والعبرانية ، والقبط[1] .

وقال بعض العلماء : « انزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الإنتقال عن لغته الى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيهم من الحميّة ، ولطلب تسهيل فهم المراد »[2].

وذهب (الباقلاني) الى أن « معنى قول عثمان إنه نزل بلسان قريش ، أي معظمه ، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله ، قال الله تعالى : قرآناً عربياً ، ولم يقل قرشياً ، قال : واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً يعني حجازها ويمنها ، وكذا قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، قال : لأن لغة غير قريش موجودة في صحيح القراءات كتحقيق الهمزات فإن قريشاً لا تهمز ، وقال ابن عطية : قال ابن عباس : ما كنت أدري معنى فاطر السماوات والأرض ، حتى سمعت أعرابياً يقول لبئر ابتدأ حفرها : أنا فطرتها »[3] .

وسند القائلين : ان القرآن نزل بلسان قريش ، كون الرسول من مكة ، ومكة موطن قريش . فلا بد من نزول كتاب الله بلسانهم ، ليكون حجة عليهم واعجازاً لفصحائهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[4] ، فعلى هذا تكون لغة القرآن لغة قريش[5] ، ولما جاء في الأخبار التي رويت عن (عمر) و (عثمان) من أنه نزل بلسان قريش .

ومن حججهم أيضاً مما رووه عن (أبي عبيد الله) من قوله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . وذلك أن الله — جل ثناؤه — اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته . فكانت وفود العرب من

---

١ السيوطي ، الاتقان (١/١٠٢) ، الصاحبي (٦١) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٦) .
٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .
٤ سورة ابراهيم ، الآية ٤ .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .

حجّاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في أمورهم. وكانت قريش تعلّمهم مناسكهم وتحكم بينهم. ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وتسميها أهل الله، لأنهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام، ولم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة، فضيلة من الله جـل ثناؤه، لهم وتشريفاً، إذ جعلهم رهط نبيّه الأدنين وعترته الصالحين. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقـة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغـات الى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس »[1].

وروي عن (قتادة) قوله : « كانت قريش تجتبي، أي تختار، أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتهم لغتهم، فنزل القرآن بها »[2].

ثم إنها كانت بعيدة عن الأعاجم، فصان بعدهـا عنهم لسانها عن الفساد، وحفظها من التأثر بأساليب العجم، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[3].

ولكننا نجد خـبراً يذكر أن (عثمان) قال للرهط الذين أمرهم بجمع القرآن وكتابته : « اجعلوا المملي من هذيل، والكاتب من ثقيف »[4]، وليست هذيل ولا ثقيف من قريش. ونجد خبراً آخر يذكر أنه كانت غمغمة في لغة قريش، والغمغمة من اللغات الرديئة التي أخذها علماء اللغة على اللغات العربية الأخرى[5]، فكيف تتفق الغمغمة مع ما ذكروه من صفاء ونقاء وسهولة وبيان لغـة قريش ! ثم نجد خبراً يذكر أن الخليفة (أبو بكر)، لما همّ بجمع القرآن، بعد إلحاح

---

١ الصاحبي (٥٢ وما بعدها)، (باب القول في أفصح العرب)، المزهر (١/٢١٠)، غريب القرآن (١/١٠).

٢ اللسان (٢/٧٧)، (١/٥٨٨)، (صادر)، (عرب).

٣ مقدمة ابن خلدون، الفصل الثامن والثلاثون من القسم السادس، الهلال، السنة ٢٦، (اكتوبر ١٩١٧ م)، (١/٤٣).

٤ الصاحبي (٥٨).

٥ تاج العروس (٩/٦)، (غمم).

(عمر) عليه بذلك، « أجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش، وخمسين رجلا من الأنصار، وقال: اكتبوا القرآن، واعرضوا على سعيد بن العاص، فإنه رجل فصيح »[1]، ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش، لما اختار هذا العدد الكثير من الأنصار، وهم من غير قريش، ومن منافسي مكة في الجاهلية والاسلام، إن صح هذا الخبر، الذي أشك في صحته.

ثم نجد خبراً آخر يناقض الخبر المتقدم، يقول: « لما كُتبت المصاحف عُرضت على عثمان، فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال: لا تغيّروها؛ فإن العرب ستغيرها - أو قال ستعربها - بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل، لم توجد فيه هذه الحروف »[2]. وهو خبر أشك في صحته، وللعلماء فيه آراء.

وأما ما قالوه من اختلاف (زيد) مع النفر القرشيين الذين أشركوا معه في جمع القرآن من كتابة (التابوت) بالتاء أو بالهاء، وكان من رأيه كتابتها (التابوه)، ومن رأي (عثمان) (التابوت)[3]، فقد ذكر العلماء أن (التابوه) لغة في التابوت أنصارية[4]. واللفظة هي من المعربات، أخذها الأنصار من العبرانية، فهي عندهم (ت ب ه) (ط ب ه) « Tebh » « Teba » بمعنى صندوق[5]. وقد كتبت في القرآن بالتاء. وقد وردت اللفظة في سورة (طه)، وهي مكية[6]، ووردت في سورة البقرة وهي مدنية[7].

وأقرب الأقوال المذكورة الى المنطق، هو قول من قال إنه نزل بلسان عربي وكفى. فاسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً، يعني حجازها ويمنها وكل مكان آخر من جزيرة العرب[8]، ثم ما بالنا نفسر ونؤول، ونلف وندور في تفسير: « أنزل القرآن على سبعة أحرف »، وهو حديث، روي بروايات

---

١ اليعقوبي (١/١٢٥)، (خلافة أبي بكر).
٢ السيوطي، الاتقان (٢/٢٧٠).
٣ الزينة (١/١٤٦).
٤ تاج العروس (١/٥٣٢)، (تبت).
٥ غرائب اللغة (٢١١).
٦ السورة رقم ٢٠، الآية ٣٩.
٧ السورة رقم ٢، الآية ٢٤٨.
٨ ابن كثير، فضائل القرآن (٧٧).

تحتاج الى نقد ، وفيها ضعف ، وأخبار ضعيفة ، لا تقف على قدميها ، ثم نترك كتاب الله القائل : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[1] ، و « هذا لسان عربي مبين »[2] و « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[3] ، و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[4] ، و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[5] ، و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون »[6] ، و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[7] ، و « كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً »[8] ، و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[9] ، « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[10] ، ولم يقل قرشياً[11] ، ولو نزل بلغة قريش لما سكت الله تعالى عن ذلك ، لما في التنويه بلسانهم إن كان أفصح ألسنة العرب من حجة على العرب في فصاحته وبيانه وكونه معجزة بالنسبة لقريش ، أفصح الناس وألسنهم ، وليس بكلام العرب عامة الذين هم على حدّ قول أهل الأخبار دون قريش في اللغة والكلام .

وما آية : « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم »[12] ، إلا دليلاً وحجة على نزول القرآن بلسان العرب ، لا بلسان قريش ، أو بلسان قبيلة معينة ، أو قبائل خاصة . فالآية تقول : « ما أرسلنا الى أمة من الأمم يا محمد من قبلك ومن قبل قومك رسولاً إلا بلسان الأمة التي أرسلناه اليه ولغتهم ، ليبين لهم . يقول : ليفهمهم ما أرسله الله اليهم من أمره ونهيه وليثبت حجة الله عليهم

---

١ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٣ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٤ الرعد ، الرقم ١٣ ، الاية ٣٧ .
٥ طه ، الرقم ٢٠ ، الاية ١١٣ .
٦ الزمر ، الاية ٢٨ .
٧ فصلت ، الرقم ٤١ ، الاية ٣ .
٨ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الاية ٧ .
٩ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣ .
١٠ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الاية ١٢ .
١١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .
١٢ سورة ابراهيم ، الاية ٤ .

ثم التوفيق والخذلان بيد الله »[1] . ولما كان النبي عربياً ، وقد نعت في القرآن بأنه « النبي الأمي »[2] ، الذي أرسله الله الى الأميين ، « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »[3] ، والأميون هم العرب ، العرب كلهم ، ولما كان الله قد أرسله الى قومه العرب ، وجب أن يكون الوحي بلسانهم المفهوم بينهم ، بلسان طائفة منهم ، يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم نفسه من أنه نزل بلسان عربي مبين . « قال الأزهري : وجعل الله ، عز وجل ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها ، العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنه من صريح العرب »[4] . وقال (ابن خلدون) : « إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »[5] . وقال (الطبري) في تفسيره للآية : « انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[6] ، « يقول تعالى ذكره : انا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآناً عربياً على العرب ، لأن لسانهم وكلامهم عربي ، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه . وذلك قوله عزّ وجلّ لعلكم تعقلون »[7] .

« قال ابن أبي داود في المصاحف : حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز : أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن[8] . ونعت أنه كان أحد أشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة » وفي هذه الاشارة دلالة على أن لهجة الرسول ، لم تكن لهجة عامة قريش ، وإنما كانت بالعربية التي نزل بها القرآن ، ولهذا نص على أن لهجة (سعيد) كانت

---

١ تفسير الطبري (١٣/١٢١) .
٢ الأعراف ، الآية ١٥٧ وما بعدها .
٣ الجمعة ، الرقم ٦٢ ، الآية ٢ .
٤ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٥ المقدمة (٣٦٧) ، (١٩٣٠ م) .
٦ سورة يوسف ، الآية ٢ .
٧ تفسير الطبري (١٢/٨٩) .
٨ الاصابة (٢/٤٥) ، (رقم ٣٢٦٨) .

مشابهة للهجة الرسول ، وكان من أفصح رجال قريش ، ولو كانت عربية القرآن عربية قريش ، لما كان هنالك معنى لقولهم : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ، إذ لو كانت عربية القرآن عربية قريش ، لنص عليها ، ثم لكان في وسع أي رجل كاتب من قريش ، تدوينه ، لفصاحة قريش ، ولكن سعيداً كان من فصحاء قريش ، لأنه كان يتكلم بعربية فصيحة ، هي العربية التي نزل بها القرآن ، والتي عرف فصحاء قريش فصاحتها ، فاعترفوا لذلك بنزوله بأفصح لغة وأبين بيان .

وقد ذهب (نولدكه) الى أن القول بنزول القرآن بلسان قريش ، إنما ظهر في العصر الأموي ، لإظهار عصبيته منها على الأنصار . ونظراً لكون القرآن كتاب الله فلادعاء نزوله بلغة قريش أهمية كبيرة بالنسبة لهم ، ولتأييد سياستهم المناهضة للأنصار وللقحطانيين[1] .

ويلفت حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » النظر إليه حقاً ، فقد حصر القراءات في (سبعة أحرف) . والأحرف الألسنة ، مع أن العلماء يذكرون أن في القرآن من كل لغة ، وأن فيه خمسين لغة[2] . فإذا كان فيه هذا العدد أو نحوه ، فما بال هذا الحديث يحصرها في سبعة فقط لا تزيد ولا تنقص وهي أحرف ثبتها العلماء ونصوا على أسمائها نصاً . هل أخذوا هذا الحديث من (السبع المثاني) في القرآن الكريم ، من قوله : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم »[3] . أو أخذوه من عدد سبعة الذي يرد في مواضع عديدة من القرآن الكريم ؟ مثل سبع سماوات[4] ، وسبع سنابل[5] ، وسبع سنبلات[6] ، وسبع بقرات[7] ، وسبع سنين[8] ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٠٧) ،

٢ « وقال أبو بكر الواسطي في كتابه : الارشاد في القراءات العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة : لغة قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ... الخ »، السيوطي ، الاتقان (١٠٢/٢) .

٣ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٧ ، تفسير الطبري (٣٥/١٤ وما بعدها) .

٤ البقرة ، الآية ٢٩ .

٥ البقرة ، الآية ٢٦١ .

٦ يوسف ، الآية ٤٣ .

٧ يوسف ، الآية ٤٣ .

٨ يوسف ، الآية ٤٧ .

وسبع شداد[1] ، والسماوات السبع[2] ، وسبع ليـــال[3] ، وسبعاً شداداً[4] ، وسبعة أبواب[5] ، وسبعـــة أبحر[6] ، والعدد سبعة هو عدد الأيام التي أتم الله فيها الخلق كله ، وعدد أيام الاسبوع ، ونحو ذلك . والعدد سبعة عدد لعب دوراً خطيراً عند الشعوب القديمة ، فالأرض سبع طبقات ، والسموات سبع طبـــاق ، وأنغام الموسيقى سبعة ، والعدد سبعة عدد مقدس ، لعب دوراً في الرياضيات القديمة وفي نظريات (فيثاغورس) ، وعيون الشعر الجاهلي هي سبعة ، هي القصائـــد السبع الطوال ، أو المعلقات السبع ، فهل اقتصر الحديث على هذا العدد لسبب من هذه الأسباب أو ما شابهها ، من أسباب ؟

وقد ذهب بعض العلماء الى أن العدد سبعة لا يمثل حقيقة العـــدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة . ولفظ (السبعة) يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين ، ولا يراد العدد المعين . ويرده ما في كتب الحديث والأخبار من النص على العدد سبعة بصورة لا تقبـــل الشك في أن المراد منه حقيقـــة العدد وانحصاره ، ثم تعيين هذه الكتب اللهجات السبـــع بالأسماء[7] ، وقد ألف (الصفدي) كتاباً في عدد السبعة ، سماه (عين النبع على طرد السبع) قال فيه إن السبعة جمعت العدد كله ، وهذا العدد يمثـل الكمال ، فأنا لا استبعد أن يكون هذا الحديث قد جاء من هذه الفكرة[8] .

القراءات السبع :

ومن الأحرف السبعة ظهرت نظرية القراءات السبع ، القراءات المعتبرة المعتمدة عند القراء ، وهي ترجع الى أئمة ارتبطت القراءات بأسمائهم ، وعليها يقتصر في

---

١ يوسف ، الآية ٤٨ .
٢ الاسراء ، الآية ٤٤ ، المؤمنون الآية ٨٦ ، فصلت ، الآية ١٢ ، الملك ، الآية ٣ ، نوح ، الآية ١٥ .
٣ الحاقة ، الآية ٧ .
٤ النبأ ، الآية ١٢ .
٥ الحجر ، الآية ٤٤ .
٦ لقمان ، الآية ٢٧ .
٧ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها) .
٨ الرافعي (٢/٥٤) .

القراءات . وهي نتيجة تطور سابق لقرّاء سبقوا هؤلاء الأئمة الذين اعتمد عليهم في القراءات[1] ، وعلى قراءاتهم يقرأ من يستحق لقب (مقرىء) أو (قارىء)[2] ، وإن كانت هنالك روايات تزيد بعض الزيادات على هذه القراءات .

ولأجل تكوين فكرة علمية صحيحة عن هذه الأخبار وعن درجة سعة هـذا الاختلاف ومقدارها وما يجب أن يقال فيها ، لا بد من نقـد كل ما ورد في هذا الباب من حديث وروايات ، وغربلته غربلة دقيقة . وتكون أول هذه الغربلة في نظري بنقد سلسلة رجال السند ، أي الرواة ، لمعرفة الروابط التي كانت تربط بينهم وصلة بعضهم ببعض وملاقاتهم ، وما قيل وورد فيهم ؛ إذ نسبت أحاديث الى أشخاص قيل إنهم رووها عن أناس ثقات ، ثبت من النقد أن بعض رجال السند لم يلتقوا في حياتهم بمن حدثوا عنهم كما في حديث قتادة عن ابن عباس ، أو أنهم رووا ما رووه تسرعاً وبدون سند أو إجازة لمجرد سماعهم برواية أولئك الأشخاص لتلك الروايات[3] .

ثم إن هذا النقد لا يكفي وحده ، بل لا بد من نقد متن الحديث من حيث لغته وأسلوبه ومضمونه وروحه ، ومن حيث انطباق بعض الروايات على جوهر القرآن الكريم وما عرف عن الرسول . فبهذا النقد للمتن ، نتمكن من الحكم على إمكان صدور الحديث عن الرسول أو عدمه .

وبعد كلّ ما تقدم ، علينا حصر أمثلة الاختلاف التي ذكرها العلماء ، وضبط كل ما ورد في الأخبار من هذا القبيل ، لنتمكن من الحكم على مقدار ما اختلف فيه وسعته ودرجة موافقته لما جاء في ذلك الحديث وفي تلك الأخبار ، ثم دراسة هذه الكلمات التي قيل انها تمثل لهجات قبائل وانها حرف من هذه الأحرف السبعة المذكورة في الحديث .

لقد لخص (ابن قتيبة) الأحرف السبعة بالأوجه التي يقع بها التغاير :

فأولها : ما تتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : ولا يضار كاتبٌ بفتح الراء وضمها .

---

١ ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله (١٢١) ، النشر (٣١/١ وما بعدها) .
٢ كولدزيهر ، المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن (٣٧) .
٣ تفسير الطبري (٢٣/١) ، (٧٢/٢٥) ، المذاهب الاسلامية (٨١ وما بعدها) .

وثانيها : ما يتغير بالفعل مثل بَعّدَ وباعد ، بلفظ الطلب والماضي .

وثالثها : ما يتغير باللفظ مثل : نُنشزها ونُنْشرها بالراء المهملة .

رابعها : ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل طلح منضود وطلع منضود .

خامسها : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل:وجاءت سكرة الموت بالحق، وجاءت سكرة الحق بالموت .

وسادسها : مـــا يتغير بالزيادة والنقصان ، مثل : وما خلق الذكر والأنثى ، والذكر والأنثى ، بنقص لفظ ما خلق .

سابعها : ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى ، مثل : كالعهن المنفوش،وكالصوف المنفوش[1].

وأجمل (ابن الجزري) الأوجه السبعة بـ :

١ ــ وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو : البخل بأربعة أوجه ، ويحسب بوجهين .

٢ ــ أو بتغير في المعنى فقط نحو : فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ ، برفع آدم ونصب لفظ كلمات وبالعكس .

٣ ــ واما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو : تبلو ، وتتلو .

٤ ــ وعكس ذلك ، نحو بصطة وبسطة ، ونحو الصراط والسراط .

٥ ــ أو بتغيرهما نحو فامضوا ، فاسعوا .

٦ ــ وإما في التقديم والتأخير ، نحو فيقتلون ، ويقتلون ، بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين،وبضمها مع بناء الفعل للمفعول في الكلمة الأخرى .

٧ ــ أو في الزيادة والنقصان .

وقد أوجز (أبو الفضل) الرازي ، الحروف السبعة في :

١ ــ اختلاف الأسماء من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، وتـذكير ، وتأنيث . مثل : والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، قرىء هكـــذا جمعاً ، وقرىء لأمانتهم بالإفراد .

---

١ الزرقاني ، مناهل (١٥٢) .

٢ ــ اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ، ومضارع ، وأمر . مثل: فقالوا : ربَّنا باعد بين أسفارنا ، قرىء هكذا بنصب لفظ ربنا على أنه منادى ، وبلفظ باعد فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام فعل دعاء . وقرىء هكذا: ربُّنا بَعَّد برفع رب على أنه مبتدأ وبلفظ بعَّد ، فعلاً ماضياً مضعف العين جملته خبر .

٣ ــ اختلاف وجوه الإعراب . مثل : ولا يُضارَّ كاتب ولا شهيدٌ . قرىء بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن لا ناهية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة في الراء هي إدغام المثلين . أما الضمّ فعلى أنّ لا نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

٤ ــ الاختلاف بالنقص والزيادة . مثل : وما خلقَ الذكَرَ والأنثى ، قرىء بهذا اللفظ . وقرىء أيضاً والذكَرِ والأنثى ، بنقص كلمة ما خلق .

٥ ــ الاختلاف بالتقديم والتأخير . مثل : وجاءت سكرة الموت بالحق ، وقرىء : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٦ ــ الاختلاف بالإبدال . مثل : وانظر الى العظام كيف ننشزها ، بالزاي، وقرىء ننشرها بالراء . ومثل : وطلح منضود ، بالحاء ، وقرىء طلع بالعين . فلا فرق في هذا الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

٧ ــ اختلاف اللغات ، أي اللهجات ، كالفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم، والإظهار ، والإدغام ونحو ذلك[1] .

ونحن إذا تعمقنا في درس مواضع الاختلاف ، وهي أهم ما يتصل بلهجة القرآن الكريم ، وسجلناها تسجيلاً دقيقاً شاملاً ، نجد أنها ليست في الواقع اختلافاً في أمور جوهرية تتعلق بالوحي ذاته ، وإنما هي في الغالب مسائل ظهرت بعد نزول الوحي من خاصية القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه ، والمميز بين الحروف المتشابهة هو النقط ، وقد ظهر النقط بعد نزول الوحي بأمد كما يقول العلماء ، ثم إنّ هذا القلم كان خالياً في بادىء

---

١ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٤٨ وما بعدها) .

أمره من الحركات ، وخلوّ الكلم من الحركات يحدث مشكلات عديدة في الضبط من حيث إخراج الكلمة ، أي كيفية النطق بهـا ، ومن حيث مواقع الكلم من الإعراب[1] .

كل هذه الأمور وأمور أخرى تعرض لها العلماء ، أحدثت في الغـالب القسم الأعظم مما يعدّ اختلافاً في القراءات .

ويعود القسم الباقي من مواضع الاختلاف الى سبب أراه لا يتعلق أيضـاً بمتن النص ، وإنما هو ، كما يتبين من الإمعان في دراسته ومن تحليل الآيات المختلف فيها ، زيادات وتعليقات من ذهن الحفّاظ والكتّاب على ما أتصور ،لعدم وضوح المعنى لديهم ، لعلها كانت تفسيراً أو شرحاً لبعض الكلم دوّنت مـع الأصل ، فظنت فيما بعد من الأصل . واثبات التفسير مع المتن ، جائز على بعض الروايات[2].

ويعـود قسم آخر منه الى استعمال كلمات قد تكون مخالفة لكلمة من حيث شكلها ، ولكنها متفقة معها في معناها ، والى استعمال كلمات متباينـة في الشكل وفي المعنى . وهذا القسم هو ، ولا شك ، أهم أقسام الاختلاف ، واليه يجب أن توجه الدراسة .

هذه الأمور المذكورة ، تحصر جميع ما ورد من اختلاف في كلمات أو آيات من القرآن الكريم . أما ما ذكره العلماء من الأوجه التفسيرية للحـديث : حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ومن جعلها خمسة وثلاثين وجهاً أو سبعة أوجـه أو أقل من ذلك أو أكـثر[3] ، فإنها تفاسير متأخرة ، وأوجه نظر قيلت لإيجاد مخارج مسوّغة لتفسير هذا الحديث .

ويصعب في هذا الموضع ذكر أمثلة لهذه الأمور ، فهي عديدة كثيرة، ذكرت في كتب المصاحف وفي كتب التفسير ، وأورد شواهـد منها (كولد تزيهر) في كتابه عن (المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن) ،يمكن الاطلاع عليها في الصورة

---

١ الهمداني ، الاكليل (١٢٢/٨) ، المذاهب الاسلامية (٤ وما بعدها) .

٢ « جواز اثبات بعض التفسـير على المصحف ، وان لم يعتقده قرآنا » ، المذاهب الاسلامية (١١ وما بعدها) ، الزرقاني على الموطأ (٢٥٥/١) .

٣ النشر (٢١/١ وما بعدها) ، السيوطي ، اتقان (٧٨/١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٦/١) .

العربية له المطبوعة بمصر[1] . فمن أمثلة الاختلاف الحادث من الخط (تستكبرون) بالباء الموحدة و (تستكْبرون) بالثاء المثلثة في الآية : « ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جَمعُكم ما كنتم تستكبرون»[2]. و (بشراً) أو (نشراً) في الآيـة : « وهو الذي يُرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته »[3] . وكلمة (إياه) في الآية : « وما كان استغفارُ ابراهيم لأبيـه إلا عن مَوعِدة وعَدَها إيـاه » ، إذ وردت أيضاً (أباه) بالباء الموحدة[4] . وأمثال ذلك مما كان سببه النقط .

وبعد ملاحظة ما تقدم ، وحصر كل ما ورد في المصاحف ومـا قرأه القراء من قراءات ، نجد أن ما يختص منه باللهجات وباللغات قليل يمكن تعيينه،ومعظمه مترادفات في مثل : أرشدنا واهدنا ، والعهن والصوف ، وزقية وصيحة ، وهلم وتعال وأقبل ، وعجل وأسرع[5] ، والظالم والفاجر ، وعتى وحتى[6] ، وأمثال ذلك . وهذه الأمثلة هي كلمات مختلفة لفظاً ، ولكنها في معنى واحـد . وهي كما ترى مفردات لا دخل لها في قواعد اللهجات .

وأما الاختلاف في الاظهار ، والإدغام ، والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق ، والمدّ ، والقصر ، والإمالة ، والفتح ، والتحقيق ، والتسهيل ، والإبدال . فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى ؛ لأن هذه الصفات المتنوعـة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً[7] ، وليس هو من قبيل الإختلاف المؤثر في قواعد اللهجة ، إنمـا هو اختلاف في الصور الظاهرة لمخارج حروف الكلمات، فلا يصح أن يعد فارقاً كبيراً يمكن أن يكون حداً يفصل بين اللهجات، بحيث يصيّرها لغة من اللغات،ثم إن بعضه يعود الى الخط ، وبعضه الى التجويد،

---

١ (القاهرة ١٩٤٤ م) ، (علي حسن عبدالقادر) .
٢ الأعراف ، آية ٤٨ .
٣ الأعراف ، آية ٥٧ .
٤ التوبة ، آية ١١٤ .
٥ النشر (١/٢٩ وما بعدها) ، القرطبي (١/١٦) ، السيوطي ، اتقان (١/٧٩ وما بعدها) .
٦ مباني (٩) ، Noldeke, Geschichte, I, 51.
٧ النشر (١/٢٦ وما بعدها) .

أي طريقة التلاوة والأداء[1] .

وللحكم على أصل المترادفات ، تجب مراجعة سلسلة السند للوصول الى صحة تسلسل الأخبار من جهة ، والى معرفة راوي الخبر والقبيلة التي هو منهـا لمعرفة القراءة التي قرأها ، وهل هي من لهجة قبيلته ، أم هي مجرد كلمة من اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم نفسها ، تلقّاها القارىء عـلى الشكل الذي رواها في قراءته .

لقد أشار العلماء الى أمثلـة من كلمات غير قرشية وردت في القرآن الكريم ، ذكروا أنها من لهجات أخرى ، ومنها : الأرائك ، ولا وَزَرَ ، و (حور) ، وأمثال ذلك رجع بعضهم أصولها الى خمسين لهجة من لهجات القبائل ، كما أشاروا الى وجود كلمات معربـة أخذت من لغات أعجمية مثل الرومية ، والفارسية ، والنبطية ، والحبشية ، والسريانية ، والعبرانية وأمثـال ذلك[2] ، وألّفوا في ذلك كتباً ، منها : كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة (٢٢٣ هـ) (٨٣٨ م) ، واسمه : « رسالة في مـا ورد في القرآن من لغات القبائل »[3] ، وكتاب لغات القرآن ، لأبي زيد الأنصاري المتوفى سنة (٢١٤ هـ) (٨٢٩ م)[4] ، وغيرهما . ولكن بحوث هؤلاء العلماء انحصرت في دراسة المفردات ، أي الكلمات لا غير . ثم إن الذين تناولوها لم يكن لهم علم بأكثر اللغات التي رجعوا أصولها اليها ، ولا سيما اللغات الأعجمية مثل الرومية ، والسريانية ، والنبطية ، والحبشية . غير أن من الجائز أن يكون هؤلاء قد سمعوا عنها من الأعاجم الذين دخلوا في الاسلام . ولكن طريقة السماع هذه لا تكفي لإعطاء حكم على أصل لغة ، بـل لا بد من وجود عـلم ومعرفة بقواعد تلك اللغة وتأريخها وتطورها ، والإحاطة بالعلاقات التأريخية بين العرب وغيرهم قبل الإسلام لمعرفة كيفية دخول تلك الكلمات الى العرب ، وإيجاد وجـه صحيح للمقارنة بين اللغتين . وهذا ما لم يحدث في تلك الأيام .

---

١ راجع بعض الامثلة في (ص ٧) من كتاب المصاحف : للسجستاني « تحقيق آرثر جفري » ، (القاهرة ١٩٣٦ م) .

٢ السيوطي ، اتقان (١/٢٢٩ وما بعدها) .

٣ طبع مع كتاب الديريني المسمى (التيسـير في علم التفسـير) ، في القاهرة سنة ١٩١٠ هـ ، ومع تفسير الجلالين المطبوع في القاهرة كذلك سنة ١٣٥٦ هـ .

٤ الفهرست (٥٥) .

ولمّا كانت قراءة عبدالله بن مسعود من القراءات المشهورة المعروفة ، وكان عبدالله بن مسعود من قبيلة هُذيل[1] ، وجب علينا البحث في لهجة هذيل لمعرفة خصائصها ومميزاتها وما انفردت به عن غيرها من اللهجات . وهذيل من القبائل التي عرفت بجودة لهجتها ، في تدوين القرآن الكريم[2] . ولذلك رأى الخليفة عثمان أن يكون المملي من هذيل والكاتب من ثقيف . وقد ذكرت لهجتها في جملة اللهجات التي نص عليها في الحديث المذكور على نحو ما أشرت اليه ، كما أخرجت عدداً من الشعراء جمع بعض العلماء أشعارهم في ديوان ، وقد طبع في القاهرة ديوان شعراء هذيل[3] . ويفيدنا شعر هؤلاء الشعراء بالطبع في الوقوف على لهجة هذه القبيلة . ولكن هذا الشعر هو مثل شعر سائر الشعراء الجاهليين الآخرين ، مصقول مهذب ، هذّب على وفق قواعد اللغة العربية التي ضبطت في الإسلام ، ثم هو مضبوط برواية رواة هم في الأغلب من غير هذيل . ولهذا قلما نجد في شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم ما يختلف عن قواعد اللهجة العربية ، حتى أننا لا نستطيع في هذه الحالة أن ندعي ان هذا الشعر هو بلهجة هذيل . وقد حرمنا العقلُ الوقوفَ على لهجات القبائل التي أخرجت أولئك الشعراء ومعرفة مؤثراتها في شعر أولئك الشعراء .

ومن أهم الأمثلة التي أوردها العلماء في قراءة (ابن عباس) مما له علاقة باللهجات ، قراءته كلمة (حتى) (عتى) في الآية : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين »[4] . وقد ذكر المفسرون وعلماء اللغة أن هذه القراءة هي بلهجة هذيل[5] ، وأن (عتى) هي (حتى) عند هذه القبيلة ؛ ذلك لأن هذه القبيلة تستعمل حرف العين بدلاً من الحاء في لهجتها[6] . ولم يشر

---

١ طبقات ابن سعد (١/١٥) ، (٣/١٠٥) ، عيون الاخبار (٣٧٣) .
Ency., 2, 403, Goldziher, Vorlessungen, S., 65.

٢ الصاحبي (٢٨) ، « وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف . وقال عثمان : اجعلوا المملى من هذيل ، والكاتب من ثقيف » ، Rabin, p. 79.

٣ الخصائص (١/١٣٠) ، ديوان الهذليين : القاهرة ١٩٤٥ ، مطبعة دار الكتب المصرية .

٤ سورة يوسف الرقم ١٢ ، آية ٣٥ .

٥ البيضاوي (١/٤٦٠) ، ابن مالك ، التسهيل (٥٧) .

٦ المزهر (١/١٣٣) ، (١/٢٢٢) ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الباب الحادي عشر) ، Rabin, p. 84.

العلماء الى موضع أخرى استعمل (ابن مسعود) فيها كلمة (عـتّى) في موضع (حتّى) الواردة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما أننا لم نجد في كتب اللغة المتقدمة إشارة الى استبدال هذيل حرف العين بحرف الحاء. ونظرية (فحفحة) هـذيل ، رأي متأخر لم يقرن بأدلة وأمثلة ، فهو رأي لا يمكن الأخذ به[1] .
وأظن أن هذه القراءة المنسوبة الى (ابن مسعود) ، هي من القراءات المتولدة من حدوث اشتباه في القراءة ، من جراء عدم حصول التمييز بين (العين) و(الحاء) في (حتّى) . ووقوع الاشتباه بين الحرفين في ابتداء الكلمات ، أمر ليس بصعب، وإلا فلِمَ انفرد ابن مسعود في هذا الموضع فقط ، باستعمال (عتّى) ، ولم يستعملها في المواضع الأخرى وهي كثيرة في القرآن الكريم ؟

نعم ، لقد ورد في روايات ان ابن مسعود قرأ (نحم) بدلاً من (نعم) في القرآن الكريم[2] ، وأنه قرأ (بُحثِرَ) عوضاً عن (بُعثِرَ)[3] . وهذه الروايات تناقض الروايات السابقة التي تزعم أنه قرأ (عتّى) في موضع (حتّى) في الآية المذكورة،إذ نجده في هذه الروايات يقرأ (العين) حاءً ، أي عكس تلك القراءة المنسوبة اليه . ثم إنّ المفسرين وعلمـاء القراءات ، لم يشيروا الى قراءات أخرى له من هذا النوع قلب فيهـا حرف العين حاءً مع تعدّد ورود حرف العين في القرآن الكريم .

وهناك روايات تفيد أن أسداً وتميماً استعملوا حرف الحاء في موضع العين في بعض الحالات ، فقالوا : (مَحَهُمْ) بدلاً (معَهُم) و (ألأحهد) في موضع (ألأعهد)[4] . ولكنها لم تشر الى أمثلة أخرى من هـذا القبيل . وهذان المثالان لا يكفيان بالطبع لإعطاء حكم في هذا الإبدال عند القبيلتين . ولكن هنالك رواية متأخرة لا نعرف مرجعها تفيد أن هذا الإبدال واقع في لهجة سعد بن بكر، وهي قبيلة تقع مواطنها في شمالي المدينة[5] . ولكن ما صلة ابن مسعود بهذه القبيلة وهو

---

١ Rabin, p. 85.

٢ المغني (٢/٢٥) .

٣ « أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور » ، العاديات ، الرقم ١٠٠ ، الآية ٩ ، Rabin, p. 85. Beck, in Orientalia, vol., XV, 182.

٤ Rabin, p. 85.

٥ المصدر نفسه .

obeikandl.com

من هذيل ؟ هل نفترض أنه أخذ قراءته تلك من أفواه رجال هذه القبيلة ؟ إذا أخذنا بهذا الظنّ ، وجب علينا اثبات ذلك بدليل ، وذكر أسماء الصحابة الذين أخذ ابن مسعود منهم قراءته . ويجب حينئذ رَجعُ تلك القراءة الى أولئك الصحابة لا الى ابن مسعود . والواقع أننا لا نستطيع أبداً الاتيان بدليلٍ ما يثبت استعمال هذيل حرف العين في كلامها في موضع الحاء وبالعكس .

ورأيي أن ما نسب الى ابن مسعود في هذه القراءة أو القراءات الثلاث، سببه وهمٌ وقع فيه مَنْ نسب تلك القراءة إليه، وهو ناتج من كتابة المصحف المنسوب إليه . وإلا ، فلا يعقل أن يقتصر ابن مسعود على هذه القراءة أو القراءات التي هي ليست من لهجة أهل مكة ولا أهل يثرب ولا هذيل ، ثم يترك سائر المواضع. ولا يعقل كذلك تلفظ الرسول بهذه اللهجة الشاذة التي لا نعرف من كان يستعملها على وجه ثابت ، وقد نزل القرآن بأفصح اللهجات .

والى أمثال هذه القراءات الشاذة ، التي يجب نقدها وتمحيصها بعناية ، استند (كارل فولرس) في نظريته القائلة بحدوث تغيير في نص القرآن الكريم . وهي نظرية لم يُقرّها عليه بعض كبار المستشرقين . ولو فحصت ودققت ، لتبين أنها بنيت على روايات لا تثبت أمام التمحيص ، أخذها لمجرد ورودها في الكتب ؛ ولكن ليس كل ما يرد في الكتب بأمر مسلم به .

وقد بحث العلماء في اللغات التي وقعت في القرآن بغير لغة قريش ، وفي جملتها لغة حمير ، ورجعت الى بحوثهم ، فوجدت أن ما نسب الى الحميرية من كلمات، لا يحمل طابع الحميرية ، وليس من لغة العرب الجنوبيين بشيء . وقل مثل ذلك عن لغة (جرهم) ، فقد دوّنوا ألفاظاً زعموا أنها وردت بلغة (جرهم) ، ونحن نعلم من أقوال أهل الأخبار أنفسهم أن (جرهماً) كانوا من الشعوب العربية البائدة التي هلكت قبل الاسلام بزمن طويل . وقد ماتت لغتهم معهم بالطبع ، فكيف تمكن العلماء من تشخيص هذه الألفاظ ومن إرجاعها الى جرهم ؟ وقد وجدت أيضاً ان ما ذكروه من أمثلة أخرى على لغات القبائل التي وردت ألسنتها في القرآن هو من هذا القبيل ، ولا سيما القبائل الهالكة مثل (مدين) ، فالعلماء الذين شخصوا تلك اللهجات التي زعموا أنها وردت في القرآن، يذكرون أن بعض أصحاب هذه اللهجات هم من العرب البائدة ، فهم ممن ماتوا وبادوا ، وماتت

لغتهم بموتهم ، فما يذكرونه من ألفاظ لغاتهم الواردة في القرآن ، هو مما لا أصل له إذن . ثم إنهم نسبوا ألفاظاً الى (حمير) ، وجدنا أنها ليست حميرية أبداً ، أضف الى ذلك أنهم لم يدرسوا العربيات الجاهلية دراسة علمية ، ولم يكن لهم علم بها ، ولهذا فما ثبتوه ودوّنوه عن اللغات العربية في القرآن ، لا يمكن الأخذ به ، لأنه لا يستند على علم بالموضوع ، ولا على دراسات لتلك اللهجات .

ومن أمثلة ما ذكروه على أنه من لسان (حمير) ، الأراثك ، ولا وزر ، بمعنى لا جبل ، وحور ، ولهو ، بمعنى المرأة ، ولا تفشلا ، وعثر ، وسفاهة ، وزيلنا ، ومرجواً ، وإمام وغير ذلك[1] ، وذكروا أن (باءوا) ، وشقاق ، وخيراً وكدأب ، وأراذلنا ، ولفيفاً ، وغير ذلك من لغة جرهم[2] ، وهي كلها من تخرصات من نسبها الى جرهم ، لما قالوه أنفسهم من هلاك جرهم قبل الاسلام بزمان طويل ، فمن أبلغهم اذن أن هذه الألفاظ من ألفاظ جرهم ، ولِمَ نزلت في القرآن ، وقد نزل الوحي للأحياء وليس للأموات !

وقد ذهب البعض مذهباً بعيداً في اللغات الواردة في القرآن ، فذهب الى أن (غساق) ، بمعنى المنتن بلسان الترك ، وهو بالطخارية[3] ، وأن (سيدها) زوجها بلسان القبط ، وأن (الأراثك) بالحبشية ، وأن (سبحى) بلسان الحبشة ، وأن (الجبت) الشيطان بلغة الحبش ، وأن (حرم) بمعنى وجب بالحبشية ، وأن (سكر) ، بمعنى الخلّ بلغة الأحباش ، وأن (سينين) بمعنى الحسن بلسان الحبشة ، وأن (شطر) حبشية ، وان (العرم) حبشية ، وأن قنطار بلسان أهل إفريقية ، الى غير ذلك من ألفاظ[4] .

ونجد رواية تذكر أن الصحابة لما تشاوروا في أمر تسمية القرآن ، ما يسمونه؟ « فقال بعضهم : سموه السفر ، قال ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوه ، فقال رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف ، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف»[5] ، فجعلوا اللفظة حبشية .

---

١ المزهر (٢/٩٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٩٥ وما بعدها) .
٣ الاتقان (٢/١١٥) .
٤ الاتقان (٢/١٠٩ وما بعدها) .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٦٦) .

ولو درسنا الألفاظ المعربة المذكورة ، نجد أن العلماء قد أخطأوا في تشخيصها وخلطوا في الغالب بين أصولها ، بسبب أنهم لم يكونوا يحسنون اللغات الأعجمية، ما عدا الفارسية ، وأنهم لم يراجعوا أهل العلم والتخصص في اللغات الأعجمية ، من رجال الدين من أهل الكتاب ، أو المتبحرين بالأدب من الروم والسريان ، بل اكتفوا بمراجعة أياً كان ممن كانوا يعرفونهم من نصارى ويهود ، وحيث أنه لم يكن لدى هؤلاء علم المتبحرين في الدين والأدب ، جاءت أجوبتهم فجّة أو مغلوطة ، ودوّنت على هذه الصورة .

ونظراً لعدم وقوف العلماء على اللغات العربية الجنوبية ، جعلوا ألفاظاً عربية واردة في القرآن مثل (العرم) لفظة حبشية[1] ، مع أنها لفظة عربية جنوبية ، مدوّنة في النصوص ، وجعلوا ألفاظاً أخرى من هذا القبيل ، من الألفاظ المعربة عن لغات أعجمية .

وقد اتخذ بعض العلماء حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف دليلاً على نزول القرآن بلغة قريش ، فقد قالوا : إن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن واقعة كلها في لغة قريش ، ذلك أن قريشاً كان قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها، وأيامها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ، ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هذبوه وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة ، وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة اليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم ، ومن هنا شاءت الحكمة أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأفق ، وأن يطل عليهم من سماء قريش[2] .

وهو استنتاج غير مقنع ، لما أورده العلماء أنفسهم من أقوال وتفسير للحديث المذكور ، ولما أوردوه من أن الصحابة من قريش ، كان يشكل عليهم اللفظ من القرآن مثل (أبا) فيسألون عنه ، لأنه لم يكن من لغة قريش . فقد ذكروا أن (عمر) ، قرأ (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية : وفاكهة وأبّا، فقال : قد علمنا الفاكهة فما الأبّ . ثم قال : لعمرك يا ابن الخطّاب ان هذا

---

١ الاتقان (٢/١٠٩) .
٢ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨٣) .

لهو التكلف . وذهب البعض الى أن المراد من اللفظة ما أنبتت الأرض للأنعام ، وذكر بعض العلماء أنها بلغة الحبش[1] . وذكروا أشياء أخرى من هـذا القبيل ، تعارض قبول هذا الاستنتاج .

والذي أراه أن نص القرآن يعارض حديث الأحرف السبعة ، ففيه : « بـل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ »[2] ، وفيه : « قل : ما يكون لي أن أبدّلـه من تلقاء نفسي ، إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ، اني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم »[3] وفيه « إنّا نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . فليس للرسول أن يغير أو يبدل ما نزل به الوحي عليه ، ثم إنه كان لا ينتهي من الوحي ، حتى يأمر من يكون عنده بتدوينه بلسانه حال نزوله عليه ، وإذا لم يكن هناك كاتب أمر من يستدعي له كاتباً ليدونه ، فكيف يتفق ذلك مع هذا الحديث ، ومـع الأمثلة التي ذكروها في القراءات ؟ ورد أن الرسول علم (البراء بن عازب) دُعاء فيه : « ونبيك الذي أرسلت » ، فلما أراد البرّاء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله قال : « ورسولك الذي أرسلت » ، فلم يوافقه النبي على ذلك، بل قال له: « لا ، ونبيك الذي أرسلت » . وهكذا نهاه أن يضع لفظة رسول، موضع لفظة نبيّ ، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى ، إذ هو رسول ونبي معاً، فكيف كان يُجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحـيم ، أو سميع عليم ، وكيف نقبل هذه الرواية التي تذكر أن (عبدالله بن مسعود) أقرأ رجلاً كلمة (الفاجر) بدلاً من كلمة الأثيم في الآية : إن شجرة الزقوم طعام الأثيم[4] ، مع ورود المنع عن تغيير أي حرف من حروف القرآن ، وهـل يعقل قيام (ابن مسعود) بذلك ، وسكوت الصحابة عن عمله ، لو صحّ أنه فعل ذلك .

ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش وحدها ، فلمَ كان الصحابة مـن قريش مثل (أبو بكر) و (عمر) وغيرهما ، يتحيرون في تفسير ألفاظ وردت فيه، أو يلجأون الى الشعر يستعينون به في تفسير القرآن ، والشعر هـو شعر العرب ، لا شعر قريش وحدها . قال (ابن عباس) « إن الشعر ديوان العرب »، وكان

---

١ عبس ، الآية ٣١ ، تفسير الطبري (٣٠/٣٨) ، الاتقان (٢/١٠٨) .
٢ البروج ، ٨٥ ، الآية ٢٢ .
٣ يونس ، ١٠ ، الآية ١٥ .
٤ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨١ وما بعدها) .

إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر[1] ، وقال : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ، فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً »[2] .

قال (ابن قتيبة) : « العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قول الله عزّ وجلّ : وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم[3] ... ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله : إنك اتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً . فقال : إن ربي علمني فتعلمت » .

---

١ مقدمتان في علوم القرآن (١٩٨ وما بعدها) .

٢ العمدة (١/٣٠) .

٣ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية .

obeikandl.com

الفصل التاسع والثلاثون بعد المئة

العربية الفصحى

نطلق اليوم على العربية التي ندوّن بها أفكارنا : (العربية الفصحى) ، وهي كما نعلم لغة الفكر والإدارة في العالم العربي . والعربية الفصحى ، هي لغة الفصاحة والبيان ، ومدار تركيب الفصاحة على الظهور والإبانة . يقال : أفصح إذا تكلم بالفصاحة . وفصح الأعجمي فصاحة ، إذا تكلم العربية وفهم منه[1] . وهي اللغة العربية العالية التي لا تدانيها لغة عربية أخرى من اللغات العربية الباقية ، واللسان الذي يحاول أن ينطق به كل مثقف مهذب ، وأن يؤلف ويعبر عن مراده به .

وعرفت العربية الفصيحة بالعربية العالية ، وكان علماء اللغة إذا وسموا كلمة بسمة الفصاحة ، قالوا : كلمة فصيحة ، وكلمة عالية ، وإذا وسموها بالضعف وبالركاكة، قالوا : ليست بعربية فصيحة ، أو ليست بالعالية . «قال ابن سيده: أشكد لغة ليست بالعالية »[2] . وقالوا في (لغة رديئة) ، وقالوا : « وهي لغة أهل العالية »[3] . « والعالية ما فوق أرض نجد الى تهامة والى ما وراء مكة ، وهي الحجاز وما والاها .. وقيل عالية الحجاز ، أعلاها بلداً وأشرفها موضعاً وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعالية : قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالي ،

---

١ تاج العروس (٢/١٩٧) ، (فصح) .
٢ تاج العروس (٢/٣٩٠) ، (شكد) .
٣ تاج العروس (٢/٢٢٨) ، (ملح) .

وأدناها من المدينة على أربعة أميال وأبعدها من جهة نجد ثمانية ، والنسبة اليهـا عالي على القياس ، ويقال أيضاً علوي بالضم ، وهي نادرة على غير قياس »[1] . وعرفت هذه العربية العالية بالعربية المبينة ، دعيت بذلك ، لأن (اسماعيل) أول من فتق لسانه بها ، فأبان وأفصح[2] ، وأرى أنها إنما نعتت بذلك ، من القرآن الكريم ، ففيـه « بلسان عربي مبين »[3] ، و « هذا لسان عربي مبين »[4] . وقصد العلماء من قولهم : « ليست بالعالية » ، بمعنى ليست بفصيحة ،ولم يقصدوا النسبة الى (العالية) التي هي الأرض المذكورة . غير أننا نجدهم أحياناً يقصدون بها أهل العاليـة ، فنرى (الطبري) يذكر في تفسيره في قراءة « فيسحتكم » : « والقول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب . غير أن الفتح فيها أعجب إليّ ، لأنها لغة أهـل العالية . وهي أفصح ، والأخرى وهي الضم في نجد »[5] . والعالية ما فوق أرض نجد الى أرض تهامـة والى ما وراء مكة . وهي الحجاز وما والاها « وقيل : عالية الحجاز أعلاها بلداً وأشرفها موضعاً ، وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعالية قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالي » . « وعليـا مضر بالضم أعلاها ، وقيل قريش وقيس ، وما عداهم سفلى مضر »[6] .

ونجد علماء العربية يستعملون مصطلح : « وليس بالعـالي » ، أو « ليس في اللغة العاليـة » ، و « الفصيح ... » ، أو « والفصحاء يقولون »[7] ، في تقييم الكلم ، كما استعملوا : « وليس بالمعروف » ، أو « والأول أعلى » ، و « لغة مجهولة » ، أو « متروكـة » ، أو و « يحتمل أن يكون من أمثلة المنكر » ، و « كلام قـديم قد ترك » ، و « وهذا لا يعرف في أصل اللغـة » ، أو و « المعروف »[8] ، وأمثال ذلك من مصطلحات للتعبير عن درجة الكلمة ومكانتها

---

١ تاج العروس (١٠ /٢٥٠) ، (علا) .
٢ المزهر (١/٨١) .
٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٥ تفسير الطبري (١٦/١٣٦) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٥٠ وما بعدها) ، (علو) .
٧ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .
٨ المزهر (١/٢١٤ وما بعدها) .

في مقاييس علماء اللغة من حيث الفصاحة والركاكة وما بينهما من درجات. والفصيح في نظر علماء العربية « ما كثر استعماله في ألسنة العرب ودار في أكثر لغاتهم ، لأن تكراره على الألسنة المستقلة بطبيعتها في سياسة المنطق دليلٌ على تحقيق المناسبة الفطرية فيه »[1] .

ويسوقنا البحث في موضوع اللغة العربية الفصحى الى التفكير في موضوع لـه صلة وثيقة بهذا الموضوع ، بل هو في الواقع جزء منه ، هو : لغة الأدب عند الجاهليين ، وهـل كان لأهل الجاهلية لسان عربي واحد مبين ، استعملوه في التعبير عن عواطفهم شعراً أو نثراً ؟ وإذا كان لهم ذلك اللسان ، فهل كان فوق سائر لهجاتهم المحلية أو لهجات القبائل المتعددة ؟ أو أنه كان لهجة خاصة ؟ واذا كان لهجة عالية خاصة ، فلهجة من يا ترى كانت هذه اللهجـة ؟ وبأي موطن ولدت ؟ وهل كانت لهجة عامة مستعملة عند العرب عامة ، من عرب جنوبيين وعرب شماليين ، أو أنهـا كانت لهجة خاصة بالعرب الشماليين ؟ ثم هل كانت هذه اللهجة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أم كانت عربية أخرى لا صلة لها بها ؟ أماتها الإسلام كما أمات أموراً من أمور الجاهلية ، لصلتها بالوثنية، وأحلّ محلها لغة القرآن ، لغة قريش ؟ ثم هل كانت هذه العربية ، هي عربية الشعر ، بمعنى أن الشعراء كـانوا إذا أرادوا النظم ، نظموا شعرهم بهذه اللغة العالية ، متجاهلين لغتهم القبلية ، لأنها لغة الأدب الرفيع ، وبها كان يخطب الخطباء ؟

لقد عُني عدد من المستشرقين بالإجابة عن أمثال هذه الأسئلة ،فكتب (نولدكه) ، رأيه في الموضوع في كتابه : تأريخ القرآن في باب القراءات واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم ، كما تطرق اليه أيضاً في أثناء كلامه على الشعر الجاهلي ولغـة الأدب عند الجاهليين ، وخلاصة رأيه أن الفروق بين اللهجات في الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات لم تكن كبيرة ، وأن اللهجة الفصيحة شملت جميع هذه اللهجات[2] . وذهب (غويدي) الى أن اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها ، ولكنها لم تكن لهجة معينة لقبيلة معينة[3].

---

١ المزهر (١/١٢٦) .

٢ Nöldeke, Geschichte des Korans, Zweite Auflage, Erste Teil, S., 42, Neue Beiträge zur Semitischen sprachwissenschaft, Strassburg, 1910, S. I - 14.

٣ Guidi, Mix. Ling., Torino, 1901, p. 323.

ورأى (نلينو) ، أن العربيـــة الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت في مملكة كندة وفي أيامها ، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة . وعزا سبب ذلك الى ملوك هذه المملكة الذين أغدقوا على الشعراء وشجعوهم مما كان له وقع في نفوسهم ، ثم الى توسع رقعة هذه المملكة التي ضمت أكثر قبائل معدّ،وكان لها فضل توحيـــد تلك القبائل وجمع شتاتها ، فشاعت هذه اللهجة على رأيه في منتصف القرن السادس للميـــلاد ، وخرجت خارج نجد ، وعمّت معظم أنحاء الجزيرة ولا سيما القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يثرب ومكة والطائف ، مع بقاء اللهجات العامية في منطق الناس المعتاد ، وكان للعواصم المشهورة وللملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر في هذا الانتشار السريع العجيب[1] .

وذهب (هـــارتمن) « Hartmann » و (فولرس) « Vollers » الى أن العربية الفصحى هي لهجة أعراب نجد واليمامة ، غير أن الشعراء أدخلوا عليهـــا تغييرات متعددة[2] . وذهب (لندبرك) « Landburg » الى أن الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هـــذه اللهجة ، وعلى قواعدهم سار المتأخرون ، ومـــن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول النحو .

وزعم (فولرس) ، أن القرآن لم ينزل بلغة أعراب نجد واليمامة ، وإنما نزل بلغة أهل مكة ، أي لغة قريش ، وهي لغة لم تكن معربة ، وإنما كانت لغـــة محليـــة ، فلما دوّنت قواعد العربية وثبتت طبق الاعراب على القرآن ، وصقلت لغة قريش وفقاً لهذه القواعد .

ولم يعين (فيشر) اللهجة التي نبعت منها العربية الفصحى ، غـــير أنه رأى أنها لهجة خاصة[3] . ولـ (بروكلمن) و (ويتزشتاين) آراء في نشوء هذه اللغة وتطورها ، ولكنهما لم يتحدثا عن علاقتها ببقية اللهجات[4] .

ذهب (بروكلمن) الى أن لغة الشعر الجاهلي لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء

---

١ الهلال ، السنة السادسة والعشرون ، اكتوبر ١٩١٧ ، (ص ٤٧ وما بعدها) ، جواد علي ، في كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .

٢ Völlers, Völkssprache, S., 184.

٣ Rabin, p. 17.

٤ Rabin, p. 17.

اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة ، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غذتها جميع اللهجات[1] .

وذهب (برجيه) الى أن العربية كانت لهجة قبلية صغيرة وصلت في وقت من الأوقات بفضل ظروف محلية الى درجة من الكمال خارقة للعادة ، وهي مدينة بانتشارها الى الاسلام[2] .

و (ريجيس بلاشير) من المستشرقين الذين أيدوا رأي من ذهب الى وجود لغة عالية عند أهل الجاهلية ، فقال : « إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شيء مخالف للعادة ، كما أن نموّ لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خارق»[3] . واللغة المذكورة لهجة شعرية تنطبق على اللهجات المحلية ، بل هي امتداد لها ، « وهي في الجملة موضوعة للأغراض النبيلة والتعبير الفني عن بعض أنواع التفكير» ، لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها ، ولم تكن هذه اللهجة العالية قاصرة في الاستعمال على أهل جزيرة العرب ، بل كانت لغة الشعر أيضاً عند عرب العراق وعرب بلاد الشأم . ولهذا كان الشعر مفهوماً عند جميع الجاهليين، أينما كانوا : سواء كانوا في جزيرة العرب ، أم في العراق وفي بلاد الشأم . وكانت الفوارق بين هذه اللهجة وبقية اللهجات تختلف تبعاً للمجموعات اللغوية . فالفارق ضئيل بينها وبين لهجات أواسط جزيرة العرب وشرقيها ، ولها خصائص الأقسام الشرقية والوسطى من جزيرة العرب . وكان الشاعر ، ينزع دوماً الى الابتعاد عن مؤثرات لهجته القبلية ، والارتفاع عنها ، الى لغة الشعر المتعارفة بين الجاهليين آنذاك ، لكونها اللغة الرفيعة في نظر أهل الجاهلية ، وكانت تدل على تهذيب الشاعر وسمو مداركه وثقافته[4] .

ويرى (بلاشير) أن علماء اللغة والنحو حين أخذوا بضبط قواعد اللغة ، غربلوا اللهجات ، وتوغلوا بين الأعراب مدفوعين بعقلية تنهيج وتنقية اللغة مما أدى بهم

---

١ بروكلمن ، تأريخ الأدب العربي (١/٤٢) .

٢ ريجيس بلاشير ، تأريخ الأدب العربي (٨٦) .

٣ تأريخ الأدب العربي (٨٨) ، (تعريب ابراهيم كيلاني) .

٤ ريجيس بلاشير ، تأريخ الأدب العربي (٨٧ وما بعدها) .

الى توحيد لغتي القرآن والشعر الجاهلي ، في الوقت الذي نظموا فيه واستخرجوا قواعد العربية الفصحى ، مما أدى الى إضاعة أشياء قليلة من اللهجة الشعرية الجاهلية في سبيل التوفيق بينها وبين لغة القرآن . وما العربية الفصحى الحالية إلا لهجة ولدت من لغة الشعر ولغة القرآن ، والقرآن والشعر الجاهلي المضبوط في شكله الحاضر لا يمثلان اللغة الشعرية في شكلها القديم ، وانما يبتعدان بعض الابتعاد عن تلك اللهجة ، بسبب ما فعله علماء النحو والصرف ، في تلك اللهجة من تشذيب وتهذيب لتلتئم مع لغة القرآن ومع قواعدها وقواعد لغة الشعر التي رسخها علماء اللغة .

وأما رأي علماء العربية ، فخلاصته أن لغة قريش هي الأصل ، « وانما صارت لغتهم الأصل ، لأن العربية أصلها اسماعيل عليه السلام ، وكان مسكنه مكة »[1]. وعندهم ان العربية قحطانية وحميرية وعربية محضة ، وبهذه الأخيرة نزل القرآن ، وقد انفتق بها لسان اسماعيل[2] ، وهي العربية الفصحى ، لسان اسماعيل ، ألهم بها اسماعيل إلهاماً[3] . رووا عن (عمر) انه قال : « يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : كانت لغةُ اسماعيل قد دَرست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتهـا »[4] . وهم يقولون إن : « أول من تكلم بالعربية اسماعيل بن ابراهيم » ، أو ان « أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه اسماعيل بن ابراهيم » ، بل تجاوز بعض منهم ، وبالغ حتى زعم أن «العرب كلها ولد اسماعيل ، إلا حمير وبقايا جرهم » ، وأن العربية الصحيحة الفصيحة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أما لسان حمير وأقاصي اليمن ، فليس « بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[5] .

ورأيهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأنقاهم لساناً ، « وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/ ٨٠) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/ ٨٠) .
٣ المزهر (١/ ٣٢ وما بعدها) .
٤ المزهر (١/ ٣٤ وما بعدها) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٤ وما بعدها) .

حُجّاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم ، وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لُغاتها ؛ ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم؛فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ؛ فصاروا بذلك أفصح العرب .

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عَنعَنة تميم،ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا كَسْر أسد وقيس »[1] .

« وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عمّا في النفس »[2] . وقال ابن خلدون : كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[3] .

وروي أن (معاوية) قال يوماً : « من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن عنعنة تميم ؛ وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش »[4] . وقال (ثعلب) : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبّة ، وتلتلة بهراء »[5] . وورد كلام (معاوية) مع الأعرابي على هذه الصورة : أن (معاوية) « قال : أي الناس أفصح ؟ فقام رجل فقال : قوم ارتفعوا عن فراتية العراق،

---

١ المزهر (٢٠٩/١ وما بعدها) ، (الفصل الثاني في معرفة الفصيح من العرب) ، الصاحبي في فقه اللغة (٥٢) ، (تحقيق مصطفى الشويمي) .

٢ المزهر (٢١١/١) .

٣ ابن خلدون ، مقدمة (٤٠٩) ، « الفصل الثاني والثلاثون من الفصل السادس » .

٤ البيان والتبيين (٢١٣/٣) .

٥ مجالس ثعلب (٨١) ، المزهر (٢١١/١) ، ابن جني ، الخصائص (٤١١) ، الصاحبي (٤٤) ، الخزانة (٥٩٥/٤ وما بعدها) .

وروي : لخلخانية العراق ، وتياسروا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن كسكسة تميم ، ليست فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال: قومك قريش . قال : صدقت . ممن أنت ؟ قال : من جرم »[1] . واللخلخانية اللكنة في الكلام ، والغمغمة : ألا يبين الكلام ، والطمطمانية : العجمة . « قال الأصمعي : وجرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم من اليمن ؟ فقال : لجوارهم مضر »[2] فمضر هم أهل الفصاحة على رأيه .

ورووا « عن أبي بكر الصدّيق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة . وقال قتادة : كانت قريش تجتبي ، أي تختار أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتها لغتها ، فنزل القرآن بها »[3] .

وقد استدلوا نزول القرآن بلغة قريش بأدلة أخرى ، منها قول عمر: «لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »[4] .

وزعموا ان العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً ، فقدم علقمة بن عبدة التميمي،فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمط الدهر »[5] . فما كان علقمة ولا غيره ليكلف نفسه مشقة الذهاب الى قريش ، والى سوق عكاظ ، لو لم تكن لغتها أفصح لغات العرب وأعذبها وأسلسها ، ولو لم يكن لها علم بالشعر يفوق علم غيرها به .

وزعموا أيضاً أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى ، وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى

---

١ الفائق (٢/٤٥٩) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) ، (طبعة دار صادر) ، تاج العروس (١/٣٧٤) ، (عرب) .
٤ الصاحبي (٥٧ وما بعدها) .
٥ الأغاني (١٢/١١٢) .

ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب. وقال « أبو عمرو بن العلاء: كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش[1]. وكان العرب يعلقون أشعارهم بأركان الكعبة ، كما فعل أصحاب المعلقات السبع، وانما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وبعصبيته ومكانه في مضر[2] .

فقريش أفصح العرب ، ومعدن الفصاحة ومركزها وينبوعها ، ثم من جاورهم وقاربهم ، ثم من جاء بعد هؤلاء ، فكلما بعد قوم عن قريش ، بعدت لغتهم عن الفصاحة ، ولهذا كان احتجاج علماء اللغة بلغات العرب على نسبة بعدهم عن قريش ، « فاعتبروا لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف ، وهذيل ، وخزاعة ، وبني كنانة ، وغطفان ، وبني أسد ، وبني تميم . ثم تركوا الأخذ عمن بعُد عنهم من ربيعة، ولخم ، وجذام ، وغسان ، وإياد ، وقضاعة ، وعرب اليمن ، لمجاورتهم الفرسَ ، والروم ، والحبشة »[3] .

وأما رأي المحدثين من علماء العربية عندنا ، فهو رأي الموافق المؤيد . هذا الدكتور (طه حسين) يقول في كتابه : (في الأدب الجاهلي) : « أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش ، فما نرى أنه يحتمل شكاً أو جدلاً ؛ فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام ، واتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن القرآن نزل بلغة قريش ، أو قل على ان هذا الحرف الذي بقي لنا من الأحرف السبعة إنما هو حرف قريش.وقد يكون من التكلف والتحذلق أن يجمع العرب كافة على أن لغة القرآن هي لغة قريش . وألاّ يظهر في العصر الاسلامي الأول ولا في أيام بني أمية ولا في أيام بني العباس من ينكر هذا أو يجادل فيه رغم ما كان من الشعوبية الأعجمية ومن الشعوبية الحميرية ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر ، ثم يزعم زاعم أن هذه

---

١ خزانة الأدب (١/٨٧) .

٢ مقدمة ابن خلدون (١/٥٠٩) ، (١١٥) .

٣ الرافعي (١/٢٥٩) .

اللغة ليست لغة قريش ، وإنما هي لغة قبيلة أخرى مهما تكن هذه القبيلة »[1] .

ثم يمضي قائلاً : « فنحن مضطرون أمام هذا الاجماع من جهة ، وأمام قرشية النبي من جهة أخرى ، وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة ،وأمام فهم قريش للفظ القرآن في غير مشقة ولا عنف من جهة رابعة ، وأمام اتفاق القرآن في اللغة واللهجة مع ما صح من حديث النبي القرشي ومن الرواية عن أصحابه القرشيين من جهة خامسة ، الى أن نسلم بأن لغة القرآن انما هي لغة قريش .

ستقول : ولكن هذه اللغة قد كانت تفهم في غير قريش من قبائل الحجاز ونجد ، ومن هذه القبائل المضري كقيس وتميم ، ومنها اليمني كخزاعة والأوس والخزرج ، بل منها قبائل لم تكن عربية بوجه من الوجوه وهي هذه اليهودية التي كانت تستعمر شمال الحجاز . ولكنك تعرف رأينا في النسب وفي انتماء هذه القبائل الى اليمن أو الى مضر . ومع هذا فقد قلنا إن لغة قريش سادت قبيل الاسلام . ونحن إن فكرنا عرفنا ان سيادة اللغات انما تتصل عادة بالسيادة السياسية والاقتصادية . فلنبحث عن البيئات الممتازة من الوجهة السياسية والاقتصادية في شمال البلاد العربية قبيل الاسلام .

الحق اننا لا نستطيع أن نفكر في هذه السيادة الفارسية في الحيرة أو هذه السيادة الرومية في أطراف الشأم ، فقد كانت هناك أسر عربية تمثل هذه السيادة،وكانت لهذه الأسر ضروب من السلطان ، ولكن هذه الأسر لم تكن فيما يظهر حجازية ، ولم تكن بيئاتها بيئات عربية خالصة ، انما كانت بيئات مختلطة أقرب الى الأعجمية منها الى أي شيء آخر . فلم تبق إلا بيئات أربع : بيئة كندية في نجد ، ولكن هذه البيئة كانت يمنية إن صح ما زعم الرواة والمؤرخون . وسيادتهم لم تطل ولم يكن لها من الضخامة ما يمكنها من أن تسلط سلطانها السياسي والاقتصادي والديني على شمال البلاد العربية . وبيئة أخرى قرشية في مكة ، كان لها سلطان سياسي حقيقي ، ولكنه قوي في مكة وما حولها ، وهذا السلطان السياسي كان يعتز بسلطان اقتصادي عظيم ، فقد كان مقدار عظيم جداً من التجارة في يد قريش ، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان ديني قوي مصدره الكعبة التي كان يحج اليها أهل

---

١ طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

الحجاز وغير أهل الحجاز من عرب الشمال . فقد اجتمع لقريش اذن سلطان سياسي واقتصادي وديني . وأخلق بمن تجتمع له هذه السلطات أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية . وبيئة ثالثة هي بيئة الطائف ، كان لها شيء من السلطان الاقتصادي ولكنها لم تكن تداني البيئة المكية . وبيئة رابعة في شمال الحجاز ، هذه هي البيئة العربية في يثرب وما حولها . ولكنا نظن ان أحداً لا يفكر في أن يقول ان هذه العربية الفصحى كانت لغة هؤلاء الناس من اليهود أو من الأوس والخزرج فضلاً عن أن هذه البيئة على ثروتها وقوتها لم تكن تداني قريشاً فيما كان لها من سلطان .

لغة قريش إذن هي هذه اللغة العربية الفصحى ، فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية . وكانت هذه الأسواق التي يشار اليها في كتب الأدب ، كما كان الحج ، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش »[1] .

وبعد أن انتهى (الدكتور طه حسين) من إصدار قراره ، قال : « ولكن ما أصل لغة قريش ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت في لفظها ومادتها وآدابها حتى انتهت الى هذا الشكل الذي نراه في القرآن ؟ ». وكان جوابه على هذه الأسئلة قوله : « كل هذه مسائل لا سبيل الى الإجابة عليها الآن ، فنحن لا نعرف أكثر من أن هذه اللغة لغة سامية تتصل بهذه اللغات الكثيرة التي كانت شائعة في هذا القسم من آسيا . ونحن نكاد نيأس من الوصول في يوم من الأيام الى تأريخ علمي محقق لهذه اللغة قبل ظهور الإسلام . وكيف والقرآن أقدم نص صحيح وصل الينا في هذه اللغة ، ونحن نرى اللغة فيه كاملة متقنة تامة التكوين قد تجاوزت الوجود الطبيعي الى هذا الوجود الفني الراقي الذي يظهر في الآداب»[2].

وخلاصة رأي (الدكتور طه حسين) أن عربية قريش هذه ، التي نزل بها القرآن الكريم ، إنما سادت قبيل الاسلام ، ولم تكن سيادتها تتجاوز الحجاز . إذ يقول : « فالمسألة إذن هي أن نعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .
٢ في الأدب الجاهلي (١٠٧) .

فنتوسط ونقول : انها سادت قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل الى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية . ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز . فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنباً الى جنب »[1] .

وكان المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) ، قد تعرض لهذا الموضوع وبحث فيه قبل (الدكتور طه حسين) ، في كتابه : « تأريخ آداب العرب » ، الذي طبعه سنة (١٩١١ م) ، فذهب مذهب الأسلاف في أن العربية بدأت بـ (اسماعيل) فلما خرج أولاده من ديارهم وانشعبت قبائلهم ، تنوعت لهجاتهم ، وتباينت ألسنتهم ، حتى ظهرت قريش من بينهم ، فأخذت وأعطت ، وهذبت الألسنة واستخلصت منها أعذبها وأسماها ، ثم لا تزال تهذب في اللغة وتشذب حتى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام ، بنزول الوحي بها . وكانت القبائل : « بطبائعها متباينة اللهجات،مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ؛ ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تأريخهم ألان من طباعهم وكسر من صلابتهم ، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس . فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مُستبشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقّت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس »[2] .

فهذا دور من أدوار تهذيب اللغة وتنقيتها ، قامت به قريش ، قامت به في مسكنها وموطنها مكة ، وقامت بدور آخر ، كان آخر الأدوار التي قامت فيها قريش في تهذيب العربية،هو الدور العُكاظي ، وهو « حالة من أحوال الحضارة، ولذلك اقتضى الصناعةَ اللسانية ، فكان العرب يرجعون الى منطق قريش ، كما

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

٢ الرافعي تأريخ آداب العرب (١/٨٥ وما بعدها) .

كان هؤلاء يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الأفصح منها . وهـذا هو الدور الأخير من أدوار التهذيب اللغوي إذ يدخل في حالة عامة يشيع فيها المنطق الفصيح وتبلغ بها اللغة درجة عالية من النشوء ليس بعدها إلا موت الضعيف وتحوله الى شكل أثري لا منفعة منه للمجموع المكوّن على هذه الطريقة ، ولكنه يدل على أصل التكوين »[1] .

ثم توّج عمل قريش في تهذيب اللغة بنزول القرآن بلسانها « فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيي ، ثم كانوا لا يُعدون في اعتبارهم اياه انه ضرب من تلك الضروب التي كانت لهم من خوارق العادات : كالسحر والكهانة وما اليها ، وهو الذي افترته قريشٌ ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء الى النبي »[2] . ثم « ان القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبي صلى الله عليه وسلم ، من اللغة القرشية وما اتصل بها ، كان ذلك مغمزاً فيه ، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه ، وبين ما يأثرونه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فيهوّن ذلك على قريش ، ثم على العرب ، فيجدون لكل قبيلة مذهباً من القول فيه ، فتنشق الكلمة ، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء ، الى حال لا يلتئم عليه أبداً ، ولو أن شاعراً من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالي وأقامهم عليه ، لكان في الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذي ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته »[3] .

ومجمل حجج الباقين القائلين ان العربية الفصحى هي عربية قريش ، ان قريشاً « كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لهـا عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية،وكان العرب يجتمعون اليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك ان هنالك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات

---

١ تأريخ آداب العرب (١/٨٧ وما بعدها) ، (أسواق العرب) .
٢ تأريخ آداب العرب (١/٤٦) .
٣ المصدر نفسه (١/٤٧) .

القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها اليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض الدلالة سوق عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُرْوَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي،فأنشدهم قصيدته: هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر .

واذن فنحن لا نعدو الواقع اذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك ان الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية انها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه،وأيضاً فإنه كان يرسل اليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الاسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو انهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان ارسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الاسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة »[1] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٣٣ وما بعدها) .

وبعد ، فلقد عرضت عليك رأي المستشرقين في العربية العالية : عربية القرآن الكريم ، وعربية الشعر الجاهلي . ثم عرضت عليك رأي علماء العربية فيهـا من متقدمين ومن معاصرين ، وقد رأينا أن المستشرقين وعلماء العربية معاً ، لم يستندوا كلهم على سند جاهلي مكتوب ، ولا على نص مدوّن بهذه العربية، لسبب واحد مفهوم معقول ، هو عدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بهذه اللغة فلم يكن أمامهم من سبيل سوى اللجوء الى الموارد الإسلامية للاستعانة بهديها في استنباط رأي علمي بهذا الموضوع ، وهذا ما فعلوه .

أما قول علماء العربية إن عربية القرآن الكريم عربية (اسماعيلية) ، بمعنى أنها عربية أخرى تختلف عن عربيـة العرب الجنوبيين ، فرأي مقبول ، على شرط أنه اصطلاح يعـبر عن معنى اصطلح عليه . فقد أشير الى (الاسماعيليـين) في التوراة . وهم — كما سبق أن قلت — قبائل عربية شمالية كانت تقطن في القسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب،وكانت حدودهم الغربية على اتصال بالعبرانيين. ولا أعتقد أن أحداً من أصحاب الفقه في العربية ، يركبه الشطط فيقول إنه نزل بلغة عربية جنوبية ، أو بلغة ثمود أو لحيان أو الصفويين ، أو يقول إن الشعر الجاهلي ، قد نظم بلهجة من هذه اللهجات ، فكلام مثل هذا ، حتى لو صدر من أحد ، فإنه هراء يدل على جهل قائله بأبسط الأشياء .

وأما دعوى أن هذه العربية وحدها هي العربية الفصيحة الصحيحة،وأن ما عداها من عربيات ، فلغات فاسدة رديئة ، فدعوى يمكن قبولها والتسليم بصحتها ، لو ان في وسع القائلين بها اثباتها بالأدلة المادية الملموسة ، أي بأدلة النصوص الجاهلية المكتوبة ، مع اثبات ان هذه اللغة الفصيحة كانت وحدها لغـة الأدب والتدوين عند جميع العرب ، وان الجاهليين كانوا لا يكتبون إلا بها ، وأن ما سواها من اللهجات ، كانت لهجات كلام ، أي لغات العامة والسواد ، تكلموا بهـا كما نتكلم نحن اليوم فيما بيننا بلهجات محلية ، نسميها لهجات عامية ، فإذا كتبوا كتبوا بالعربية الفصيحة . ولكنهم عاجزون عن اثبـات ذلك ، ثم ان النصوص الجاهلية تناهض دعواهم هذه ، فكل ما لدينا من نصوص جاهليـة ، مكتوب بلهجات عربية أخرى ، خلا خمسة نصوص كتبت بعربية نبطية ، أي بعربيـة فيها ألفاظ واردة في العربية الفصحى ، ولكن الإرمية أو النبطيـة متحكمة في أسلوبها وفي قواعدها وفي الكثرة الغالبة من كلماتها بحيث تمنعها من أن تعـدّ في عداد العربية

الفصيحة . لذا ، فنحـــن لا نخالف المنطق والعلم ، إن أظهرنا اعتراضنا عليهـــا ورفضناها ، وما كان لنا لنعترض عليها ، لو ان الأمر كان على العكس ، لو ان غالبية النصوص الجاهلية كانت بهذه اللغة ، أو ان بعضاً منها على الأقـل ، ولو بعضاً قليلاً ، كان بهذه العربية الخالصة ، أو اننا لا نملك نصاً جاهلياً بتاتاً، بأية عربية كانت ، لا بهذه العربية ، ولا بالعربيات الأخرى ، أما وأن لدينـــا اليوم الألوف من النصوص الجاهلية ، وهي كلها بلهجات عربية أخرى ، ولا نملك نصاً واحداً مدوناً بهذه العربية الخالصة ، لذا ، فنحن لا نظلم أنفسنا ، ولا نظلم غيرنا ، ان رفضنا دعواهم المذكورة، وقلنا ان اللغات التي موّنتنا بالنصوص المذكورة ، هي لغات فصيحة بالنسبة للناطقين بها ، وفي نظرنا أيضاً ، وهي لغة أدب بالنسبة لأصحابها الكاتبين بها .

والقول بأن العربية الفصيحة هي وحدها العربية الصحيحة السليمـة الفصيحة ، وأن ما عداها من لغات عربية فلغات رديئة فاسدة ، أو أنها دونها في الفصاحة، قول يمكن قبوله بالنسبة لأيام الإسلام،حيث صارت هذه العربية لغة الـدين والحكم والفكر ، بها تُقوّم الألسنة ، وبها يدوّن الناس آراءهم . أمـــا بالنسبة الى أيام الجاهلية ، فإننا لا نستطيع التسليم به ، لسبب بسيط ، هو أن أهل العربية الجنوبية مثلاً ،كانوا يكتبون وينطقون بلغاتهم ، فلغاتهم هي لغة التدوين والأدب عندهم، بقوا يكتبون بها ، الى أن دخلوا في الاسلام ، فأبدلوها عندئذ بهـــذه العربية ، بحكم الدين . ودليل ذلك ، هذه النصوص المتأخرة المكتوبة بالمسند ، والتي لا يبعد تأريخها عن الاسلام كثيراً . فلو كانوا يرون أن هناك عربية أفصح منهـا ، أو أنهم كانوا يعلمون أن هناك عربية أرفع من عربيتهم شأناً ، يدوّن ويكتب بهـا بقية عرب الجزيرة وأنها لغة الثقافة والعلم ، لما نبذوها وعدلوا عنها الى عربيتهم، وشذوا عن بقية اخوانهم العرب ، بتمسكهم بالكتابة بها وحـــدها . وينطبق هذا القول على قوم ثمود والصفويين واللحيانيين والنبط ، فقد كتب كـــل قوم منهم بلغتهم ، ولم يكتبوا بهذه العربية ، وتدوينهم بلغاتهم ، دليل على ثبوت فصاحتها عندهم ، وليس في قول (ابو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمـــير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] ، ما يدل على ازدراء شأن الحميرية : أو

---

١ طبقات ابن سلام (٤ وما بعدها) .

الغض منها ، وإنما هو تعبير عن حقيقة تأريخية ، هي أن الحميرية عربية أخرى، وهي حقيقة لا يجادل عـلى صحتها أحد ، كما أن الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية عربيـات أخرى . وكل هذه العربيات ، هي عربيات فصيحة بالنسبة لأصحابها ، لأنها لغة التدوين عندهم ، حيث لم يكن لأهل جزيرة العرب ، لغة أدب واحدة ، دوّن بها جميع الجاهليين ، حتى نقول إن النصوص الخارجة عليها، أي النصوص المدوّنة بلهجات أخرى ، هي نصوص عوام وسواد ، كتبوا بلغاتهم كما يكتب العامة بلغاتهم هذا اليوم ، مع وجود العربية الفصيحة .

وأما قولهم ان هذه اللغة العربية الفصحى هي لغة قريش ، لاجـماع العرب كافة على ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وعدم ظهور أحد أنكر هذا الاجماع ، أو جادل فيه ، رغم ما كان من الشعوبية الأعجمية ومن الشعوبيـة الحميرية ، ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائـل مضر[1] ، فقول لا يستند الى حجج تأريخية جاهلية ، بل هو يصطدم مع واقع النصوص الجاهليـة الواصلة الينا ، وبعضها نصوص لا تبعد عن الاسلام بكثير ، وقد كتبت كلهـا بلهجات تختلف عن هذه اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن ، وفي اختلافها عنها دلالة ، على أن الشعوب التي تثبت تلك النصوص لم تكن تكتب بعربية القرآن . وفي هذه الدلالة تفنيد لقول من قال « إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائـل العربية شمالاً وغربـاً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن ، وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران »[2] ، ثم انـي لم أتمكن من العثور عـلى هذا الاجماع الذي أجمع العرب كافة عليه ، والذي لم يعارضه أحد حتى من الشعوبيين والحاقدين على قريش ، وانمـا وجدت القرآن ، وهو خـبر الشاهدين يقول : « وهذا لسان عربـي مبين »[3] . و « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[4] .

---

١ طه حسين : في الأدب الجاهلي (١٠٥) .
٢ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٣٤) .
٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٤ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .

« وكذلك أنزلناه حكماً عربياً »[1] . « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً »[2] الى غير ذلك من آيات نصت نصاً صريحاً على أن لسان القرآن هو اللسان العربي ، فعينته بذلك وثبتته ، ولم أجد في القرآن آية واحدة ذكرت انه نزل بلسان قريش ولو كان قد نزل بلسانهم وكان لسانهم خير الألسنة وأفصحها ، لما سكت عن ذلك ، لما في النص عليه من أهمية ، بالنسبة الى العـــرب والى قريش المكابرين المناهضين للرسول ، ثم اني وجدت أن العلماء يذكرون أن في القرآن لغات أخرى ليست من لغة قريش ، وأن فيه ألفاظاً هي بلغة تميم ، أو بلغات أخرى مخالفة للغة قريش وأهل الحجاز ، وان لهم آراءً في الأخبار الواردة في انه نزل بلغـــة قريش ، مثل أخبار تنسب الى (عمر) تارة ، وتنسب الى (عثمان) والى غيره تارة أخرى ، وهي أخبار لا ندري مبلغ درجتها من الصحة أو الباطل ، يظهر انها وضعت تحت تأثير من العصبية السياسية التي ظهرت منذ أيام الرسول فيما بين الأنصار والمهاجرين ، ثم صارت عصبية قحطانية يمانية ، جعلت العرب عربين : فإما الى قحطان وإما الى عدنان ، وليس بينهما جد ثالث .

ثم إنه لو كان قد نزل بلسان قريش ، وكان لسان قريش أفصح ألسنة العرب وأبينها وأبلغها وأكملها ، ولذلك كان نزوله بها حجة للخصوم وإفحاماً للمشركين واحراجاً لهم واعجازاً لهم ، فلِمَ لم يذكر القرآن ذلك ، ولم يبين أنه نزل بلسان قريش أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وإنه انما نزل بلسانهم ليكون حجة عليهم واعجازاً لهم في أن يأتي أبلغهم بآية مثـــل آياته ، وفي ذكر قريش اذن إفحام لكل العرب . ولكنا نجـــده على العكس يخاطب قريشاً والعرب بقوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[3] ، و « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله »[4] ، فهو يحاججهم على أن يأتوا بمثله ، وباللسان الذي نزل به ، وهو لسان عربي مبين ، لا لسان بعض منهم ، أي بلسان قريش . ولو كان لسان هذا البعض هو أكمل الألسنة وأبلغها وأعذبها وأسلسها وأنقاها كان من الضروري ذكر ذلك إفحاماً للخصوم ،

---

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٢ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٣ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٣ .
٤ الاسراء ، الآية ٨٨ .

فعدم النص على ذلك اللسان ، هو أبلغ جواب على أنه لم ينزل به ، وعلى أن لسانهم المذكور لم يكن أكمل لسان عربي .

وأما العوامل التي أوجدها المحدثون في تفسير سبب سيادة لغة قريش على غيرها من اللغات عند ظهور الاسلام ، وهي: السيادة السياسية ، والسيادة الاقتصادية والسيادة الدينية ، وهي عوامل تتصل بها عادة سيادة اللغات[1] ، فهي عوامل وضعوها وضعاً وتخيلوها من غير سند أو دليل ، أقاموها على تصورات أخذوها من أقوال لأهل الأخبار،لا يركن اليها ، ولا يعتمد عليها . وقد حاولت جهدي أن أعثر في مؤلفات القائلين بها على سند واحد يثبت سيادة قريش السياسية على غيرها من القبائل عند ظهور الاسلام ، سيادة قوة وفتح ، أو سيادة نفوذ واعتبار فلم أجد فيها دليلاً واحداً يمكن أن يكون حجة لإثبات تلك السيادة . وكل ما وجدته فيها أحكاماً عامة مطلقة لم تقم على حجة ولا دليل[2] . ثم راجعت الموارد القديمة عليّ أجد فيها شيئاً ، يثبت هذا التفوق ، فلم أجد فيها أي شيء أيضاً يدل عليه ، بل وجدت العكس ، وجدت أن سادات مكة مثل عبد المطلب وغيره كانوا يراجعون حكام اليمن ويتقربون اليهم ، لينالوا منهم العطف والرعاية، والهبات والألطاف ، وكانوا إذا سمعوا بتبوء ملك منهم كرسي الحكم ، ركضوا اليه يهنئونه ، داعين له بالعمر الطويل ، وبالتوفيق في الحكم ، ثم وجدت فيها أن سادتها كانوا يراجعون حكام العراق وبلاد الشأم واليمن والحبشة ، ويتوددون اليهم بالهدايا ، لكسب عطفهم ، وللحصول على مساعدات منهم ، لتيسير سبل الاتجار مع الأرضين التي كانوا يحكمونها ، وأنهم كانوا يصانعون سادات القبائل ويؤالفونهم ، لضمان حق مرور تجارتهم بأرضهم بأمن وسلام ، في مقابل اتاوات تدفع لهم ، أو هدايا تحمل اليهم ، ثم رأيت ما كان من أمر (هاشم) واخوته من عقدهم الإيلاف الذي أشير اليه في القرآن[3] . ثم وجدت ان أهل الأخبار يقولون ان (قيصر) أعان قصياً على خزاعة[4] ، وأن (عثمان بن الحويرث)

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .

٢ في الأدب الجاهلي (١٠٥ وما بعدها) ، شوقي ضيف (١٣١ وما بعدها) .

٣ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ .

٤ المعارف (٦٤٠) ، جواد علي ، المفصل (٣٩/٤) .

قد توسط لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة[1]. ورأيت أن أهل الجاهلية، كانوا يعيرون قريشاً بأنها لا تحسن القتال ، وانها تجاري وتساير من غلب ، وانها لا تخرج إلاّ بخفارة خفير ، وبحلف حليف ، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائـــل . فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، بـ (سعد بن أبي وقاص)، سأل عنه ، فقيل : « رجل من قريش ، فقال : أمـــا إذا كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتـــال . إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير »[2] ، فهل في هذا الكلام بعد — إن صح بالطبع — ما يشير الى نفوذ سياسي .

بل وجدت أن أهل الأخبار يذكرون أن (قصي بن كلاب) ، وهو مجمع قريش وموطد حكمها على مكة إنما بسط نفوذه عليها بمساعدة الروم لـه ؛ حيث يقولون : « وجـــاء قصي بن كلاب ، فجمع معداً — وبذلك سُمّي مجمعاً — واستعان ملكَ الروم فأعانه ، وحارب الأزدَ فغلبهم واستولى على مكة »[3] . وكان الأزد على حدّ قول هذه الرواية قد طردوا جرهم عن مكة واستولوا عليهـــا ، فجاء (قصي) وأزاحهم عنهـــا ، بمعونة (ملك الروم) ، فما كانت قريش لتزيحهم عنها لولا هـــذه المعونة ، وقوم يستعينون بالأجانب للاستيلاء على قرية فقيرة هي كل ما ملكوا هل يعقل بعد أن يكون لهم نفوذ سياسي على النحو الذي تصوروه وذكروه !

وقد وجدت انهم كانوا يصطنعون الأحابيش والقبائل ، للدفاع عن مدينتهم ، وانهم استعانوا بالقبائـــل يوم (الأحزاب) في قتالهم المسلمين . وليس في هذا الاصطناع دلالة على سيادة سياسية ، وانما هو دليل الضعف وشراء القلوب وتأليفها بالمال . فإذا كان في هذا الشراء معنى السيادة السياسية ، فهو اذن أمر آخر .

وقد رأينا انهم كانوا يصانعون الصعاليك والخلعاء ، للاستفادة منهم، وللاستعانة بهم في حماية أنفسهم[4] ، ورأينا ان قريش الظواهر كانوا يفخرون على قريش مكة

---

١ المفصل (٤/٣٩) .
٢ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، المفصل (٤/٣٧) .
٣ الخزانة (٢/٣٢٤) ، (هارون) .
٤ رسائل الجاحظ (٧٠) ، (السندوبي) ، جواد علي ، المفصل (٤/٦٨) .

بأنهم أصحاب قتال ، وانهم يقاتلون عنهم عن البيت[1] ، ثم رأينا أشياء أخرى من هذا القبيل ، تدل كلها على ان قريشاً كانوا ضعفاء غير محاربين ، شأن كل الحضر ، بالنسبة الى الأعراب ، وانهم عمدوا لضعفهم هذا الى رشوة سادات القبائل بالهدايا وبالمال وبإشراكهم برأسمال قوافلهم ، لتأمين مرور أموالهم وتجاراتهم بأرضهم بأمن وسلام . فهل يقال بعد كل هذا انه قد اجتمع لقريش سلطان سياسي ،صار في جملة عوامل سيادة لغة قريش في جزيرة العرب قبيل الاسلام ؟[2] ونحن نعلم ، ان من أهم مقومات السيادة السياسية ،ضرورة وجود القوة العسكرية ، فالقوة العسكرية ، هي التي بسطت اللغة اليونانية في العالم القديم ، وهي التي نشرت اللغة اللاتينية في أنحاء الانبراطورية الرومانية ، وهي التي أوصلت اللغة العربية في آسية الى حدود الصين ، وفي اوروبا الى الأندلس وسواحل المحيط ، وهي التي جعلت الانكليزية اليوم لغة عالمية ، فكيف نتصور اذن خضوع العرب الشماليين قبل الاسلام أو قبيله ، للغة قريش ، مع ما نعرفه من ضعف قريش في قدرتها على القتال ، ولا سيما في ذلك العالم الذي كان القتال فيه شيئاً مألوفاً ، بل هو عنده من مستلزمات الحياة ، لأنه من وسائل الرزق بالنسبة للأعراب المساكين الذين حرمتهم الطبيعة من خيراتها ، بل حتى من ضروريات الحياة ، عالم لا يحترم فيه إلا القوي الجبار .

ونحن إذا أخذنا بأثر السلطان السياسي في سيادة اللغات ، وجب علينا حينئذ البحث عن البيئات التي جمعت بين القوة والرهبة العسكرية والنفوذ السياسي ،وهي بيئات توفرت في اليمن ، وفي مملكة الحيرة ، التي بلغت حدودها في أيام (امرىء القيس) صاحب نص النمارة ، المتوفى سنة (٣٢٨م) حدود نجران ، والتي هيمنت على اليمامة والبحرين . وملوك الحيرة ،عرب ، لغتهم ولغة أتباعهم العربية . ففي مثل هؤلاء ، الذين كان لهم سلطان سياسي وسلطان عسكري ، يجب التفكير لا في أناس حضر مسالمين قليلين مثل قريش ، ونحن نعلم أن قريشاً كانوا يترددون الى ملوك الحيرة ، والى ساداتها ، وأن شعراء جزيرة العرب كانوا يقصدونهم من مختلف أنحائها ، باستثناء العربية الجنوبية ، لإنشادهم شعرهم في مدحهم ،

---

١ جواد علي ، المفصل (٤/٢٨) .

٢ طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٦) .

رجاء تحقيق مطلب ، أو نيل جائزة ، كما كانت الوفود تقدم اليهم ، وتخطب أمامهم ، وكان لهم ديوان بالعربية وبالفارسية ، لكتابة الرسائل الى عمالهم على الأمصار والى سادات القبائل بالعربية ، والى الفرس بالفارسية ، كما كان الفرس يكتبون اليهم بالعربية ، كما أجمعت على ذلك الموارد العربية والموارد الفارسية التي نقل منها المؤرخون أخبار الحيرة الى العربية، وكان لهم — كما يقول أهل الأخبار — ديوان شعر فيه أشعار الفحول وما مدح به النعمان بن المنذر وأهل بيته[1]، وكانت لهم مدارس تدرس الأطفال العربية ، وكذلك كانت لأهل الأنبار ولأهل عين التمر مدارس تدرس العربية، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب، ولما جاء (خالد بن الوليد) الى الحيرة وسأل سادتها : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل! فقالوا له : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقالوا له : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقتم[2] . فقال تكلم (خالد) معهم بالعربية ، وتفاهم معهم وأيدهم في أن لسانهم هو اللسان العربي الذي لا لسان لهم غيره ، كما أن لسانه هو اللسان العربي . وبهذا اللسان كان يتكلم ملوك الحيرة ويسمعون الشعر ، ويخاطبون الوفود وأتباعهم ، وبه كانوا أنفسهم ينظمون أشعارهم ، لم يجدوا صعوبة في التفاهم مع أحد ، ولم يجد أهل مكة ولا غيرهم ممن كان يأتي الحيرة، صعوبة في التخاطب والتفاهم مع أهلها ، فهل يعني هذا أن أهل الحيرة ، كانوا يتكلمون بلغة قريش وأنهم بفضل تكلمهم بهذه اللغة كانوا يتفاهمون مع الوافدين اليهم من مكة وغيرها من أنحاء جزيرة العرب ! وأنهم لو لم يكونوا يعرفون عربية قريش ، لكان أمر التفاهم معهم صعباً ! اذن فعربية أهل الحيرة ، هي عربية قريش ، أخذوها منهم بسبب نفوذهم السياسي ، وغلبة لسانهم على ألسنة العرب! ولكن لو كان الأمر كذلك ، فلِمَ كان جواب أهل الحيرة لخالد حين سألهم : ويحكم ما أنتم ! أعرب ؟ نحن عرب عاربة وأخرى متعربة ، وليدلك على ما نقول ، إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، ولم يقولوا له ، إنه ليس لنا لسان إلا

---

١ ابن جني ، الخصائص (١/٣٩٢ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .

٢ الطبري (٣/٣٦١) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي) .

بالقرشية ، أو بعربية قريش أو بعربية قومك ، وأمثال ذلك من عبارات يقتضيها الموقف للتقرب من القائد المنتصر ، ولإثبات أنهم مثله ، وهو قرشي يتكلمون بعربيته القرشية المبينة ! فهل يعتزون بتكلمهم بلسان قريش ، أفصح ألسنة العرب ويتباهون به ! ولو كان ذلك اللسان لسان الأدب الرفيع عندهم لما سكتوا من تسميته بلسان قريش أبداً !

ثم خذ ما ذكره أهل الأخبار عن فتح (الأنبار) تراهم يقولون : « ولما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون ، وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : ممن تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إياد لو انهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحة العراق اذا ساروا جميعاً والخط والقلم[1]

ولو كان أهل الأنبار يكتبون بلغة قريش ، لما قال أهل الأخبار ان (خالد) وجدهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها،ولقالوا حتماً انهم كانوا يكتبون بلسان قريش. ثم ان نصهم دوماً على ان لسانهم كان عربياً ، وديوان أهل الحيرة انما كان بالعربية ، وان كتابتهم انما كانت بالعربية ، دليل في حد ذاته على ان المراد بالعربية ، العربية المطلقة ، لا المقيدة ، أعني عربية قريش .

الحق أقول : انني اذا فكرت تفكير علماء العربية المحدثين ، الذين نسبوا تفوق اللغات على اللهجات الى السيادة السياسية والسيادة الاقتصادية وأمثال ذلك من سيادات ، فإني لن أفكر في موطن أينعت فيه العربية في تلك الأيام سوى بلاد الشأم والعراق ، فقد أمدتنا بلاد الشأم بنصوص وإن كانت – كما سبق أن قلت – قد دونت بلهجة نبطية ، لكنها لم تتمكن مع ذلك من التستر على لهجة أصحابها الأصلية . ففي نص (النمارة) مثلاً الذي يعود تأريخه الى سنة (٣٢٨ م) ، عبارات مثل (ملك العرب كله) ، و (ملك الاسدين ونزرا وملوكهم) ،

---

١ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الأنبار) .

و (هرب مذحجو) ، و (مدينة شمر) ، و (ملك معدو) ، و (نزل بنيه الشعوب) ، و (فلم يبلغ ملك مبلغه) ، و (هلك سنة) ، يفهم منها بكل جلاء ووضوح ان أصحابها كانوا يتكلمون بلهجة عربية شمالية ، هي هذه اللهجة التي نسميها العربية الفصيحة ، والتي تستخدم (ال) أداة للتعريف . وفي نص (شرحيل بن ظالم) ، الذي يعود تأريخه الى سنة (٥٦٨) للميلاد الذي هو : « انا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام » ، وهو نص لا يبعد عن ميلاد الرسول إلا بسنتين ، نرى عربية (ال) واضحة ظاهرة طاغية على هذا النص ، بحيث تشعرك ان النص وان كان كالنص السابق قد دوّن بلهجة متأثرة بالنحو النبطي ، غير ان أصحابه كانوا يتكلمون بعربية شمالية ، فهم اذن ممن كانوا يتكلمون بعربية (ال) بكل تأكيد ، بدلالة هذه النصوص . وعربية (ال) هي عربية الشعر الجاهلي .

وحيث ان صاحب نص (النمارة) هو الملك (امرؤ القيس) ، من ملوك الحيرة ، وقد كتب أصحابه شاهد قبره ، باللغة التي بينتها ، ووضعوه على قبره، فلغة أصحابه اذن ، هي لغة (ال) ، أي العربية الفصيحة . فنحن نستطيع أن نستنبط من ذلك ، ان عرب الفرات في العراق كانوا يتكلمون بهذه اللغة في القرن الرابع للميلاد ، أي قبل أن تظهر سوق (عكاظ) ، وقبل أن يولد (النابغة) الذبياني ، حاكم هذه السوق على زعم أهل الأخبار ، وقبل أن تقوم قريش بالغربلة المزعومة للغة ، وقبل بروز قريش وولادة (قصي) بزمن طويل .

ثم إن ملوك الحيرة على الأخص ثم ملوك الغساسنة كانوا كعبة الشعر والشعراء، اليهم كان يذهب الشعراء ، يقفون على أبوابهم ساعات وأياماً ليسمح لهم (الحاجب) بالدخول على الملك لإنشادهم أشعارهم أمامهم ، وقد كانوا قد اتخذوا — كما يقول أهل الأخبار — أياماً يسمح فيها للشعراء بالتباري في انشاد أشعارهم أمامهم ، وعرض ما عندهم من بضاعة نفيسة في الشعر ليراها الشعراء المجتمعون عنده ، ولم نسمع أن الشعراء كانوا يقصدون تجار قريش للتباري أمامهم بإنشاد الشعر ، أو أنهم كانوا قد اتخذوا موسماً يقصده الشعراء من سائر أنحاء جزيرة العرب للتباري بقول الشعر ، لا في موسم الحج ولا في غيره . إن سادة مكة تجار ، والتاجر لا يعرف إلا الكسب وجمع المال ، وما شأنه وبضاعة الشعر ! لقد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة قدوة لملوك بني أمية ولبني العبّاس في تبنّيهم الشعر والشعراء،

وفي ترويج سوقه وتنشيطه ، وإعطائه قوة وصولة ، قد يكون عن طبيعة فيهم وطبع ، وقد يكون عن سياسة وغرض ، لاتخاذ الشعراء محطات اذاعة أو صحف للترويج بسياسة ملك ، وللحط من شأن خصمه ومنافسيه ، وللرد على الشعراء المعارضين . على كل فقد كانوا يستذوقون الشعر ويميزون الجيد منه من الفاسد ، ويظهرون عيوبه أمام الشعراء، ويحسنون الى الشعراء من أجاد منهم ، ومن لم يجد، فكان هذا التشجيع في جملة العوامل المشجعة على نظم الشعر . وإذا كان لبني أمية فضل على الشعر الجاهلي بالاستماع إليه من أفواه الرواة ، وبالحث على حفظه وتدوينه . وإذا كان لبني العباس فضل على الشعر والعربية والعلوم بتشجيعهم العلماء واستدعائهم الى مجالسهم للاستماع اليهم ، فصاروا بذلك جميعاً حماة العربية ، فإن ملوك الحيرة وملوك عرب الشأم ، كانوا قد مهدوا الجادة قبلهم لمن ذكرت ، ورفعوا بعملهم المذكور من مستوى العربية ، وعملوا عملهم في صقلها وفي توحيدها، وفي تقريب الألسنة بعضها من بعض والناس على دين ملوكهم ، وأكثر شعراء الجاهلية كانوا على اتصال إما بهؤلاء الملوك ، وإما بأولئك .

وإذا أضفنا الى هذا التشجيع ، والسيادة السياسية التي كانت لملوك الحيرة على نجد والبحرين ، عامل التقدم الثقافي الذي كان لعرب الحيرة والأنبار والقرى العربية في العراق وفي بلاد الشأم على أهل البوادي ، بل وعلى أهل مكة كذلك ، الذين تعلموا خطهم من أهل الحيرة ، لزم علينا القول ان العربية المبينة التي درست في مدارس عرب العراق ، كانت قد تقدمت في العراق أكثر من أي مكان آخر في جزيرة العرب بالنسبة لأيام الجاهلية ، ولعلّ هذا التقدم هو الذي أكسب العراق شرف وضع علوم العربية ، وتفرده من بين سائر الأقطار الإسلامية ، بجمع الشعر الجاهلي وقواعد العربية وعلوم الشعر واللغة ، وإلا فلا يعقل ظهور هذه العلوم في هذه الأرضين من غير ماضٍ ولا علم سابق، ولا أسس بنى عليها المسلمون بناءهم الجديد .

وأما ان تلك السيادة السياسية ، كانت في حدود ضيقة ، في حدود القبائل القريبة من قريش ، والمواضع التي كانت لها مصالح بها ، فذلك موضوع آخر ، له ما يبرره ، فقد كان لسادات مكة مصالح اقتصادية في الطائف ، وكان لهم أملاك وبساتين ، ولهم بيوت يقضون بها صيفهم ، كما كانت لهم مصالح مشابهة مع المواضع الأخرى ومع القبائل ، لا مجال لنكرانها أبداً . ولكن ما صلة هذه

الأمور باللغة ، ومن قال من القدماء إن قريشاً فرضت لغتها على أهل تلك المواضع والقبائل فرضاً ، أو ان أدباء تلك المواضع أو تلك القبائل ، أخذوا لغة أدبهم من قريش ؟ أو ان سياسة قريش كانت ذات نفوذ واسع عميق ، تركت أثراً كبيراً في النفوس جعلت العرب من أجل ذلك يمجدون لغة أهل مكة ، ويعتبرونها اللغة العالية ، أما لغاتهم فلغات رديئة دونها في المنزلة والمكانة،مع اننا نعلم ما للعصبيات القبلية من أثر في التعصب الى اللهجات ، ثم اننا نرى ان كتب أهـل الأخبار واللغة ، تذكر ان القبائل التي كانت تجاور مكة ، كانت تتكلم بلهجاتها الخاصة بها ، وان أهل الطائف ، أي ثقيف ، كان لهم لسانهم الخاص ، وان (أهل الحجاز) ، أي قريش وغيرهم ، كانوا يتكلمون بلهجات خاصة ، سمّاها علماء اللغة لغات (حجازية) ، ولم يسموها (قرشية) ، ولو كانت تلك اللهجات، لغة قريش ، لما دعاها العلماء (لغة أهل الحجاز) ، أو (حجازية) ، وقالوا : (ما الحجازية) ، وعلى (لغة أهل الحجاز) ، ولقالوا : (لغـة قريش) وعلى (لغة قريش) ، وهكذا، أضف الى ذلك اننا قلما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة قريش عن بقية لغات العرب ، وانما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة أهل الحجاز مما يدل على وجود فرق بين اللغتين ، وان لغة قريش ، لهجة من لهجات أهل الحجاز ، لا انها الأصل . وقد رأينـا وجود (الغمغمة) في لغة قريش ، وقد نص علماء اللغة أنفسهم على وجودها في تلك اللغة [1] .

ثم من في استطاعته اليوم اثبات ان عرب اليمامة أو عرب نجـد ، أو عرب البوادي ، كانوا تحت تأثير لغـة قريش ، أو تحت تأثيرها السياسي ، ولذلك كانوا ينظمون شعرهم بها ، ويخطبون بها ، والنصوص التي عثر عليها في اليمامة وفي مواضع من نجد تثبت خلاف ذلك ، تثبت بالدليل القاطع ان لهجة نصوصهم لم تكن على شاكلة لغة قريش ، فكيف نصدق رأي من يرى ان أعراب باطن جزيرة العرب ، كانوا ينظمون الشعر بلسان قريش ! مع وجود هـذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها ، والتي لا يزال العلماء يعثرون عليها الى يومنا هـذا ، لا في نجد واليمامة والبحرين فقط ، وانما في أرض الحجاز نفسها ، وعلى مسافات غير بعيدة من يثرب ومن مكة ، ومن الطائف ، وهي بلهجات تختلف عن لهجة

---

١ « الغمغمة : الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة » ، تاج العروس (٦/٩) ، (غمم) .

القرآن الكريم ، وبخط يختلف عن الخط الذي دوّن الوحي به ! وليست هـذه النصوص مغرقة في القدم ، حتى يعترض معترض ، فيقول اننا نقول : إن لغة قريش ، صارت لغة الشعر ، ولغة الأدب ، مع ظهور الشعر الجاهلي ، أو قبله بزمن غير بعيد ، لأن بين هذه النصوص ، نصوص لا يرتقي عهدها عن الاسلام إلا بزمن يسير !

وأما ما يقصونه علينا من نفوذ السلطان الاقتصادي الذي كان لقريش وعـن أثره في سيادة لهجة قريش على لهجات العرب ، فأنا أقرأ أن مكة كانت مدينة تجار وتجارة ، وبيع وشراء ، واستيراد وتصدير ، وليس من حق أحد أن ينكر ذلك ، بعـد أن نص القرآن على اتجارهم ، وعلى وجود رحلتين لهم : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وبعد أن زخرت كتب الأخبار والتأريخ بأخبار تجارة رجالها . ولكن هل كانت مكة ، المدينة المتاجرة الوحيـدة في جزيرة العرب ؟ والجواب : كلاّ ، فقد كانت لأهل اليمن تجارة مع مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان سادات اليمامة والبحرين من الأثرياء الثقـال في بلادهم ، وكانوا أصحاب تجارات ، وكانت اليمامة خاصة ، ريف مكة تمونها بالميرة والمنافع ، وكان ساداتها إذا غضبوا عليها قطعوا الميرة عنها ، فيصيبها من ذلك غم كبير ، وتضطر عندئذ الى مصالحتهم . فلما جاءهم ثمامة بن أثال الحنفي ، سيد أهل اليمامة ، وقالوا له: « يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك ، قال : لا أدري ما تقولون ، إلا أني أقسمت برب هذه البنية لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم . وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامـة ، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أضرّ بهم ، كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها ، وان ثمامة قد قطع عنّا ميرتنا وأضرّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب اليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل ، فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن خل بـين قومي وميرتهم »[1] . وكان تجـار البحرين يحملون تجارتهم من أقمشة ومن تجارة البحر الى مكة ، كما كان ملوك الحيرة يبعثون بلطائمهم الى الأسواق ومنها سوق عكاظ ، وكان الحضر وأهل القرار في كل جزيرة العرب تجاراً ، ومنهم أهـل

---

١ الاستيعاب (١/٢٠٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

يثرب ، ويهودها ويهود وادي القرى ، ويعود سبب اشتهار مكة بالتجارة دون غيرها من قرى ومدن جزيرة العرب ، الى القرآن الكريم ، فإليه وحده يعود فضل اشتهارها بالتجارة ، لما جاء فيه من ذكر عن قساوة تجار قريش وغلظهم تجاه الفقراء ، ومن أكلهم أموال اليتامى والأرامل والبنات ، ومن تعاطيهم الربا ، ومن اتجارهم برحلتي الشتاء والصيف الى غير ذلك من أمور حملت علماء التفسير والأخبار على التنقير عن أخبار تجارة مكة وعلى جمع ما حصلوا عليه في كتبهم ، ولو نزل في القرآن الكريم شيء عن تجارة وتجار مواضع أخرى مسماة باسمها لخصت تلك المواضع بعنايتهم من دون شك ولا ريبة ، ثم إن مدينة الرسول ، وقد اشتغل الرسول نفسه بالتجارة ، وكان والده وبقية عشيرته تجاراً ، وكانت زوجه خديجة تاجرة ، فحمل كل هذا علماء السيرة على البحث عن تجار مكة وعن تجارتها قبل الإسلام ، وعن المواضع التي تاجروا معها . فظهرت مكة من ثَمَّ وكأنها المدينة الوحيدة التاجرة في جزيرة العرب !

وأما ما يذكرونه عن النفوذ الديني الذي كان لقريش على العرب ، فالذي أعرفه من أمر الدين عند أهل الجاهلية ، انهم كانوا بين مشرك ، وهم الكثرة الكاثرة ، وبين يهود ، وهم قلة ، وبين نصارى ، وهم أكثر من اليهود عدداً ، وبين جالية مجوسية ، قلدها في دينها نفر من العرب لا يعبأ بعددهم . أما الشرك ، فقد تتبعناه في الجزء السادس من هذا الكتاب ، فوجدنا ان لكل قبيلة صنماً ، كانت تتقرب اليه وتنذر له وتستعين به في حربها وغزوها ، ولم تكن العرب تحج الى صنم واحد ، هو صنم قريش ، بل كانت تحج الى أصنامها ، ووجدنا ان (هبل) هو صنم أهل مكة وكفى . ثم رأينا ان لأهل نجران كعبة ، ولأهل يثرب محجة ، ولإياد كعبة ، ولثقيف محجة ، وللقبائل الأخرى محجات ، وللنبط محجة ، ولأهل العربية الجنوبية معابدهم ، ولم نقرأ في أي نص من نصوص أهل الجاهلية انهم حجوا الى مكة ، أو ان أحداً منهم ذهب اليها لغرض من الأغراض الدينية أو أي غرض آخر ، ولم يرد اسم مكة في أي نص من هذه النصوص . ولم نسمع في أخبار أهل الأخبار ، ان قوافل من عرب العراق أو عرب بلاد الشأم أو نجد أو العروض ، كانت ترحل في موسم الحج الى مكة لفرض تأدية الحج ، أو أداء العمرة في رجب ، ولم أقف على اسم ملك من ملوك الحيرة قيل انه حج الى مكة ، ولم أقف على اسم ملك من ملوك كندة أو بقية العرب ذكر انه حج

في جاهلية الى مكة ، اللهم إلا ما زعموه من حج التبابعة اليهـا ، وقد تعرضنا لطبيعة أمثال هذه الدعاوى القحطانية التي وضعتها العصبية الى اليمن في الاسلام ، وكلها أساطير وخرافات . ولو كان الحج الى مكة عاماً عند كل مشركي جزيرة العرب ، لما سكتت الأخبار عن ذكر من كان يفد الى الحج من الأماكن البعيدة ، ولظهر أثره في الشعر على الأقل .

وأما اليهود والنصارى والمجوس ، فقد كانوا على دينهم ، لا يحجون البيت ولا يتقربون اليه . فلهم عبادتهم الخاصة بهم . فلا نفوذ لقريش اذن عليهم من ناحية الدين .

نعم ، قد يقال لي : ولكن ما قولك في هـذا الاجـماع الذي نراه في كتب التواريخ والأخبار من حـج التبابعـة الى مكة ومن تقربهم الى الكعبـة بالكسوة والألطاف ، وقد كانوا أول من كساها من العرب ؟ ثم ما قولك في هذا الشعر الذي قالوه في مدح البيت وفي التقرب اليه وفي الايمان بالله وبرسوله قبل ظهوره بل قبل مولده بمئات من السنين ؟ ثم ماذا تقول من اشادة (عـدي بن زيد) العبادي بالبيت وقسمه به في شعره ، وهو يخاطب النعمان بن المنذر ، الملك الغاضب عليه[1] ؟ وماذا تقول في قول القائلين ، من الشعراء الجاهليين الآخرين في تعظيم البيت وفي التقرب اليه ، وقسمهم به[2] ؟ ومن مجيء العرب الى مكة من كل حدب وصوب للعمرة أو للحج ؟ ثم ماذا ستقول في أشياء أخرى من هذا القبيل تفنـد كلها قولك ، وتثبت وجود نفوذ قريش على القبائل وخضوع القبائل لها في أمور الدين ؟

أما حج التبابعة البيت ، فهو حج ولد في الاسلام ، أولدته العصبية القحطانية العدنانية ، التي تحدثت عنها ، وأما الكسوة ، فهي من مولدات ومخترعات هذه العصبية أيضاً . وأما الشعر الذي نسب الى التبابعة ، فهو من فصيلة الشعـر الذي روي على لسان آدم وهابيل وقابيل والجنّ ، وأما المحجات ، فقد بحثت عنها في الجزء السادس من هذا الكتاب[3] . وقد سبق لي أن تحدثت عن مخترعات أخرى

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .
٢ مثل زهير ، والنابغة ، وعوف بن الاحوص ، جواد علي ، المفصل (٦/٤٣٠) .
٣ (ص ٤٤٤ وما بعدها) .

كثيرة غير هذه ، أوجدتها العصبية القحطانية العدنانية ، منها خلق أنبياء قحطانيين ، وجعل العربية الأولى ، عربية قحطانية ، وجعل العرب العدنانيين عرباً مستعربة ، الى غير ذلك من ابتكارات، أوجدها القحطانيون ، بعد أن ذهب الحكم منهم ، وصاروا تبعاً لقريش في الاسلام ، فأخذوا ينبشون الماضي ويبحثون في الدفاتر العتيقة ، ويضعون ويفتعلون ، للغض من خصومهم ، ولإظهار انهم كانوا هم اللب والأصل ، وان خصومهم جاء اليهم الحكم عفواً ، من غير أصالة ولا مجد تليد ، فهم أصل كل مجد وفخار .

وقد تعرض العلماء لهذا الموضوع القائم على العصبية ، فقال (ابن فارس) : « فأما من زعم أن ولد اسماعيل – عليه السلام – يعيرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ... فليس اختلاف اللغات قادحاً في الأنساب . ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات فلسنا ننكر أن تكون لكل قوم لغة . مع أن قحطان تذكر أنهم العرب العاربة وأن مَنْ سواهم العرب المتعربة ، وأن اسماعيل – عليه السلام – بلسانهم نطق ، ومن لغتهم أخذ، وإنما كانت لغة أبيه صلى الله عليه وسلم ، العبرية »[1] . فأنت أمام رأيين متناقضين ، يدعي أصحاب كل رأي منها أنهم هم العرب ، وأن لسانهم هو اللسان العربي الفصيح المبين ، وأن من سواهم فغثم ، وأصحاب ألسنة فاسدة رديئة .

وأما ما زعموه وحكوه عن أدوار تهذيب اللغة ، ومن انفتاق العربية بلسان اسماعيل الى اختتامها بالدور العكاظي ، وهو آخر أدوار التهذيب اللغوي ، فأقول انها أقوال بنيت على أخبار صنعتها العواطف والمشاعر العصبية الضيقة التي ظهرت بأجلى مظاهرها في صدر الإسلام ، عصبية قبلية قديمة كانت بين يثرب ومكة ، أو بين اليمن ومكة ، إزدادت شدة وقوة في الإسلام ، بسبب استيلاء قريش على الحكم ، فاستغلت العواطف الدينية لتأييد هذه العصبية السياسية . بجعل قريش تاجرة جزيرة العرب ، وزعيمتها في اللغة ، وموطن الفصاحة والبلاغة ، ومجمع علماء اللغة الذين كانوا يأخذون ويعطون ويقررون كل ما هو سلس من الكلم وما هو بليغ وفصيح ، حتى جعلوا كلام الله المنزل على رسوله بلسان عربي مبين ، لسانَ قريش ، والله تعالى يقول : « قرآناً عربياً ، ولم يقل قرشياً »[2].

---

١ الصاحبي (٥٦) .
٢ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

والعربية عربية العرب جميعاً من أنصار ومهاجرين ، أهل باديـة وقرى . « قال الأزهري : وجعل الله عز وجلّ ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبة الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنـه من صريح العرب »[1] . فلسان القرآن ، لسان العرب جميعاً من مهاجرين وأنصار ، لا لسان قريش خـاصة ، والنبي وان كان من قريش ، لكنه كان عربياً من صريح العرب ، ودعوتـه ، لم تكن دعوة ضيقة خاصة بقريش ، إنما كانت دعوة عامة جاءت الى كل العرب، قوم النبي ، ولهذا نزل بلسانهم وبهذا جاءت الآية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[2] ، ثم الى الناس عامة لحديث : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحـد من الأنبياء قبـلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهـوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة »[3] .

وأما ما زعموه من تخير قريش وانتقائها أفضل لغات العرب ، حتى صار لسانها أعرب الألسنة ، فزعم بني على خبر « روي عن أبـي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريشٌ هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة »[4] ، وعلى خبر ينسب الى قتادة نصه : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتـها لغتها ، فنزل القرآن بها »[5] . وهو خبر لا زال يردد ويكرر يوضع بين أقواس تارة وبغـير أقواس تارة أخرى ، استشهاداً به حتى وكأنه صار آية نزلت من السماء ، مـع كون (قتادة) من الضعفاء ، وقد تحدث عن (ابن عباس) مع انه لم يلتق بـه ، ونسب له أقوالاً شاعت بين الناس ، مع انه لم يره ولم يسمع منه ، فهل يؤخذ بعد بقوله على انه حجة ، أو كأنه آية نزلت من السماء ! وهل نقبل خبره عن

---

١ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٢ سورة ابراهيم ، الآية ٤ ، تفسير الطبـري (١٣/١٢١) ، تفسـير الألوسـي (١٣/١٦٦) .
٣ تفسير ابن كثير (٢/٥٢٣) ، (سورة ابراهيم) .
٤ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٥ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .

اجتباء قريش أفضل لغات العرب ، على انه حجة يستدل بها على أدوار التهذيب!

وأنت لو رجعت الى خبر : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم ان قريشاً أفصح العرب وأصفاهم لغة . وذلك ان الله – جل ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته. فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم . وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم .. الخ »[1]، تجده منقولاً نقلاً حرفياً في كل موضع تعرض الى أفصح العرب ، أو العربية الفصحى ، أو اللغة التي نزل بها القرآن ، بسند أحياناً وبغير سند أحياناً أخرى، حتى ظهر وكأنه خبر متواتر ، وإجماع لم يخرج عليه عالم من العلماء ، فأخذ به المحدثون ، وقالوا قولهم المذكور ، ولكنك لو تتبعت الخبر ، وعملت رأيك في حرفية نصه في كل الموارد ، ثم وقفت على آخر مورد قديم ذكره ، ترى انه خبر آحاد ، ورواية واحدة ليس غير ، اكتسب هذا الاجماع بسبب وروده بالحرف في تلك المؤلفات ، فهو لا يفيد قطعاً ، وانما حكمه حكم الأخبار الآحاد.

ثم ان ما ذكروه من صفاء لهجة قريش ومن فصاحتها ، يعارضه قولهم بوجود (غمغمة) في لغتها . فقد قالوا : الغمغمة : « الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة »[2] ، كما يعارضه قولهم بوجود التضجع في لغة قريش ، فلما تحدث (ثعلب) عن معايب اللغة ، قال : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضجع قريش ، وعجرفية ضبة »[3] ، مما يدل على انه قصد بـ (تضجع قريش) ، عيباً من العيوب في الفصاحة . وفي وصف لغة قريش بالتضجع مناقضة لابتداء كلامه بـ « ارتفعت قريش في الفصاحة عن .. » ، كما لا يخفى . وعلماء العربية والأخبار يناقضون أنفسهم بأنفسهم ، وهو شيء مألوف عنهم ، لأنهم كانوا يعمدون الى الرواية والاملاء عن ظهر قلب في الغالب ، لا عن كتاب مدوّن وصحف مكتوبة ، فلا غرابة إن ظهر هذا التباين في كلامه في هذا المكان .

---

١ الصاحبي (٥٢) .
٢ تاج العروس (٦/٩) ، (غمم) .
٣ المزهر (٢١١/١) .

ثم ان علماء العربية ، حين يبحثون في النحو أو في الصرف ، أو في مفردات اللغة عن الغريب والشاذ ، يذكرون فيما يذكرون لغة قريش ، ولغة أهل الحجاز ، فيقولون : « ... لغة قريش »[1] ، و « بلغة قريش » ، كما يقولون: « لغة تميم » ، ولغة طيء ، ولغة يمانية ، ولغـة أسد ، وغير ذلك . ولكنهم يقولون أيضاً : « يقول أهل الحجاز : قَتَر يَقْتِر ، ولغة فيها أخرى يقتُر بضم التاء ، وهي أقل اللغات »[2] ، وجاء : « وفي أمالي القالي : لغة الحجاز ذَأى البقْل يذأى ، وأهل نجد يقولون : ذوى يذوي »[3] الى غير ذلك ، وفي ذكرهم لغـة قريش ولغة أهل الحجاز ، مع اللغات الأخرى في مثل هذه المواضع دلالة بينة على ان العربية الفصحى ليست عربية قريش ، وإنما عربية أخرى ، هي العربية التي نص عليها في القرآن ، أي العربية التي نزل بها الوحي ، وإلا كان من السخف ذكر لغة قريش ، حين الإشارة الى الغريب والشاذ ومواضع الاختلاف .

وأما استشهادهم بحديث : « أنا أفصح العرب ، بيـد اني من قريش » أو « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعـد » ، أو « أنا أفصح من نطق بالضاد ، بيد اني من قريش »[4] ، لإثبات أن قريشاً كانوا أفصح العرب ، بل أصل الفصاحة ، فالحديث من الأحاديث الغريبـة الضعيفة ، رواه أصحاب الغريب ، كما نص على ذلك العلماء[5] ، فهو لا يفيـد حكماً علمياً لضعفه هذا ، ولا يصلح أن يكون أساساً لاستشهاد . وقد يكون من موضوعات العصبية العدنانية القحطانية، وقد يكون من الأحاديث التي رويت من باب الاشادة بقريش لكونهم قوم الرسول ، وبالإشادة بذكرهم وتعظيمهم في كل شيء وجعل لسانهم أفصح الألسنة خدمـة في رأيهم للإسلام وللرسول وللقرآن الكريم . وليس هذا بشيء غريب ، فقد عهدنا أهل الأخبار يروون شعراً ونثراً على ألسنة التبابعة والأقوام الماضية بل والجن والكهان في الحث على الايمان بالرسول ، قبـل ميلاد

---

١ تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) ، المزهر (١/٢١٥) .
٢ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٢١٥) .
٤ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (١١) ، (عبدالسلام محمد هارون) ، وورد « ميداني » ، (من أجل اني) ، أنا أفصح العرب ، تربيت في أخوالي بني سعد ، بيد أني من قريش) .
٥ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) .

الرسول بزمن ، وقبل ظهور الاسلام . وهو مقبول عندهم ، ودليل ذلك تسطيره في كتبهم وروايتهم له .

ولو تجوزنا وقبلنا بالحديث ، واعتبرناه حديثاً صحيحاً ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نفهم منه ما فهموه هم من انه عنى ان قريشاً أفصح العرب ، وانه صار أفصح العرب ، من أجل انه من قريش ، لأن معنى (بَيْد) على تفسير علماء العربية هو : (غير) و (على) ، والأول أعلى . « يقال رجل كثير المال، بيد انه بخيل . معناه غير انه بخيل »[1] ، ولو أخذنا بالتفسيرين المذكورين قلنا يجب أن يكون معنى الحديث على هذا النحو : « أنا أفصح العرب ، غير اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، أو « أنا أفصح العرب ، على اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، ومعناه بعبارة مبسطة أنا أفصح العرب ، وان كنت من قوم منهم ، هم قريش ، لهم لسانهم ، وقد نشأت في بني سعد . وقريش كما نعلم بعض العرب ، لا كل العرب . وليس في هذا المعنى أية دلالة على تخصيص قريش بالفصاحة ، وعلى ان لسانها أفصح الألسنة . وكل ما فيه إشادة بفصاحة الرسول وحده ، وإفادة بأنه أفصح العرب، فلا أحد أفصح وأنطق منه ، فهو حديث يفيد التخصيص لا التعميم،وهو خاص بفصاحة الرسول . وهو لذلك لا يمكن أن يكون حجة على تفضيل لسان قريش على الألسنة الأخرى، ولأجل تحويله الى حجة فسّروا لفظة (بيد) تفسيراً جعل الفصاحة للرسول ولقومه فقالوا : « ويأتي بيد بمعنى : من أجل . ذكره ابن هشام »[2] ، فصار معنى الحديث : « أنا أفصح العرب ، من أجل اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر » . فالرسول وفق تفسيرهم هذا ، أفصح العرب من أجل انه من قريش ، ففصاحته مستمدة منهم ومن (بني سعد بن بكر) ، وصارت قريش في نظرهم أفصح العرب لساناً ، وأصفاهم لغة . مع انهم يذكرون فيما يذكرون عن كلام الرسول ، ان (عمر بن الخطاب) قال للرسول يوماً : « يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من ظهورنا .. »[3] ، وان رجلاً آخر سأله بقوله : « يا رسول الله ما أفصحك ! فما رأينا الذي هو أعرب منك .

---

١ تاج العروس (٢/٣٠٨) ، (باد) .
٢ تاج العروس (٢/٣٠٨) ، (باد) .
٣ المزهر (١/٢٠٩) .

قال : حق لي ، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين . وقال الخطابي : اعلم ان الله لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات أعربها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ثم أمده بجوامع الكلم . قال : ومن فصاحته أنه تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، كقوله : مات حتف أنفه ، وحمي الوطيس ... الخ »[1] . وفي حديث (عمر) إن صح : « ولم تخرج من بين أظهرنا »[2] صراحة بتعجب عمر من هذه الفصاحة التي كانت للرسول مع أنه لم يخرج من بين أظهرهم ، أي من مكة ، ولو كان لسان قريش أفصح الألسنة لما قال عمر للرسول قوله المذكور ، الذي يدل على أن الفصاحة في خارج قريش ، وعند الأعراب . وفي جواب الرسول على الرجل من قوله : « حقّ لي ، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين »[3] ، — إن صح هذا الحديث — تفنيداً لقول القائلين بنزوله بلغة قريش ، ولو كان قد نزل بلغتهم لقال : « بلسان قرشي مبين » ولم يقل أحد من العلماء إن اللسان العربي ، هو لسان قريش ، بل نجدهم يقولون دائماً : لسان قريش ، ولغة قريش ، ونزل بلسان قريش ، ويذكرون هذا اللسان مع الألسنة الأخرى ، مثل لسان تميم ، وهذيل ، وبني سعد بن بكر .

وأما ما قالوه من أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول ، لم تجد صعوبة في التفاهم معه،وان الرسول حين أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ليعظهم ويعلمهم ما وجد صعوبة في التفاهم معهم ، وأنهم لو لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى ، لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً ، « وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الاسلام »[4] ، فيعارضه ما ذكروه من أنه « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من

---

١ المزهر (١/٢٠٩) .

٢ المزهر (١/٣٥) .

٣ المزهر (١/٣٥) .

٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٢ وما بعدها) .

وفود العرب الذين لا يوجه اليهم الخطاب ، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة، حتى قال له علي بن أبي طالب ، كرمّ الله وجهه ، وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ! فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه عما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[1] . وفي هذا الخبر — إن صح — دلالة على الضد ، دلالة على ان العرب كانت على سجيتها ولسانها في كلامها ، وانها لم تكن تنطق بلسان قريش بل بألسنتها ، وإلا لما تعجب عليّ وغيره من كيفية تفاهم الرسول مع القبائل وعدم تمكنهم هم من فهم كلامهم ، مع انه واياهم من أب واحد ، أي من قريش . ثم من أكد لنا ان معاذ بن جبل ، وهو من الأنصار لم يجد صعوبة في تفاهمه مع أهل اليمن ، وان وفود اليمن لم تجد صعوبة في تفاهمها مع الرسول ، ومن أين جاء هذا التأكيد ؟ والذي نعلمه ان الموارد لم تتحدث عن ذلك ، بل الذي رأيناه هو العكس ، وهو ما ذكرته في خبر عليّ مع النبي. أما لو أخذنا بما نجده في الموارد من كلام الوفود مع الرسول وجواب الرسول على كلامهم ، وكله بهذه العربية المبينة ، فقد قلت مراراً إن الصحابة في ذلك الوقت لم يكونوا يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ولا كلام الوفود مع الرسول ، بل ولا كلام الرسول وحده ، أي حديثه ، وان ما نقرأه من نصوص لا يمثل الأصل ، وربما مثل المعنى ، وقد يكون لا هذا ولا ذاك ، وانما روايات موضوعة ، قد يحتمل أن يكون مع الوفود أناس يحسنون التكلم بالعربية المبينة ، وان بين أصحاب النبي من كان من العربية الجنوبية ومن القبائل التي كانت تتكلم بلهجات متباينة ، فكانوا يقومون له بدور التفاهم والتقريب بين كلام الرسول وكلام الوفود .

وأما ما زعموه من دور (عكاظ) في تهذيب اللغة ، وأثر قريش فيه ، فلئن كان لعكاظ أثر في تباري العرب في النثر وفي الشعر ، فإنك لا تستطيع إرجاع هذا الأثر الى عمل وفعل جماعة معينة ، وليس في الذي تحدث به الرواة من أخبار عن (عكاظ) ما يحصر فعل هذا التهذيب بقريش ، وما قريش إلا كغيرهم من

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٣٥) ، (رواية اللغة) .

قصاد هذا المكان من حيث المجيء للبيع والشراء والإتجار . لم تكن الحكومة لهم بعكاظ ، وإنما كانت لتميم ، وتميم من أشهر الناس في فنون الخطابة والكلام . ودليل ذلك ، ما يورده أهل الأخبار عن خطبائهم وحكمائهم من كلام ، وما ينسبونه اليهم من حكم وخطب بليغة ، ثم إن هذه السوق لم تظهر إلا في أيام الرسول وقبل خمس عشرة سنة من الإسلام . وقيل إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وتركت عام خرجت الحرورية بمكة مع (المختار بن عوف) سنة تسع وعشرين ومائة[1] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (عكاظ) سوق «كانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون» ، وأنهم كانوا «يقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون شعراً ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك»[2] ، وذكروا ان الشاعر النابغة الذبياني كان يأتيها فينشد الناس من شعره ، «وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية[2] فأنشدته»[3] ، وذكروا أن في شعر (أمية بن خلف) الخزاعي ، اشارة الى مكانة هذه السوق عند الشعراء ، حيث يقول :

ألا من مبلغ حسان عني مغلغلة تدب الى عكاظ

فأجابه (حسان) في أبيات تشير أيضاً الى هذه الأهمية ، وذلك بقوله :

أتاني عن أميّة زور قول وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر ان بقيت لكم كلاماً ينشر في المجنة مع عكاظ
قوافي كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجرفة الغلاظ[4]

فلم يشر حسان الى أثر قريش في هذه السوق ، ولم يشر أمية الى قريش كذلك، والذي يفهم من الشعرين أن ذكر عكاظ فيها ، هو بسبب تجمع الناس في هذه

---

١ الخزانة (٢/٥٠٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ، اللسان (٧/٤٤٨) ، (عكظ) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، (خنساء بنت عمرو) .
٤ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .

السوق ، فما يقال فيها ويصرخ على رؤوس الأشهاد ينتشر في كل مكان ، ويأخذ صداه بين الحاضرين ، ثم يذهب الى الغائبين ، ولهذا كانت أيضاً الموضع الذي يعلن فيه الناس خلع من يريدون خلعه للتبرؤ من جرائره ، شأنها في ذلك شأن (سوق مجنة) ، وهي أيضاً من أسواق الجاهلية وكانت على أميال من مكة [1] ، وأنت ترى ان (حسان) قد ذكر أنه سينشر شعره فيها وفي عكاظ . مما يدل على أنها كانت ذات أهمية أيضاً من حيث النشر والاعلان ، وأنها مثل عكاظ ، ومثل أي سوق أخرى كبيرة من حيث تجمع الناس فيها والاعلان عمّا يقع لهم من أحداث .

وأما ما ذكروه من انشاد حسان للنابغة شعره :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ومن رد النابغة عليه بقوله : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . فحكاية شك فيها العلماء ، وإن كان هذا الشاهد من شواهد سيبويه . لأن الاعتراض لا يدور على الشاهد ، وانما على القصة . وقد ذهب بعض العلماء الى انها خبر مجهول لا أصل له . وهناك قوم أنكروا هذا البيت أصلاً ، ومنهم من روى ملاحظة النابغة المزعومة بشكل آخر [2] ، وفي الشكلين ما يوحي الى ان القصة مفتعلة ، وضعها الرواة لإيجاد مخرج للبيت .

ولم أجد في المراجع المعتبرة القديمة نصاً ، يفيد ان الأمر كان لقريش في الحكم بين الشعراء أو الخطباء في سوق عكاظ . والنابغة الذي جعلوه حكماً يحكم في أمر الشعر لم يكن من قريش ، بل هو من (بني ذبيان) ، وهو الحكم الوحيد الذي نص أهل الأخبار على اسمه . وزعموا انه كانت له قبة حمراء من أدم ، وكان ينشد شعره ، واليه تتحاكم الشعراء في أيهم أشعر ، وكل الشعراء الذين ذكروهم هم : الأعشى ، والخنساء ، وحسان في قصة منمقة طريفة [3] . ولم أعثر حتى الآن على اسم حاكم آخر ، آلت اليه حكومة الشعر في عكاظ ، لا من قريش ولا من غير قريش . فأين اذن موقع قريش في هذه السوق من الإعراب .

---

١ تاج العروس (٩/١٦٤) ، (جنن) .
٢ خزانة (٣/٤٣٠ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٨٩) .

وأما ما زعمه بعض أهل الأخبار من ان العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فـلا يُعبّأ به حتى يأتي مكة فيعرضه عـلى قريش ، فـإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله ، وإن لم يستحسنوه طُرح وذهب فيما ذهب ؛ وما روي عن (أبـي عمرو بن العلاء) من قوله : كانت العرب تجتمع في كـل عام بمكة ، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش »[1] . فروايات من نوع الروايات التي لا تتمكن من الوقوف على أرجلها، ولم نجد في كتب التأريخ والأخبار ما يؤيدها،وضعت لتبرير القصص الذي نسجوه عن أسطورة تعليق المعلّقات . ثم إننا لم نسمع بخبر الشعر الذي استحسنوه وأجازوه ، غير شعر المعلقات ، ولو كان ما نسب الى (أبـي عمرو بن العلاء) أو غيره حقاً ، من استحسان شعر وطرح شعر ، لـما سكت رواة الشعر من الإشارة الى الشعر الذي استحسنه أهل مكة فنال بذلك شرف الاختيار والسيادة والرفعة ، ولما غضوا النظر غضاً تامـاً عن الاشارة الى الشعر الذي لم يستحسنوه فسقط وذل ، وفي ذكر الشعر الفاشل أهمية كبيرة في نظر الشعراء الخصوم ، وفي نظر القبائل التي كانت تبحث وتتجسس عـلى الهفوات والسقطات لاتخاذها مغمزاً تنال بهـا القبائل بعضها بعضاً ! ثم كيف سكتت قريش عن هذا الشرف الذي كان لهـا قبل الاسلام ، وقد رووا أنها نظرت فإذا حظها في الشعر أيام الجاهليـة قليل ، فاستكثرت منه في الاسلام ، وأنها أضافت كثـيراً الى شعر (حسان) للإساءة اليه ، ولو كان هذا الشرف المزعوم ، لما سكتوا عنه ، ولمـا سكت من تبسط في تأريخ مكة ، أو كتب في السيرة عن الاشارة اليه ، لما فيـه من أهمية كبيرة بالنسبة للتأريخ، ثم اننا لا نجد في القرآن الكريم شيئاً يشير الى ذلك ، مع تعرضه للشعراء ، كما لا نجد في كتب الحديث أي شيء يدل على وجوده ، مع أنهـا تعرضت للشعر ، ولسماع الرسول له ، وقد ذكرت أنـه كان يسأل الصحابة أن ينشدوا شعر الشعراء له ، الى غير ذلك مما هو مدوّن في بطون هذه الكتب .

وأما ما زعموه من ان العرب كانت تعرض أشعارها عـلى قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي ، فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت ومـا استودعت مكتوم ، فقالوا :

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب اللغة (١٨٦/١) .

هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل ، فأنشدهم قصيدته : طحا قلب في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر »[1] . فخبر آحاد ، وان تواتر في الكتب ، لم يروه (ابن سلام) ولا (ابن قتيبة) ، وهو من نوع خبر تعليق المعلقات من الموضوعات التي أولدها أهل الأخبار .

وفي الجدل الذي وقع بين علماء النحو وغيرهم في جواز أو عدم جواز الاحتجاج بالشعر على غريب القرآن ومشكله ، دلالة بينة على اجماع الطرفين على ان كتاب الله انما نزل بلسان عربي مبين ، ولم ينزل بلسان قريش ، الذي هو حرف من اللسان العربي . فقد قال المنكرون للاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر ، إن معنى ذلك جعل الشعر أصلاً للقرآن ، مع ان الشعر مذموم في القرآن والحديث ، فردّ عليهم القائلون به بقولهم : « ليس الأمر كما تزعمون من انا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : إنا جعلناه قرآناً عربياً[2] ، وقال : بلسان عربي مبين[3] .

وقال ابن عباس : «الشعر ديوان العرب ؛ فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[4] ».

ولو كان القرآن قد نزل بلسان قريش ، لما احتاج الناس الى الشعر للاستشهاد به على فهم المشكل والغريب ، وكان عليهم الرجوع الى شعر قريش ونثرهم للاستشهاد به في توضيح ما فيه من مشكل وغريب ، لا الى شعر العرب وكلامهم من غير قريش ، ثم إن في قولهم بوجود مشكل وغريب فيه ، وحروف خفي أمر فهمها على العلماء ، هو دليل في حد ذاته على انه لم ينزل بلسان قريش ، وانما بلسان عربي مبين ، فلو كان قد نزل بلسانهم لما خفي أمره على رجالهم ، من مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من رجال قريش .

ونجد في المسائل المنسوبة الى (نافع بن الأزرق) ، التي سألها على ما يذكر الرواة (ابن عباس) في تفسير القرآن بالشعر ، دلالة على أنه كان يرى أن

---

١ الاغاني (٢١/١١٢) .
٢ الزخرف ، الاية ٢ .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ .
٤ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٥) .

القرآن إنما نزل بلسان عربي ، لا بلسان قريش،فقد روي ان (نافع بن الأزرق) قال لـ (نجدة بن عويمر) : « قم بنا الى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه فقالا : إنّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ؛ وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال : ابن عباس : سلاني عما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : عن اليمين وعن الشمال عزين[1] ، قال : العزون : الحلق الرقاق ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ؛ أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتى يكونوا حول منبره عزينا »[2]

وهي أسئلة مهمة اقترن جواب كل سؤال منها بشعر ، من شعر شعراء الجاهلية والمخضرمين مثل : (عبيد بن الأبرص) ، و (عنترة) ، و (أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب) ، و(لبيد) ، و (طرفة بن العبد) ، و (مالك ابن عوف) ، و (عبدالله بن الزبعرى) ، و (حسان بن ثابت) ، و (عديّ ابن زيد) العبادي ، و (أمية بن أبي الصلت) ، و (أبو ذؤيب) ، و (أبو محجن الثقفي) ، و (امرؤ القيس) ، و (الأعشى) ،و(النابغة) ، و (حمزة بن عبد المطلب) ، و (زيد بن عمرو) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (زهير بن أبي سلمى) ، و (عمرو بن كلثوم) ، و (عبيد بن الأبرص) ، و (كعب بن مالك) ، و (أحيحة الأنصاري) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (مالك بن كنانة) ، و (أبو طالب) و (مهلهل) ، و (الحطيئة) ، و (أوس بن حجر) ، وشعر آخر لشعراء لم يشر الى أسمائهم ، وإنما كان يقول : « أما سمعت قول الشاعر » ، وقد أمكن تشخيص بعضه ، ولم يهتد الى قائل البعض الآخر ، كما استشهد بشعر نسبه الى التبابعة[3] . وهي أجوبة مهمة ، ان صح بالطبع انها صحيحة ، وأنها من أسئلة (نافع) وأجوبة (ابن عباس) ، تفيد في تشخيص ذلك الشعر : وفي تثبيته ، وإن كان من الصعب علينا التصديق

---

١ المعارج ، الاية ٣٧ .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٥ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٦ ـ ٩٠) .

بصحة هذه الأسئلة والأجوبة ، التي أرى أنها وضعت في أيام العباسيين ، ويمكن بالطبع التوصل الى تثبيت زمان وضعها ، بالبحث عن أقدم مورد وردت إشارة فيه اليها ، فحينئذ يمكن تعيين الزمان الذي وضعت فيه بوجه تقريبي .

وفي تفسير الغريب والمشكل من القرآن بالشعر ، وقول علماء التفسير إن اللفظة من ألفاظ قبائل أخرى غير قرشية ، وفي استفهام رجال قريش ، وفي جملتهم رجال كانوا من أقرب الناس الى الرسول ، مثل (أبي بكر) و (عمر) عن ألفاظ وردت في القرآن لم يعرفوا معناها ، مثل (أبّاً)[1] ، وفي رجوع (ابن عباس) الى الأعراب ، يسألهم عن ألفاظ وردت في القرآن أشكل عليه فهم معناها ، وفي اعتماده في تفسيره للقرآن على الشعر ، أقول في كل هذا وأمثاله دلالة واضحة على ان القرآن لم ينزل بلسان قريش ، وانما نزل بلسان العرب ، ولو كان قد نزل بلغة قريش ، كان استشهاد العلماء بالشعر وبلغات العرب في تفسير القرآن شيئاً عبثاً زائداً،وكان عليهم تفسيره وتبيين معناه وتوضيحه بالاستشهاد بلغة قريش وحدها ، لا بالشعر الجاهلي الذي هو شعر العرب ، وبكلام العرب .

ولو رجعنا الى كتب التفسير والسير ، نجد انها قد فسرت الغامض من ألفاظ القرآن بالشعر . فقد استعان قدماء المفسرين في تفسير لفظة (سجى) بالشعر ، فأورد (الطبري) مثلاً بيتاً من شعر (أعشى بني ثعلبة) في تفسير معناها ، هو قوله :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج ما يوارى الدعامصا

وبقول أحد الرجاز :

يا حبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء النساج[2]

واستعان (ابن هشام) ببيت شعر لأمية بن الصلت ، في تفسيرها ، وهو قوله :

إذ أتى موهنا وقد نام صحبي وسجا الليل بالظلام البهيم[3]

---

١ « وفاكهة وأبا » سورة عبس ، الاية ٣١ ، الاتقان (٤/٢) .
٢ تفسير الطبري (١٤٥/٣٠) .
٣ سيرة (١٦١/١) ، (حاشية على الروض) .

وفسّر (الطبري) (عائلا) بقول الشاعر :

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل[1]

ونجد في تفسير الطبري ، وفي كتب التفسير الأخرى أمثلة لا تعد ولا تحصى من هذا القبيل، فسر فيها العلماء غريب ألفاظ القرآن وما صعب فهمه من الألفاظ بالشعر ، حتى لا تكاد تقرأ صفحة أو جملة صفحات من كتب التفسير ، إلا وتجد فيها شعراً ، استشهد به في تفسير كلمة أشكل فهمها على العلماء ، فاستعانوا بالشعر لتوضيح معناها[2] .

ولم يقف الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الناحية المذكورة وحدها ، بل استعين به في تفسير وتعليل أمور أخرى وردت في القرآن أشكل فهمها على العلماء ، من ذلك أوجه العربية وقواعد النحو ، فلما استقرى علماء العربية الشعر الجاهلي ولغات العرب ، واستنبطوا منها القواعد ، وجدوا ان بعضها لا يتماشى مع ما جاء في كتاب الله ، فعمدوا الى التأويل والبحث عن مخرج يوجهون ما جاء فيه وفق قواعد النحو التي قرروها ، ولا سيما المواضع التي اختلف علماء النحو فيها ، وجاءوا فيها بآراء مختلفة ، في التوفيق بين القراءات في القرآن مثلاً ، أو في الأمور المعضلة منه بالشعر ، فقد اختلف قراء مكة ، وقراء البصرة ، والكوفة والشأم في الآية : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة »[3] . وأورد (الطبري) آراء علماء اللغة والنحو ، ثم استشهد بقول طرفة بن العبد :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[4]

وأورد (الطبري) بيتين من الشعر للنابغة في تأويل الآية : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف ترضى » ، اختلف

---

١ تفسير الطبري (٣٠/١٤٩) .

٢ أورد « الطبري » آراء المفسرين المختلفة في تفسير لفظة : « عضين » ، وللتوكيد على المعنى جاء بالشعر في تفسيرها ، راجع تفسيره (١٤/٤٥) ، (بولاق) .

٣ سورة البلد ، رقم ٩٠ ، الاية ١١ وما بعدها .

٤ تفسير الطبري (٣٠/١٣٠) ، بولاق .

في تأويلها علماء النحو[1] . وأورد بيتاً شاهداً على جواز وضع (افعل) في موضع (فعيل) الوارد في تفسير كلمة واردة في سورة « والليل اذا يغشى »[2] . وهناك مواضع كثيرة اختلف علماء النحو في تأويلهـــا بالنسبة لمذاهبهم في أوجه النحو ، فاستشهد كل عالم منهم بشاهد من الشعر ، لتأييد رأيه في صحة ما ذهب اليـــه على زعمه ، وقلما استشهد المفسرون والعلماء بشعر من شعراء قريش ، أو بكـــلام من كلامهم ، في تفسير القرآن ، فلو كان كتاب الله قد نزل بلغتهم لكان من اللازم ، ايجاد مخارجه بالاستشهاد بلغة قريش ، لا بالشعر الجاهلي وبكلام القبائل الأخرى .

وأنا لا ابتعد عن الصواب ، إذا ما قلت إن القرآن قد ساعد في جمع الشعر الجاهلي وفي حفظه ، بسبب اضطرار العلماء على الاستعانة به ، في دراسة كتاب الله وفهمه ، وفي تثبيت قواعد اللغة التي وضعت لتحصين العربية ، وجعلها في متناول يد مَن لا علم له بها ، يستعين بها على النطق بها ، وفقاً لمنطق العرب ،وربما حمل ذلك البعض على انتحال الشعر للاستشهاد به في ايجاد مخرج في تأويل آية أو تفسير كلمة وردت في كتاب الله .

إذن فقول من يقول ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وإن لغـــة قريش هي العربية الفصحى ، وانها لغة الأدب عند الجاهليين ، قول بعيـد عن الصواب ، ولا يمكن أن يأخذ به مـــن له أي إلمام بتأريخ الجاهلية ووقوف عـــلى نصوص الجاهليين ، أخذ من روايات آحاد ، وجدت لها انتشاراً في الكتب القديمة بنقلها بعضها عن بعض من غير نص على اسم السند والمرجع ، فصارت وكأنها أخبار متواترة صحيحة أضاف المحدثون عليها عامل النفوذ السياسي والاقتصادي،والديني ، لإكساء الفكرة القديمة ثوباً جديداً يناسب العصر الحديث ، لتأخذ شكلاً مقبولاً . أما لو سألتني عن لغة القرآن الكريم ، فأقول إن القرآن قد ضبطها وعينها ، إذ سمّاها (لساناً عربياً) ، واللسان العربي ، هـــو لسان كل العرب ، لا لسان بعض منهم ، أو لسان خاصة منهم ، هم قريش ، ولو كان هذا اللسان ، هو لسان قريش لنزل النص عليه في كتاب الله .

---

١ والليل ، الرقم ٩٢ ، الاية (١٩ وما بعدهـــا) ، تفسير الطبـــري (١٤٦/٣٠) ، (بولاق) .

٢ تفسير الطبري (١٤٥/٣٠) .

إن قريشاً قوم من مضر في رأي علماء الأنساب ، فلسانهم على هذا لسان من ألسنة مضر . وقد ورد « عن ابن مسعود : أنه كان يُستحب أن يكـــون الذين يكتبون المصاحف من مضر »[1] ، وورد عن (الأصمعي) قـــوله : « جرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم اليمن ؟ فقال : لجوارهم مضر »[2] . فإذا كانت الفصاحة والعربية في مضر،فحري إذن نزول القرآن بلغة مضر ، لا بلسان قريش .

لقد تمسك علماء اللغة بقول بعضهم : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهـــم أن قريشاً أفصحُ العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك ان الله تعالى اختارهم من جميـــع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قُطّان حرمه ، وولاة بيتـه ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج،ويتحاكمون الى قريش ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[3] . كما تمسكوا بقولهم : « كانت قريشٌ أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس ، والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخـــذ اللسان العربـي من بين قبائل العرب هم: قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخـــذ من غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضري قط ، ولا عن سكـان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخـــذ لا من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكـــر

---

١ المزهر (١/٢١١) .
٢ الفائق (٢/٤٥٩) .
٣ المزهر (١/٢١٠) .

لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[1] . وعلة ذلك « ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل ، ولو علم ان أهل المدينة باقون على فصاحتهم ؛ ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها ، ترك تلقي ما يرد عنها »[2] .

« وقد شك بعضهم في هذا القول ، لأن قريشاً كانت تسكن مكة وما حولها وهم من أهل المدر ، وقريش تجار ، والتجارة تفسد اللغة ، وكان هذا مما عيب على اليمن من ناحية لغتهم ، لأن رسول الله نشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن واسترضع فيهم ، فتعلم الفصاحة منهم ، وأن كثيراً من غلمان قريش في عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يُرسل الى بني سعد لتعلم اللغة والفصاحة ، ومن أجل هذا ظنوا أن هذا الرأي موضوع لإعلاء شأن قريش في اللغة ، لأن رسول الله منهم .

والذي يظهر لي أن سلامة اللغة من دخول الدخيل فيها أمر غير الفصاحة ، وأن سلامة اللغة كانت في بني سعد خيراً مما هي في قريش لأنهم أهل وبر ، وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش فهم أهل مدر ، وكثير منهم كان يرحل الى الشأم ومصر وغيرهما ويتاجر مع أهلها ، ويسمع لغتهم ، فهم من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم ممن خالط الأمم الأخرى »[3] .

---

١ المزهر (١/٢١١ وما بعدها ، ٣٤٣) .
٢ الخصائص (١/٤٠٥) .
٣ ضحى الاسلام (٢/٢٤٧) .

فما قالوه من ان الاتصال والاختلاط بالأعاجم ، يولد الفساد في اللغة ، يتناول قريشاً قبل غيرهم من العرب نظراً لما كان لهم في الجاهلية من اتصال ببلاد الشام واليمن ، وبالعراق وبالحبشة ، ولوجود جاليات أعجمية ، وعدد كبير من الرقيق بينهم ، وما وجود المعربات في لغتهم إلا حجة على تأثر لسانهم بالأعاجم وأخذهم منهم ، فهل يمكن أن يكون لسان قريش اذن أصفى ألسنة العرب وأنقاها مع وجود هذه الأمور التي أخذناها من ألسنة أهل الأخبار ؟

الفصل الاربعون بعد المئة

اللسان العربـي

والآن فلسان من ، هو هذا اللسان العربي ، لقد علمنا انه لم يكـن لسان العرب الجنوبيين ، ولا لسان قوم ثمود أو اللحيانيين،أو الصفويين ، لأن نصوصهم تثبت انه قد كان لهم لسان آخر ، يختلف عن هذا اللسان . وذكرنا انـه ليس بلسان قريش ، وانما قريش كغيرهم عرب من العرب ، فهل هو لسان العدنانيين؟ وجوابنا : كلا ، فقد علمنا ان العدنانية عصبية ظهرت في الاسلام، وانها مضرية سميت عدنانية ، وقلنا ان الثقات من الرواة وقفوا في ذكر النسب عند (عدنان) ورووا ان النبي نهى عن الانتساب الى ما بعده ، وقلنا ان اسمه لم يرد في شعر شاعر جاهلي ، خلا ما نسب الى الشاعر (العباس بن مرداس) ، من قوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطرد[1]

وما نسب الى لبيد ، وهو من المخضرمين ، من قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والدا[2]

وقلنا أشياء أخرى تثبت ان (العدنانية) لم تظهر إلا في الإسلام ، وان اسم

---

١ وفي رواية بغسان ، مكان « بمذحج » ، ابن هشام (٦/١) ، ابن سلام ، طبقات (٥)

٢ طبقات ابن سلام (٥) .

(عدنان) لم يكن معروفاً في الجاهلية ، وربما ظهر قبيل الاسلام ، ولهـذا فلا يعقل أن تكون العربية ، عربية العدنانيين .

إذن ، فهل هي عربية مضر ؟ فقد ورد في الأخبار أن (عمر بن الخطاب) ، « لما أراد أن يكتب الامام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[1] ، ونجد أهل الأخبار يذكرون أنه قال : « لا يملينّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف »[2] . وليس بين الخبرين تناقض ، لأن قريشاً من مضر ، فيمكن حمل الخبرين على أنهما قصدا شيئاً واحداً ، هـو أن القرآن نزل بلسان قريش ، وقريش من مضر ، ولكن مضر قبائل عديدة ، سبق أن تحدثت عنهـا في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فيجب أن يكون نزول القرآن إذن بلغات هذه القبائـل على هذا التفسير ، وتكون العربية الفصحى اذن عربية (مضر) ، أي عربية القبائل التي يرجع أهل الأخبار نسبها الى (مضر) ، أو حلف مضر بتعبير علمي أصح ، وليست عربية جماعة معينة منها ، مثل قريش .

ولكن أهل الأنساب ، يجعلون لمضر أخاً هو (ربيعة) ، وأخوين آخرين ، هما (إياد) و (أنمار) على رأي من جعل (أنماراً) ابناً من أبنـاء نزار ، فما هو حال لسانهم ؟ هل يعدّ لسانهم لسان مضر ، أم كانت لهم ألسنة أخرى ؟ أما النصوص الجاهلية ، فلا جواب فيها على هذا السؤال ، لأنها لا تعرف عن لسان هؤلاء الأخوة شيئاً ، ولم يرد فيها أي شيء من أسمائهم وأسماء قبـائلهم ، ثم ان هذه القبائل لم تترك لنا كتابة نستنبط منها شيئاً عنهم ، اذن فنحن لا نستطيع أن نتحدث عنهم ولا عن لسانهم بأي شيء يستند الى دليل جاهلي مكتوب . وأما الموارد الاسلامية ، فتجعل لسانهم لسان مضر ، وكيف لا تجعل لسانهم مثل لسان مضر ، وهم اخوة من أب واحد . فإذا قلنا إن لسان مضر ، هو اللسان العربـي الفصيح ، وجب علينـا القول بأن لسان إخوته كان مثل لسانه ، وإذن فاللسان العربـي الفصيح ، هو لسان هذه المجموعة المكونة من ولد (نزار) وهي من ولد اسماعيل في النهاية على رأي أهل النسب والأخبار .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .

٢ ابن كثير ، فضائل (٢٠) ، المزهر (١/٢١١) .

اذن فنحن أمام مجموعتين من العربيات ، مجموعـــة تكوّن العربية الجنوبية ، ومجموعة تكوّن العربية الشمالية ، وهي عربية الاسماعيليين ، وذلك على مذهب أهل الأخبار .

أما أنا ، فأسمي هذه العربية ، عربية (ال) ، من سمة (ال) أداة التعريف التي تنفرد وتتميز بها عن بقية المجموعات اللغوية العربية : مجموعة (ن) (ان) ، أي المجموعة العربية الجنوبية ، ومجموعة (ه) (ها) ، أي المجموعة التي تعرّف الأشياء بهذه الأداة : (ه) (ها) ، وتشمل اللحيانية ، والثمودية ، والصفوية . فكل منا استعمل (ال) أداة للتعريف ، هو في نظري من الناطقين بهذه اللغة مهما كان نسبه وفي أي مكان كانت اقامته ، ولذلك فالعربية الفصحى هي عربية مضر وعربية ربيعة ، وعربية إياد وعربية أنمار وعربية كلب وكندة والأزد وكل المستعملين لهذه الأداة ، حتى يظهر المستقبل نصوصاً جديدة، قد تأتي بأداة أخرى لتكوّن مجموعة جديدة من المجموعات اللغوية .

نعم إن عربية (ال) لهجات ، لها خصائص ومميزات ، تحدثت عن بعضها في فصل (لغات العرب) ، ولكن الفروق بينها لا تختلف عن الفروق التي نجدها بين لهجات مجموعة (ن) ، أو بين لهجات مجموعة (ه) ، لأنها فروق ليست كبيرة بحيث ترتفع الى مستوى الاستقلال عن بقية اللهجات .

العربية الشمالية والعربية الجنوبية :

وقد اصطلح المستشرقون على رجع اللغات التي ظهرت في جزيرة العرب الى أصلين : أصل شمالي يقال للغات التي تعود اليه : اللغات أو اللغة العربية الشمالية، وأصل جنوبي يقال للغات التي ترجع اليه: اللغات أو اللغة العربية الجنوبية[1] .

وهذا التقسيم التقليدي للهجات العرب انما خطر ببال المستشرقين من النظريـــة العربية الاسلامية التي ترجع العرب الى أصلين : أصل عدناني ، وأصل قحطاني. ونظراً الى عثورهم على كتابات عربية جنوبية تختلف في لغتهـــا وفي خطها عن العربية القرآنية ، رسخ في أذهانهم هذا التقسيم،وقسموا لغات العرب الى مجموعتين لسهولة البحث حين النظر في اللغات واللهجات .

---

١ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 2.

وبين العربيتين تباين واختلاف ، ما في ذلك من شك . من ذلك ان الفعل في العربيات الجنوبية وليد المصدر ، وان أداة التعريف فيها تكون في أواخر الكلم ، لا في أوائلها كما هو الحال في عربيتنا ، وان حرف (الميم) هو أداة التنكير في العربيات الجنوبية ، الى فروق أخرى ، تحدثت عنها في الجزء السابع من كتابي القديم (تأريخ العرب في الاسلام) .

وإذا كنا لا نزال في جهل عن حقيقة اسم (عدنان) ، الذي لم نعثر عليه حتى اليوم في نص من نصوص المسند ، فإن في وسعنا التحدث عن (قحطان) ، الذي سبق أن أشرت الى أن أهل الأنساب أخذوه من التوراة . فهو اسم مهما قيل فيه ، فقد أخذ من مصدر قديم يعود الى ما قبل الميلاد . ثم انه أورد في النص العربي الجنوبي الذي وسم بـ (Jamme 635) ، الذي دونه قائد الجيش (ابكرب احرس بن ابلم) ، (أبكرب أحرس بن ابل) ، أو (أبكرب أحرس) من (آل ابل) (آل ابال) ، وذلك لمناسبة عودته سالماً من حرب قادها بأمر ملكه وسيده الملك (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان ، ابن الملك (علهان نهفان) ملك سبأ وذو ريدان . وقد شمل القتال أرضاً واسعة ، هي (أشعران) ، أرض الأشعريين و (بحر) ، والقبائل القاطنة حول مدينة (نجران) ، ثم الأحباش الذين كانوا يحاربون معهم ويؤازرونهم في قتالهم ضد السبئيين ، ثم سكان مدينة (قريتم) (قرية) الذين كانوا من (كاهل) (كهلم) ، ثم في الصدامين اللذين وقعا مع (ربعت) (ربيعة) (ذ آل ثور) ، (ربيعة) من (آل ثور) ، ملك (كدت) (كندة) وقحطان (قحطن) ، وكذلك ضد (أبعل) أي سادة مدينة (قريتم)[1] .

ويفهم من النص ان (ربعت ذ الثورم) ، هو اسم رجل ، اسمه (ربيعة) من (آل ثور) . وكان كما يقول النص ملكاً على (كندة) و (قحطان)[2] . ويذكر أهل الأخبار ، ان (كندة) اسم قبيلة وأبو حي من اليمن ، وهم من نسل (ثور بن مرة بن أدد بن زيد) ، وقيل (بنو مرتع بن ثور) ، أو

---

١ الاسطر ٢٢ ـ ٢٩ من النص .

٢ السطر ٢٦ ـ ٢٧ من النص ، (ربعت ذ الثورم ملك كدت وقحطن) ، REP. EPIG. 4304.

(كندة بن ثور) ، وقيل ان ثوراً هو مرتع ، وكندة هو أبوه ، الى غير ذلك من آراء[1] ، تريك ان شيئاً من الواقع كان عند أهل الأخبار عن هذه القبيلة ، غير انهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عنه . وترى من هذا النص ان (آل ثور) اسم أسرة كانت تحكم قبيلتي (كدت) (كندة) و (قحطان) ، وان رئيسها إذ ذاك هو (ربيعة) الذي لم يرد اسم والده . وقد جعل أهل الأخبار من (آل ثور) رجلاً جعلوه أباً لقبيلة كندة ، ثم حاروا في نسبه . ويتبين من هذا النص ان (قحطان) كانوا في هذا العهد تحت حكم (ربيعة) الذي هو من (آل ثور) .

وقد جعل (جامة) حكم (شعر أوتر) الذي سبق أن تحدثت عنه بتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب[2] في حوالى السنة (٦٥) قبل الميلاد[3] ، وقد بنيت آراء بقية الباحثين في وقت حكمه ، فنكون بذلك قد وقفنا على اسم قحطان وكندة في نص يعود عهده الى حوالى القرن الأول قبل الميلاد . وقد كانتا مثل أهل (قرية) وأهل (نجران) في حرب مع السبئيين . وهذا النص هو أقدم نص عربي جنوبي وصل فيه اسم (قحطان) و (كدت) (كندة) الينا حتى الآن .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن لهجة (قحطان) و (كدت) (كندة) ، وذلك بسبب عدم وصول كتابات منها الينا ، ولكننا لا نستبعد احتمال كون لغتها من مجموعة اللغات العربية الجنوبية ، لأن مواطنها كانت في العربية الجنوبية في هذا العهد ، أما بطون (كندة) التي نزلت (نجداً) والتي ذهب بعضها الى العراق ، فنحن لا ندري إذا كانت لهجتها قد تغيرت ، فصارت عربية شمالية ، بدليل نظم (امرىء القيس) الكندي وبقية شعراء الكندة الشعر بهذه العربية ، أم أنها كانت تتكلم بالعربيتين ، إلا أن شعراءها كانوا ينظمون الشعر بالعربية المعهودة مجاراة للقبائل الشمالية التي كانت تجاورها والتي احتكت بها ، وقد تكون هذه البطون قد هاجرت من العربية الجنوبية قبل الميلاد ، فأقامت بنجد ، وتعربت من ثم بالعربية الشمالية ، وقد تكون (كدت) قبيلة عربية جنوبية غير (كندة) ،

---

١ تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كند) .
٢ (ص ٣٦٩ وما بعدها) .
٣ JAMME, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, p. 391.

بقيت في اليمن الى الاسلام ، إذ ورد اسمها في نص (أبرهة) أيضاً ، ونظراً الى التشابه فيما بين (كدت) (كدة) و (كندة) ربط النسابون بين الإثنين، وجعلوا نسب كندة (كدت) . فتكون (كندة) بذلك من القبائل العربية الشمالية، و (كدت) من القبائل العربية الجنوبية ، أقول هذه الآراء على سبيل الاحتمالات لأني من الأشخاص الذين يكرهون البت في الأمور العلمية لمجرد حدس أو ظن، ومن غير دليل علمي مقنع . والبت في مثل هذه الأمور لا يكون مقبولاً عندي إلا إذا استند على نص جاهلي ، أو بدليل معقول مقبول ، وحيث أننا لا نملكه الآن ، فأترك هذه الاحتمالات الى المستقبل علّه يتمكن من العثور على نصوص جاهلية تكشف القناع عنها ، وتأتي الينا بالجواب الواضح الصحيح .

ولكننا نجد في الوقت نفسه — وكما سبق أن ذكرت — ان هنالك لهجات عربية مثل الثمودية والصفوية ، تستعمل (الهاء) أداة تعريف بدلاً من الألف واللام في عربيتنا ، فيقال (هملك) ، و (هدار) بمعنى (الملك) و (الدار) . وذلك كما في العبرانية ، إذ تستعمل الهاء فيها أداة للتعريف ، ويقوم (ذ) فيها مقام الاسم الموصول كما عند طيء في قديم الزمان ، الى خصائص أخرى تجعلها مجموعة أخرى لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية شمالية .

كما تبين من دراسة بعض الكتابات الجاهلية ، مثل الكتابات التي عثر عليها في (القرية) وفي جبل (عبيد) ، وفي شمال خشم كمدة ان لها خصائص انفردت بها عن المجموعتين ، وقد وردت فيها أسماء كثيرة لم ترد في الكتابات العربية الجنوبية وفي عربية (ه) ، مما يجعلها أهلاً لأن تكون موضع دراسة خاصة في المستقبل ، لعلها تكون مجموعة لغوية جديدة قائمة بذاتها ، أو حلقة مفقودة بين اللغات الجاهلية المندثرة .

ووجود مثل هذا التباين الذي اكتشف من الكتابات ، هو الذي دفعني إلى التفكير في اعادة النظر في تقسيم اللغات العربية الى مجموعتين،وعلى التفكير بتقسيمها الى مجموعات ذات خصائص لغوية متشابهة،تستنبط بالدرجة الأولى من أداة التعريف التي هي المميز الوحيد الذي يميز بين لهجات الجاهليين .

ونلاحظ ان عربية الـ (ن) (ان) مصطلحات غير موجودة في العربية الفصيحة لكنها موجودة في العبرانية . وفيها عدد غير قليل من الكلمات المجهولة في اللغات

السامية الأخرى ، صعب على العلماء إدراكهـا بسبب ذلك ، فاكتفوا باستخلاص معناها من وضعها في الجمل ، وذلك بصورة تقريبية[1] . كما نلاحظ ان الأسمـاء فيها ، تختلف عن الأسماء المعروفة عند العرب الشماليين ، وان الأسماء الواردة في كتابات المسند المتأخرة ، تختلف بعض الاختلاف عن الأسماء الواردة في النصوص القديمة ، فقد تغلبت البساطة على الأسماء المتأخرة ، حتى صارت تشاكل أسمـاء العرب الشماليين المألوفة عند ظهور الاسلام . وقد لاحظ (الهمداني) هذه الظاهرة، فعبر عنها بقوله : « فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية ، وسمع بها الناس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم وهو هو[2].

وخير ما يمكن أن نفعله في نظري لمعرفة المتكلمين بالعربية الفصحى ، هو أن نقوم بالبحث عن الخصائص النحوية والصرفية واللفظية التي تميزها عن بقية العربيات، فإذا ضبطناها استطعنا تعيين من كان يتكلم بها . ولما كنّا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، صار من الصعب علينا التوصل الى نتائج علمية ايجابية مرضية، تحدد القبائل والأماكن التي تكلمت بها تحديداً صحيحاً مضبوطاً ، غير أن المثل العربي يقول : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فإذا عسر علينا الحصول عـلى نتائج كلية مقنعة ، فلا بأس من الرضا بالحصول على جزء أو بعض من نتائج قـد تقدم لنا معرفة وعلماً . ونحن إذا سرنا وفق حكمة هذا المثل ، ودرسنا خصائص هذه العربية ، نجد أن من أولى ميزاتها استعمالها (ال) أداة للتعريف ، تدخلهـا على أول الأسماء النكرة ، فتحيلها الى أسماء معرفة ، بينما نجد العربيـات الأخرى التي عثر على نصوص جاهلية مدوّنة بها تستعمل أدوات تعريف أخرى . ولمـا كنّا نعرف المواضع التي عثر فيها على هذه النصوص ، صار في إمكاننا حصرها، وبذلك نستطيع التكهن عـن المواضع التي كان يتكلم أهلها بالعربية التي تستعمل (ال) أداة للتعريف ، أي هذه العربية الفصحى . ولما كانت العربية الجنوبية قد استعملت الـ (ن) (ان) أداة للتعريف ، تلحقهـا في أواخر الأسماء المنكرة ، وحيث أننا لم نتمكن حتى الآن من الحصول على نص في هـذه الأرضين استعمل (ال) أداة للتعريف فباستطاعتنا القول : إن سكانها لم يدوّنوا بالعربية القرآنية ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٤٦ ٢وما بعدها) .
٢ الاكليل (١٣/١) .

بل كان تدوينهم وكلامهم بالعربية الجنوبية التي كانت تضم جملة لهجات . ولما كان آخر نص عثر عليه مدوّن بالمسند ، يعود تأريخه الى سنة (٥٥٤) للميلاد[١] ، صار في إمكاننا القول بأن العربية الجنوبيـــة كانت وبقيت لساناً للعرب الجنوبيين الى ظهور الاسلام .

ونظراً لعثور الباحثين على كتابات مدوّنة بالمسند ، في (القريـة) أو (قرية الفأو) وفي مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وفي مواضع من (وادي الدواسر) ، وفي مواضع تقع جنوبي خشم العرض ، فإن في استطاعتنا القول إن أهل هـــذه الأرضين كانوا يكتبون بالمسند[٢] ، ويتكلمون بلغات عربية جنوبية ، اختلفت بعض الاختلاف عن العربيات الجنوبية المستعملة في العربية الجنوبية . فهي إذن من المناطق التي لم يتكلم أهلها بالعربية القرآنية . ونظراً لما نجـده من وجود بعض الاختلاف بين عربية هذه المنطقة وعربية العربية الجنوبية ، فإننا نستطيع القول بأنهـــا تكون مرحلة وسطى بين العربيات الجنوبية والعربية القرآنية ، وحيث أن كثيراً من هذه الكتابات لم يكتب لهـــا النشر ، ولوجود كتابات أخرى لم يتمكن الباحثون من نقشها أو تصويرها ، فمن المحتمل في رأيي مجيء يوم قد يعثر فيه عـــلى لهجات جديدة ، قد تزيح الستار عن أسرار اللغات عند الجاهليين ، وقد تكون مجموعات لغوية جديدة من مجموعات اللغات العربية عند أهل الجاهلية .

وقد عثر في العربية الشرقية على كتابات جاهلية مدوّنة بالمسند هي وإن كانت قليلة ، إلا أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبـــاحث في تأريخ تطور الكتابة عنـــد العرب ، وللباحث في اللهجات العربية الجاهلية . فقد ثبت منها أن أصحاب هذه الكتابات كـــانوا يتكلمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربية القرآنية ، وإن كتبوا بالمسند . ويلاحظ من النص الذي هو شاهد قبر رجل اسمه (ايليا بن عين ابن شصر) أنه استعمل لفظة (ذ) بمعنى (من) ونأسف لأن هـذه النصوص القليلة قصيرة ، وفي أمور شخصية ، قد خلت من أداة التعريف ، لذلك لا نستطيع تثبيت لهجتها بصورة أكيدة[٣] .

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٢٢) .

٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٩٥ وما بعدها) .

٣ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٩٣ وما بعدها) .

واستناداً الى النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية ، التي استعملت الـ (ه) (ها) أداة للتعريف ، نستطيع أن نقول إن أصحاب هـذه اللهجات يكوّنون مجموعة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف عن العربية الجنوبية وعن العربية القرآنية. وهي تشارك العبرانية في استعمال الأداة المذكورة في التعريف،ولكنها تقارب عربية (ال) في استعمال المفردات .

وأما النبط ، وهم عرب من العرب الشماليين ، فقد استعملوا أداتين للتعريف، أداة هي حرف الألف الممدود اللاحق بآخر الاسم ، مثل (ملكا) بمعنى (الملك) ، و (مسجدا) ، بمعنى (المسجد) ، وأداة أخـرى ، هي أداة (ال) التي نستعملها في عربيتنا . وفي استعمال النبط لأداتـين للتعريف ، دلالة على تأثرهم بالآراميين وبالعرب المتكلمين باللغة العربية القرآنية ، أو العرب المستعملين لأداة التعريف (ال) بتعبير أصح . والنبطية نفسها ، لغة وسط ، جمعت بين الآرامية والعربية ، فبينما نجدها تستعمل الآرامية ، اذا بها تخلط معها ألفاظاً وتراكيب عربية فصيحة . وذلك بسبب اختلاط النبط بالآراميين وتأثرهم بثقافتهم ، واحتكاكهم بالأعراب،وكونهم عرباً في الأصل[1] . ومعنى هذا ان العرب الذين كانوا يجاورون النبط ، وهم عرب البوادي كانوا من المتكلمين بأداة التعريف (ال) ، سمة العربية الفصيحة .

وأما النصوص المدونة بنبطية مشوبة بمصطلحات عربية ، وأهمها نص (حرّان) الذي يعود تأريخه الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، فإنه يفصح عن قوم عرب أو نبط لاستعمالهم (ال) أداة للتعريف في الألفاظ : (التج) بمعنى (التاج) ، وفي (الأسدين) ، بمعنى (أسد) ، وفي (الشعوب) . وأرجح كونهم عرباً ، لاستعمالهم جملاً عربية فصيحة بينة في هذا النص ، مثـل : (ملك العرب) ، و (مدينة شمر) ، و (نزل بنيه الشعوب) ، و (فلم يبلغ ملك مبلغه) ، فهذه جمل عربية ، أصحابها عرب ، وإن كتبوا بالنبطية ، وقد تفصح عن عربية أهل الحيرة في ذلك الوقت ، لأن الملك المتوفى ، وهو (امرؤ القيس) ، هو من ملوك الحيرة ، والنص المكتوب ، هو شاخص قبره ، فمن المعقول تصور أن الكتابة كتبت بلغة أهل الحيرة في ذلك العهد[2] .

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٧/٣٠٥ وما بعدها) .
٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٧/٢٧٣ وما بعدها) .

ويظهر من استعمال كتابة (زبد) التي يعود عهدها الى سنة (٥١٢) للميلاد ، لجملة « بسم الإلـه » ، أن صاحبها وان كتب بالنبطية ، غير أنه كان من النبط المستعملين لـ (ال) أداة للتعريف . وأما الكتابة المعروفة بكتابة (حران) ، فإنها أقرب هذه النصوص الى العربية القرآنية . كما يتبين ذلك من نصها العربي ، وهو :

انا شرحيل بر ظلمو ، بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ ، بعد مفسد خيبر بعم .

أي : (أنا شرحيل) (شراحيل) بن ظالم ، بنيت هذا المرطول سنة ٤٦٣ ، بعد خراب (غزو) خيبر بعام . ويقابل تأريخ هذا النص سنة (٥٦٨) للميلاد [١] .

وعربية هذا النص ، عربية واضحة ، ليس فيها ما يحاسب عليه بالقياس الى عربيتنا ، إلا جملة (بر ظلمو) المكتوبة على وفق القواعد النبطية . ويلاحظ أنها استعملت (ال) أداة للتعريف ، ولاحظت قواعد النحو في جملة : « بنيت ذا المرطول) المستعملة في عربيتنا ، مما يدل على أن صاحبها كان يراعي الإعراب في لسانه . وأنه من قوم كانوا يراعون قواعد الإعراب في كلامهم .

إذن فنحن أمام قوم عرب ، نبط ، لسانهم العربي من مجموعة (ال) ، أي من العربية المستخدمة لـ (ال) أداة للتعريف ، منازلهم أطراف بلاد الشأم ، وشواطىء الفرات العربية . واذا تذكرنا أن السريان كانوا على الحيرة (حيرتا دي طيابة) ، وأنهم كانوا يطلقون لفظة (طيابة) في مرادف (عرب) ، عرفنا إذن ، أن أهلها كانوا من العرب [٢] ، ولما كان نص (النمارة) قد كتب بنبطية متأثرة بعربية (ال) ، نستطيع أن نقول ان عرب الحيرة كانوا من المتكلمين بهذه العربية .

يتبين لنا مما تقدم ، ان العرب الذين كانوا يقطنون الحيرة والأنبار ، أو عرب العراق بتعبير أصح ، ثم عرب بلاد الشأم ، وعرب البوادي ، وجزيرة العرب باستثناء المواضع التي أمدتنا بالكتابات ، كانوا يتكلمون بعربية (ال) أي العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ودوّن بها الشعر الجاهلي . وهي عربية أساسية ، جمعت شمل لغات ولهجات ، على نحو ما وجدنا في العربية الجنوبية من اشتمالها على جملة لهجات ، وما وجدناه في اللهجة العربية الشمالية الغربية ، المستعملة لـ (ه) (ها) أداة للتعريف .

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٧/٢٨٠) .
٢ المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام (٣/١٥٦) .

فأهل نجد وبادية الشأم ، وعرب العراق وبلاد الشأم والحجـاز ، كانوا هم المتكلمين بهذه العربية التي تعرّف النكرة بأداة التعريف (ال) ، وذلك قبـل الاسلام ، أما المواطن الأخرى ، فلها لهجاتهـا الخاصة ، وبينها لهجات تأثرت بخصائص مجموعة (ال) . وقد غلب الاسلام هذه العربية على اللهجات الأخرى ، فصارت الأكثرية تتكلم بها ، إلا في المواضع المنعزلة ، التي بقيت شبه مستقلة ، حيث احتفظت ببعض خصائص لهجاتها القديمة ، كالذي نراه اليوم في مهرة وفي الشحر وفي مواضع أخرى من العربية الجنوبية التي تتكلم بلهجات لا نفهمها عنهم هي من بقايا اللهجات الجاهلية .

وللوقوف على خصائص اللهجات المكونة لعربية الـ (ن) (ان) ، أرى ان من الضروري وجوب ارسال بعثات علمية الى العربية الجنوبيـة لدراسة اللهجات المحلية ، وهي عديدة وتسجيلها على الأشرطة من أفواه المتكلمين بها ، ولدراسة قواعدها النحوية والصرفية وأصول نظم الشعر عند المتكلمين بها ، وتفيدنا دراسة نظم الشعر ــ خاصة ــ عند العرب الجنوبيين الحاليين فائدة كبيرة في الوقوف على أسس نظم الشعر عندهم أيام الجاهلية ، وعلى الفروق الكائنة بين نظمهم قبـل الاسلام ، ونظم بقية العرب الجاهليين . ولا بد أيضاً من مقارنة نظمهم في الوقت الحاضر ، بنظم الأعراب في المملكة العربية السعودية ، للوقوف على الفروق بين النظمين ، وستكون هذه الفروق هادياً لنا في الوقوف على الفروق التي كانت بين النظم عند شعراء الجاهلية في بلاد الشأم والعراق ونجد والبحرين واليمامة والحجـاز والعربية الجنوبية .

وسوف تساعدنا دراسة لهجات المملكة الأردنية الهاشمية ، المملكة الـتي كانت تعرف بـ (ادوم) في التأريخ ، وكذلك لهجات أعالي الحجاز في الوقت الحاضر ، فائدة كبيرة في الوقوف على خصائص لهجة عربية الـ (ه) (ها) ، وفي استنباط قواعدها منها . فلا بد وأن تكون في اللهجة (البلقاوية)[1] ، وفي اللهجات المحلية الأخرى بقايا من تلك اللغة ، مندمجة مع عربيـة (ال) التي تغلبت على لسانهم منذ الفتح الاسلامي الذي بدأ لتلك البلاد عام (٦٣٣) للميلاد[2] . ولا بد من دراسة

---

١ نسبة الى البلقاء

٢ Andrzej Czapkiewicz, Sprachproben Aus Madaba, Polska Akademia Nauk, Krakow, 1960.

أصول نظمهم في لغاتهم الدارجة هذه للإهتداء بها على أصول النظم عندهم قبل الاسلام ، وعلى المؤثرات التي أثرت على نظمهم في الوقت الحاضر ، مع دراسة خصائص نظمهم وما يمتاز به عن أصول النظم عند بقية العرب في الوقت الحاضر أيضاً .

ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية بعربية (ال) غير ما ذكرته من النصوص النبطية المشوبة بعربية (ال) . ولما كانت هذه العربية ذات لهجات ولغات،عرفت أسماؤها وضبطت في الاسلام،وبينها فروق ومميزات ، كما بينت ذلك في الملاحظات البسيطة السطحية التي جمعها عنها علماء العربية،ولما كنا لا نملك عن هذه اللهجات غير تلك الملاحظات التي أوجزتها في فصل : لغات العرب ، فإن من اللازم ضم دراسة ما سيقوم به علماؤنا في المستقبل عن اللهجات الحالية في مختلف أنحاء جزيرة العرب الى دراسة العلماء المتقدمين ، لتكمل احداهما الأخرى ، وستتولد منها ولا شك دراسة علمية قيمة ، تفيدنا في الإهتداء الى معرفة خصائص اللغات العربية قبل الإسلام .

لقد توصلت من دراسة ملاحظات أولئك العلماء ، الى أن هذه اللهجات لم تكن تختلف في كيفية النطق بالحروف ، وفي القواعد الصرفية فقط ، لكنها كانت تختلف فيما بينها في القواعد النحوية أيضاً ، مثل حذف الياء من الفعل المعتل بها إذا أُكد بنون في لغة طيء وفزارة[1] ، ومثل (ذو) الطائية التي يلازم اعرابها بالواو في كل موضع[2] ، ومثل إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً، في لغة بلحرث ، وخثعم ، وكنانة[3] ، ومثل (هَلُمَّ) في لغة أهل الحجاز التي تلزم حالة واحدة على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً، مذكراً أو مؤنثاً ، وتلزم في كل ذلك الفتح ، بينما تتغير بحسب الإسناد في لغة نجد من بني تميم[4] ، الى غير ذلك من أمور تحدثت عنها في فصل : لغات العرب ، وهي لو جمعت في مكان واحد ودرست بعناية ودقة ، دلت على أن الفروق بين هذه اللهجات في القواعد هي أعمق بكثير مما يظن .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٤٢) .
٢ المصدر نفسه (١/١٤٤) .
٣ كذلك (١/١٤٥) .
٤ أيضا (١/١٤٨) .

ومع وجود هذه الاختلافات والفروق ، كان بإمكان المتكلمين بهـذه اللغات الثانوية المتفرعة من المجموعات اللغوية ، التفاهم فيما بينهم ، كما يتفاهم العراقيون والمصريون وأهل المغرب بعضهم مع بعض مع تكلمهم بألسنة ذات لهجات مختلفة . فكان في استطاعة أهل نجد التفاهم مع عرب الحيرة ، وفي استطاعة أهـل مكة التفاهم مع أهل الحيرة ، والعكس بالعكس ، مع وجود صعوبات بالطبع في فهم النطق باللهجة ، وفي إدراك مخارج بعض الحروف واختلاف القبائل في النطق بها ، ووجود كلمات غريبة في لغة ، قد لا توجد في لغة أخرى . إلا ان هذه الفروق لم تكن شديدة عميقة ، بحيث جعلت فهم العرب بعضهم بعضاً أمراً صعباً ، أو صيرت اللغات وكأنها لغات أعجمية ، لا يفهم المتخاطبون بها أحدهم الآخر . ودليل ذلك اننا نجد الوفود التي وفدت الى المدينة ، لمبايعة الرسول على الاسلام ، تكلم الرسول وتتفاهم معه ومع أصحابه ، وتخطب أو تنشد الشعر أمامه ، وهو يفهمهم ، وهم يفهمونه من دون صعوبة ولا كلفة كبيرة ، لأن أمر هذه اللغات لم يكن على نحو ما تصوره بعضهم من التباين والاختلاف ، والبعد بين الألسنة . اللهم إلا ما كان من أمر أهل العربية الجنوبية ، فقد كانوا يرطنون ، بدليـل ما جاء في كتاب رسول الله الى (عياش بن أبي ربيعة المخزومي) حين أرسله برسالة الى أبناء (عبد كلال) الحميري ، فقد قال له فيها : « وهم قارئون عليك ، فإذا رطنوا ، فقل : ترجموا »[1] . وربما كان منهم من لا يفقه عربية المسلمين ، الناطقين بعربية (ال) ، فكان يترجم لهم بعض من لهم علم وفقه بالعربيات الجنوبية وبعربية القرآن .

وبدليل ثانٍ ، هو أن المسلمين لما حاصروا القصر الأبيض من قصور الحيرة ، سمعوا أهل القصر ، يصرخون : « عليكم الخزازيف » ، « فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأسُ القصر من رجـال متعلقي المخالي ، يرمون المسلمين بالخزازيف — وهي المـداحي من الخزف »[2] ، فلم يفهم المسلمون معنى (الخزازيف) في بادىء الأمر لكنهم عرفوا أنهم يعنون شيئاً له صلة بالدفاع عن القصر ، ثم عرفوه ، بعد نزول سيل من (الخزف) عليهم . وكان أهـل (الحيرة) ينطقون بالعربية ، فلما قال

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٢) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .
٢ الطبري (٣/٣٦٠ وما بعدها) .

(خالد بن الوليد) لأصحاب عدي بن العبادي : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عديّ : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت »[1] . وقد كانت لهم مدارس تدرس العربية ، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، ومنهم أخذ أهل مكة كتابتهم ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار . فنحن نجد أن العرب كانوا يتكلمون على مقتضى سجيتهم التي فطروا عليها ، ومع ذلك فقد كانوا يتفاهمون ويدركون المعاني ، ولو كانوا من قبائل متباعدة ، ومن أماكن متنائية . « قال ابن هشام في شرح الشواهد : كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[2] .

ولما حاصر (خالد بن الوليد) الأنبار ، « تصايح عرب الأنبار يومئذ من السور ، وقالوا : صبح الأنبار شرٌ »[3] . ولما اطمأن بالأنبار « وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب . نزلنا الى قوم من العرب قبلنا »[4] . فأهل الأنبار مثل أهل الحيرة عرب ، كانوا يتكلمون العربية ، وهي عربية فهمها خالد ومن كان معه من رجال قبائل ، ولو كانت عربيتهم عربية قريش ، لما سكتوا من النص عليها ، لما في ذلك من تقرب الى قريش . قال الأزهري : « وجعل الله ، عزّ وجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم عربياً ، لأنه من صريح العرب ، ولو أن قوماً من الأعراب الذين يسكنون البادية حضروا القرى العربية وغيرها ، وتناءوا معهم فيها ، سمّوا عرباً ولم يسمّوا

---

١ الطبري (٣/٣٦١) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي) .
٢ المزهر (١/٢٦١) .
٣ الطبري (٣/٣٧٤) .
٤ الطبري (٣/٣٧٥) .

أعراباً » . « والعربية هي هذه اللغة » . « والعرب : هذا الجيل »[1] .

أما لو سألتني رأيي في هذه الخطب التي دوّنها أهل السير والتواريخ والأخبار للوفود التي وفدت على الرسول لمبايعته ، أو عن حديث الصحابة معه قبل الهجرة أو بعدها ، فأقول لك بكل صراحة ، إن هذه النصوص : نصوص كلام الرسول مع الصحابة ، ونصوص كلام الصحابة معه ، هي نصوص وردت الينـــا بأفواه الرواة ، كلامها كلامهم ، وعباراتها عباراتهم ، أما المعاني ، أي المضامين ، فهي التي أخذت بالرواية ، وفي بعضها زيادات أو نقصان ، ظهرت بسبب طبيعة الاعتماد على الذاكرة لا الكتابة والتدوين . فنحن اذن أمام نصوص ، لا يمكن أن نقول انها أصيلة ، لأنها لم تؤخـــذ من محاضر جلسات ، ولا من كتّاب كانوا يكتبون كل ما كان يقع ويحدث ، وينقلون الكلام نقلاً أميناً صادقاً ، كما ينقل الشريط المسجل للأصوات ، أصوات المتكلمين ، وانما رويت بعد الحادث بأمد، قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً ، وبعضها أحاديث شخصية ، ليست مهمة ، وقد تكون من الموضوعات ، ولا غرابة في ذلك فكتب التراجم والحديث والسير، مليئة بتكذيب كثير من هذه الأمور ، التي افتعلت ، إما من الرواة أنفسهم ، وإما من آلهم ، وإما عصبية ، أو عن مذهب وعقيدة .

أفصح العرب :

وموضوع أفصح العرب موضوع لا أرى انه قد كان لأهل الجاهلية علم به ، إذ كان لكل قوم منهم لسان يستعزون به ويتعصبون له ، يرون انه لسانهم العزيز. ولا يكون فصاحة إلا اذا كان هنالك لسان أدب رفيع ، يكوّنـــه رجال الأدب من ناثرين وشعراء ، يكون لساناً مقرراً محترماً يتبعه الجميع ، تعقده وحدة شاملة وشعور بوجود أواصر دم وتأريخ واحد وثقافة واحدة ، وقلم يكتب بـه ، فإذا اجتمعت كل هذه وأمثالها وأضيفت اليها وجود حكومـة كبيرة تتخذ ذلك اللسان لساناً عاماً لها ، ثم تقوم بتشجيع الأدباء والعلماء وتحسن اليهم ، صار ذلك اللسان اللسان المحظـوظ المأثور المقدم على سائر الألسنة ، وصارت اللهجات الأخرى ،

---

١ اللسان (١/٥٨٦ وما بعدها) ، (عرب) .

ألسنة ثانوية بعده ، تعدّ دون اللغة المذكورة في الرتبة والمنزلة والفصاحة ، كما حدث في الاسلام ، حيث اعتبر اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم، لسان الاسلام والمسلمين ، لسان الدين والدولة ، به تكتب دواوين الدولة ، وبه يؤلف العلماء ويكتب الأدباء ، وينظم الشعراء ، وبموجب قواعده المقررة يتعلم اللسان كيفية الكتابة والنطق، من خالفها أو أخذ بألفاظ خارجة على قواعد نحوها وصرفها عدّ عامياً جلفاً من سواد الناس وسوقتهم .

ومدار الفصاحة في نظر علماء العربية كثرة استعمال العرب للكلمة ، سئل (أبا عمرو بن العلاء) : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أحملُ على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات . فما أكثرت العرب من استعماله من غيره ، فهو فصيح . وأما الفصاحة في المفرد : فخلوصه من تنافر الحروف ، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس اللغوي . والتنافر ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعُسر النطق بها ، مثل (الهعخ) و (مستشزر)[1] . والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها الى أن ينقر عنها في كتب اللغة ، أو أن تكون قليلة الاستعمال ، وأضاف بعضهم الى ما تقدم : ألا تكون الكلمة مبتذلة[2] . وآراء أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا الكتاب ، لعدم وجود مكان في حدوده .

وقد وضعت هذه الحدود في الاسلام ، أما ما قبله فلا علم لنا برأي الجاهليين في الفصاحة وفي الفصيح ، ولكننا نستطيع بالقياس الى ما عندنا من كتابات ، أن نقول : إن العرب الجنوبيين كانوا يدونون بلهجاتهم المعروفة ، وهي : المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية ، وفقاً لقواعد لهجاتهم وبألفاظهم ، فهي بالنسبة لهم لغاتهم الفصيحة ، لغة التدوين والكلام، ولما قضى السبئيون على استقلال حكومات معين وحضرموت وقتبان وأوسان ، وتكونت منها حكومة واحدة ، ضعفت الخصائص اللغوية التي ميزت لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض ، واندمجت

---

١ من قول امرىء القيس :
غدائره مستشزرات الى العلا
المزهر (١/١٨٥) .

٢ المزهر (١/١٨٤ وما بعدها) .

بلغة السبئيين التي صارت لغة الحكومة ، وصار العرب الجنوبيون يكتبون بها الى ظهور الاسلام . فهذه اللغة ، هي اللغة الفصحى عندهم وقلمها هو المسند .

أما بالنسبة الى العرب الآخرين ، فالظاهر أن عربية (ال) ، كانت قد تغلبت عند ظهور الاسلام على العربيات الأخرى ، وفي ضمنها عربية الـ (ه) (ها) ، وذلك بقوة وضخامة القبائل المتكلمة بها ، وباستعمال حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة وحكومة كندة لها ، مما حمل الخطباء والشعراء والكهنة والسحرة على النطق بها ، وبلهجاتهم الخاصة بهم ، وهي لهجات كانت متقاربة لكنها تختلف فيما بينها في استعمال بعض الألفاظ وفي كيفية النطق بالكلم ، أي في مخارج الحروف ، وفي خصائص نحوية وصرفية ، إلا أن هذه الفروق والاختلافات لم تخرجها مع ذلك عن وحدة اللغة ، وهي كلها في نظر أصحابها عربية فصيحة ، وقد كانت تتقارب باحتكاك القبائل بعضها ببعض ، وبتوسع نفوذ ملوك الحيرة في جزيرة العرب ، وبتنقل الشعراء والخطباء بين القبائل ، وبتأثر العرب بالأحداث السياسية العالمية ، وبظهور النزعة الى تكوين حكومات مدنية تحل محلّ الحكومات القبلية الضيقة ، وبتوغل المبشرين والمثقفين العرب بين القبائل ، يدعونهم الى النصرانية التي كانت قد جاءت من الحيرة ، بنصرانية شرقية عربية ، متأثرة بالإرمية ، لكنها اضطرت الى التعرب بالتدريج ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن ظهرت كلمة الاسلام بلغة (ال) ، فصارت بنزول الوحي بها أفصح ألسنة العرب ، وصار قلمها قلم الاسلام المقرر . وبذلك نبذ المسند ، وماتت الكتابة به منذ ذلك الحين،ومات التراث العربي الجنوبي بموت لسانه وقلمه .

وبانتصار الاسلام على الشرك ، والاسلام دين ودولة ، دعوته الى (أمة) ، المواطنون فيها اخوة ، وله لسان ، هو اللسان الذي نزل به القرآن ، صار هذا اللسان أفصح الألسنة منذ ذلك الحين ، بل لسان أهل الجنة ، وصار من الواجب على المسلمين تثبيت قواعده ودراسته لفهم كتاب الله المنزل به ، خدمة لدين الله الذي شرف هذا اللسان باتخاذه لساناً له . ورعاية قلمه الذي ثبت كتاب الله ، وقام العلماء بضبط قواعده وجمع مفرداته ، والبحث في كل ما يتعلق باللسان من علم . قام بهذه المهمة علماء المصرين : البصرة والكوفة ، وكان لا بد لهم من رسم حدود ، ومن وضع قواعد في كيفية تثبيت العربية ، وفيمن يصح أخذ هذه القواعد من ألسنتهم ، الى غير ذلك من أمور اتبعوها في جمع علوم العربية .

وحين شُرع بوضع قواعد العربية ، كان الاسلام قد حطم حدود جزيرة العرب ، وتخطاها ، قد غلب الساسانيين ، وأبعد الروم عن بلاد الشأم ومصر وما وراءها ، وقد جمع العرب بالأعاجم ، والعجم بالعرب،وشبك ألسنة الأعاجم بلسان العرب ، ولسان العرب بألسنة العجم ، واضطر العلماء الى وضع قواعد فيمن يجب أخذ لسان العرب منهم من العرب ، وفيمن لا يجوز الأخذ منهم ، بسبب اتصالهم بالعجم ، وما طرأ على لسان بعضهم من خبث نتيجة لهذا الاتصال. فكانت تعاليمهم ألا تؤخذ العربية إلا من عرب بقوا بمعزل عن الأعاجم ، فلا « يؤخذ عن حضري قط،ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم ، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[1] .

وذكر أن قريشاً كانوا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، أما الذين نقل عنهم اللسان العربي من « قبائل العرب ، هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[2] . وروي أن أفصح العرب عُليا هوازن ، وسفلى تميم[3] .

وروى (الجاحظ) أن (معاوية) قال يوماً : « من أفصح العرب ؟ فقال

---

١ المزهر (١/٢١٢) .
٢ المزهر (١/٢١١) .
٣ المصدر نفسه .

قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفُرات ، وتيامنوا عن عنعنة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير . قال : من هم؟ قال قريش »[1] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن أثر المحيط في تكوين اللغة ، فقال : «وكاختلاف ما بين المكّي والمدني ، والبدويّ والحضري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، وكما يقال: ان هذيلاً أكراد العرب، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحُزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وان اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن ، وكذلك في الشمائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مشوب ولا معلهج ولا مذرّع ولا مزلج . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البرّية من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق واللغة »[2] .

فرأى (الجاحظ) ان بين العدنانيين والقحطانيين فروقاً كبيرة في اللغة ، غير ان بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين فروقاً لغوية ، كالذي أورده من أمثلة على الفروق التي تكون بين من ينزل الجبال ، أو من ينزل السهول ، وبين من ينزل النجود ، ومن ينزل الأغوار ، ثم الخلافات التي تقع بين بطون القبائل عند تشتتها وتفرقها . ثم تحدث عن لغة عليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن ، ولغات أهل الحجاز . وهي قبائل تحدث عنها علماء اللغة .

وقد ذكر (الرافعي) ان « الفصاحة اشتهرت في مضر ، حتى عُرفت اللغة بالمضرية ، ومن أشهر قبائلها كنانة — ومن بطونها قريش — ثم تميم ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وضبّة ، ومزينة »[3] . وقال أيضاً : « وأفصح القبائل الذين

---

١ الجاحظ (٣/٢١٣) .
٢ رسائل الجاحظ (١/١٠ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٥) .

هم مادة اللغة فيما نص عليه الرواة : قيس ، وتميم ، وأسد ، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجُشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف . قال أبو عبيدة : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العربَ بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر — وكان مسترضعاً فيهم — وهم أيضاً الذين يقول فيهم أبو عمرو بن العلاء؛ أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم »[1] .

« وتلك القبائل كلها كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز وتهامة ،وقد بقيت معادن الفصاحة زمناً بعد الاسلام ، واليها كان يرحل الرواة ، حتى إن الكسائي لما خرج الى البصرة فلقي الخليل بن أحمد ، وجلس في حلقته ، قال له رجل من الأعراب : تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! فقال للخليل : من أين أخذت علمك ؟ قال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة . فخرج اليهم ولم يرجع حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب .

ولم تزل هوازن وتميم وأسد متميزة بخلوص النية وفصاحة اللغة الى آخر القرن الرابع للهجرة »[2] .

وقد ترك الأخذ عن (حاضرة الحجاز) أي مكة « لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم »[3] ، فلم يأخذوا منهم . وقد قرأنا قبل قليل أسماء القبائل التي أدخلها علماء اللغة في القائمة السوداء المقاطعة التي لم يجوّزوا الأخذ منها ، وذلك حين شروعهم بتدوين اللغة أيضاً للسبب المذكور وهو اتصالها بالأعاجم ، وتأثر ألسنتها بلغات من اتصلت بهم من عجم .

واللغات في نظر (ابن جني) على اختلافها كلها حجة « ألا ترى أن لغة الحجاز في إعمال ما ، ولغة تميم في تركه ، كلّ منهما يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ، لكن

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٧ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١/١٢٨) .
٣ المزهر (١/٢١٢) .

غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها، وتعتقد ان أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد نسباً بها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا »[1] .

أعود الآن فأكرر ما سبق أن قلته من اننا اليوم في حاجة ماسة ، الى وجوب تسجيل كل ما أورده علماء اللغة عن لغات العرب ولهجاتها ، فصيحة كانت تلك اللغة أو رديئة ، ولا سيما في الأمور التي شذت فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، في الشعر أو في النثر ، تسجيل كل الأسماء الجاهلية التي عرف بها العرب قبل الاسلام ، مع بيان أسماء الرجال الذين تسمّوا بها وأسماء القبائل التي هم منها ، والمواضع التي كانوا بها ، لنتعرف بذلك على أصول هذه القبائل ، والأماكن التي جاءت منها ، والأثر الذي تأثرت به من القبائل المجاورة لها ، فنحن نعرف اليوم ، ان أهل العربية الجنوبية ، كانت لهم أسماء وردت في المسند لم تكن شائعة بين العرب الشماليين ، وقد كانت خاصة بهم ، ثم نعرف اليوم ان الأسماء الواردة في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة المقاربة للاسلام ، اختلفت بعض الاختلاف عن الأسماء القديمة المركبة المضافة ، مما يدل على وقوع تغير في الذوق اللغوي عند العرب الجنوبيين قبيل الاسلام ، وعلى الميل الى اختزال الأسماء وتبسيطها ، على نحو ما كان عند العرب الشماليين ، ومثل هذه الدراسة ، تكون ذات قيمة كبيرة في الوقوف على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي مرت على جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام . وهذا التغير الذي أشير اليه هو شيء طبيعي ، وقع قبل الاسلام ، كما وقع في الاسلام ، فقد ماتت الأسماء الجاهلية ، مثل (امرؤ القيس) ، و (معدي كرب) ، و (شرحبيل) ، و (شرحئيل)، و (عبد عوف) ، و (عبد مناة) ، و (عبد أسد) ، في الاسلام ، وحلت محلها أسماء إسلامية ، وماتت ألفاظ جاهلية ، بسبب إماتة الاسلام لها ، أو إعراضه عن استعمالها ، أو بسبب تغير الذوق ، فلم تعد تصلح للاستعمال ، وولدت ألفاظ إسلامية لم تكن معروفة عند الجاهليين ، ونشأت معان جديدة لألفاظ جاهلية قديمة لم تكن تعبر عن هذه المعاني قبل الاسلام .

كذلك ، نحن في حاجة الى تدوين شعر الشعراء على حسب القبائل التي ينتمي اليها قالة الشعر ، لنتمكن بذلك من دراسة خصائص شعر كل قبيلة ، وما ورد

---

١ المزهر (١/٢٥٧) .

فيه من لغتها ، على أن نهتم بصورة خاصة ، بالأصول الأولى لهذا الشعر ، أي بأقدم الروايات التي ورد فيها ، ثم ندون الى جانبها الروايات المختلفة التي ورد فيها على ألسنة علماء الشعر واللغة ، والتعديلات التي أدخلها العلماء عليه ، لنرى ما فعله العلماء في الشعر الجاهلي،وطبيعة ذلك الشعر بالنسبة الى اللغات ، وخصائص كل شعر .

ونجد في كتاب (الإكليل) ملاحظات ثمينة تفيدنا كثيراً في دراسة اللهجات العربية الجنوبية ، وقد أخذها من كلام الناس في أيامه . من ذلك ما ذكره في كتابه (الإكليل) من قوله نقلاً عن كلام (أبي نصر) : إن « حمير تطرح مثل هذه الألف في كلامها ، فتقول : إذا أردت أن تقول للرجل : اسمع واذهب: سِمَع وذِهَب ، وغِضَب في اغضب وشرب في اشرب »[1] . وهي لغة لا تزال تستعمل في بعض القبائل اليمانية[2] . ومن ذلك استعماله لفظة (القدمان) في قوله : « وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية، وسمع بها الناسُ مخففة مُبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل أنه غير ذلك الإسم ، وهو هو »[3] . ولفظة (القدمان) من الألفاظ العربية الجنوبية التي ترد بكثرة في كتابات المسند ، ترد مع أسماء بعض الأشهر التي يتكرر اسمها، على نحو قولنا في العربية : (ربيع الأول) و (ربيع الثاني) ، و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخرة) ، فيستعملون (قدمن) (قدمان) للأول ، أي الأقدم والمتقدم ، ويستعملون (اخرن) (اخران) للثاني ، أي الآخر والمتأخر ، وتعني (قدمان) القدامى والقدماء كذلك .

ونجد في ثنايا كتابه مصطلحات وألفاظاً أخرى من هذا القبيل استعملها هو ، أو نقلها عن غيره ، أو من الكتب ، وهي ترجع الى اللهجات العربية القديمة ، وقد لا نجد لها وجوداً في معاجم اللغة . كذلك يجب البحث في كتب (سعيد ابن نشوان) الحميري وفي كتب غيره من المؤلفين من أهل العربية الجنوبية الى يومنا هذا ، لنلتقط ما قد يكون في ثناياها من كلم عربي جنوبي قديم ، ومن

---

١ الاكليل (٢/٤٨) .
٢ المصدر نفسه (هامش رقم ٤) .
٣ الاكليل (١/١٣) .

أمثلة وجمل ، وأسماء أشهر وغير ذلك ، إضافة الى دراسة لهجات الأحياء منهم، ووجوب الحفر حفراً علمياً في مواضع الآثار لاستخراج ما فيها من نفائس مكتوبة أو غير مكتوبة لتعيننا في الوقوف على أصول لغة العرب الجنوبيين قبل الإسلام .

ولا بد لنا اليوم من وجوب القيام بمسح لغوي جغرافي ، للغات جزيرة العرب ولقبائل العراق وبلاد الشأم ، لمعرفة ما تبقى عندها من أثر للهجاتها القديمة . مسح عام لكلامها الذي تنطق به ، ولشعرها الذي تنظمه في الوقت الحاضر ، وللأسماء الغريبة التي تتسمى بها ، ومسح مثل هذا سيعين الباحثين كثيراً في الوقوف على أسرار اللهجات العربية قبل الإسلام .